القسم الثانى

نظم الحكم

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب السابع

السلطنة والبلاط

مبدأ الوراثة فى سلطنة المماليك — ألقاب السلطان — وظائفه — البيوت السلطانية ومديروها — الحرس السلطانى .

المبدأ الوراثى

اعتلى أولاد بيبرس وأولاد قلاوون وأحفاده عرش مصر على وفق المبدأ الوراثى . على أن المماليك — برغم ذلك — لم يقيموا لقانون الوراثة أى وزن ، كما كانت الحال عند غيرهم من الأمم . ولا غرو فقد كان ذلك المبدأ غريبا عن عقلية المماليك ، الذين أدركوا — على الأقل نظريا — أن الملك يجب أن يؤول إلى أقوى الأمراء شجاعة ومهارة فى الحروب واعتبروا السلطان واحدا منهم يختارونه من بينهم . لأنه لا يمتاز عنهم إلا بما وهب الله له من قوة وبسالة ودهاء وسعة حيلة ، فصار له بذلك صفة الرياسة عليهم . ولذلك كان استقرار السلطان على العرش يتوقف على كثرة أتباعه وضخامة ثروته ومبلغ رضاء الأمراء عنه .

فكثيرا ما اغتصب العرش « أتابك » السلطان إذا وجد أن ابن سيده حدث لا قدرة له على مقاومته ، أو أحد الأمراء الأقوياء اذا وجد أن له أتباعا كثيرين وأنه واسع الثروة ذو مقدرة سياسية عظيمة ومهارة حربية فائقة وتفنن فى أساليب الدس من وراء ستار . وكثيراً ما كان يمهد ذلك الأمير للكبير للوصول إلى غرضه باثارة الفتن والدسائس فى وجه السلطان الجالس على العرش ، ويعمد أحياناً إلى إشعال نار ثورة داخلية تنتهى بخلع سيده أو باغتياله . وحينئذ يستولى هذا الأمير على عرش السلطنة الخالى بمعاونة أنصاره دون كبير معارضة .

ولكن السلطان الظاهر بيبرس رأى أن يضع حداً لتغلب الأقوى على العرش وأن يؤسس نظاماً يضمن به بقاء المُلك فى بيته . وكان هذا أساس مبدأ « وراثة العرش » فى دولة المماليك ، تلك الوراثة التى انحصرت فى بيت بيبرس أولا ثم فى بيت قلاوون ثانياً . بيد أن هذا النظام الوراثى لم يكن مستقراً ولا ثابت الأركان ولا هو متفق مع ما نعرفه فى نظام وراثة العرش بمعناه الحديث وهو وصول الابن الأكبر للسلطان إلى العرش بعد وفاة أبيه واستقراره عليه مدى الحياة .

وترجع العوامل التى جعلت المماليك لا يفهمون المعنى المقصود من نظام الوراثة إلى صغر سن ابن السلطان المتوفى مما دعا إلى إقامة أتابك[١] عليه ، إذ كان الأتابكة ينتهزون هذه الفرصة ويجعلون هؤلاء السلاطين ألعوبة فى أيديهم . لذلك ظهر نفوذ الأمير كتبغا المنصورى أتابك السلطان الناصر ، وتركزت السلطة فى يده ، وتضاءلت بجانبه شخصية السلطان الناصر وقد كان صبياً وقتئذ حتى إنه لم يُسمع عنه شىء إلا وقت التولية وحين خُلِع من الملك فى ٨ المحرم سنة (٦٩٤ هـ — ١٢٩٤ م) بعد سنة واحدة من بدء سلطنته ، وخلفه أتابكه كتبغا على العرش دون أن يكون له حق شرعى فيه ، اللهم إلا ما انتحله من الأعذار من اضطراب الأحوال الداخلية ومواجهة البلاد للعدو الخارجى فى عهد السلطان الفتى التى لم تعد سنه العاشرة إذ ذاك[٢].

ومن العوامل الهامة التى أدت إلى إطالة فترة خلع السلطان الناصر وإقصائه عن عرشه ، شدة التنافس الذى قام بين أمراء ذلك العصر على الوصول إلى السلطنة بأية طريقة فقد عمل الأمير سيف الدين لاچين نائب السلطنة على قتل كتبغا . ولكنه لم ينجح فى قتله ، ففر كتبغا إلى دمشق من وجه منافسه واستقر بها وزالت سلطنته وجلس لاچين مكانه على العرش سنة (٦٩٦ هـ = ١٢٩٦ م) . إلا أن الأمور لم تستقر للسلطان لاچين سوى فترة قصيرة ، فإنه فى سنة (٦٩٨ هـ = ١٢٩٨ م) دبّر اثنان من أمراء مصر الطامحين مثله إلى العرش : وهما سيف الدين طغجى وسيف الدين كرجى أمر مقتله ، وقد نجحا فيما اعتزماه . إلا أن أحدهما لم يتمكن من الوصول إل العرش بعد لاچين فقد طالب الشعب بعودة الناصر إلى عرشه ثانية لينجيهم من ذلك الاضطراب الذى أوجدته حالة التنافس بين الأمراء على السلطة والنفوذ .

وكان يصحب خلع السلطان القائم وتولية سلطان آخر مكانه فى عهود الاغتصاب التى تخللت عصر الناصر اضطراب وفوضى ، يدبرهما الأمراء وأتباعهم.. وكان ذلك الاضطراب يشتد حين كانت تظهر قوتان متعادلتان ، كلتاهما تنشد الحكم لنفسها . فقد كان أتباع كل فريق يسيرون فى مظاهرة تتجه نحو القصر السلطانى للعمل على تنحية السلطان إما بحبسه أو نفيه أو قتله . وقد ينتهز المتظاهرون الفرصة فينهبون المتاجر ويسطون على المنازل . ولذلك كان الناس يشتد هلعهم فيغلقون منازلهم ويعطلون أعمالهم لما كان يصحب أمثال هذه المظاهرات من انتشار الفوضى ، وتطوف أحزاب المماليك المتنافسة الشوارع التى لم يحكم سكانها إغلاقها

---

(١) جاء شرح لفظ الاتابك عند الكلام على « كبار موظفى الدولة فى سلطنة المماليك » . على أنه مما يجب الاشارة اليه أنه لا يصح أن يفهم من ذلك أن الأتابك هو الوصى على العرش ، بل كان كبير القواد فى الدولة وأنه كان يوجد حتى اذا كان السلطان غير قاصر .

(٢) لم يكن كتبغا أول من اغتصب عرش ابن سيده ، فقد سبقه الى القيام بهذا الدور الأمير سيف الدين قطر مع الملك المنصور نور الدين على ابن الملك المعز أيبك ، والأمير سيف الدين قلاوون مع الملك العادل بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس .

فينهبون بيوت أعدائهم . ويقترن هذا القتال بأعمال العنف فتتأثر المبانى والأعمال الفنية ويلحقها التخريب والتدمير .

وقد استمر نفوذ الأمراء فى ازدياد فى عهد سلطنة الناصر الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨ هـ = ١٢٩٨ — ١٣٠٨ م) فأدى إلى ظهور عامل التحاسد بينهم بشكل جلى وتدبيرهم الفتن وإقامتهم الدسائس بعضهم لبعض لعدم وجود سلطان قوى يردع هؤلاء الأمراء عن غيهم ويقفهم عند حد لا يتعدونه . لذلك كانت تلك الفترة من سلطنة الناصر عبارة عن سلسلة من المؤامرات والمشاحنات بين أمراء تقتضيهم مصالحهم أن يلتفوا حول شخص السلطان الناصر ، وبين أمراء ينافسونهم فى هذه المصالح ويرون أن فى خلع الناصر وإقامة غيره خير وسيلة لتحقيق أمانيهم والنكاية بأعدائهم . فقد انتهز الأميران سيف الدين سلاّر نائب السلطنة وركن الدين بيبرس الجاشنكير فرصة صغر سن الناصر وحجرا عليه ومنعاه من التصرف فى شئون الدولة وتنافسا على السلطة والنفوذ ، حتى انتهى الأمر بخروج الناصر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) متظاهراً بالحج ، ولكنه استقر فى الكرك وعزل نفسه عن الملك فى تلك السنة بعد أن يئس من اصلاح أحوال الأمراء واستقرار الأمور فى مصر . وانتهز الأمير بيبرس الجاشنكير تلك الفرصة واعتلى عرش السلطنة . إلا أن سلطنته لم تدم أكثر من سنة (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ = ١٣٠٨ = ١٣٠٩م) ، فان الشعب المصرى كان قد سئم عهود الاغتصاب وماحل به خلالها من بؤس وشقاء ، فنادى للمرة الثانية بضرورة عودة الناصر إلى عرشه فلبى نداءه وهرب بيبرس الجاشنكير واستقر الناصر على عرش السلطنة للمرة الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ = ١٣٠٩ — ١٣٤٠ م) .

وفى فترة سلطنة الناصر الثالثة ، استتب الأمن واستقر النظام داخل البلاد . فقد قبض الناصر على زمام الأمور بيده ، وحكم البلاد حكما مطلقاً ، وقضى على نفوذ الأمراء ودسائسهم واشتد فى معاملتهم وقسا عليهم . فقد تعلم فى عهد سلطنتيه الأولى والثانية أن هؤلاء الأمراء لا يعترفون بالمبدأ الوراثى الذى اعتلى الناصر عرش مصر على أساسه . ولو أنهم احترموا هذا المبدأ لما أقلقوا بال الناصر على هذا النحو ، ولما ظهر الاغتصاب بين حين وآخر فى عهد سلطنته الطويلة التى استمرت ثمانية وأربعين عاما تخللتها ثلاث فترات اغتصاب بلغت مدتها سبع سنوات غير متعاقبة وشملت حكم زين الدين كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) وحسام الدين لاچين (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ = ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) وبيبرس الجاشنكير (٧٩٨ — ٧٠٩ هـ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م) . ومنذ وفاة الناصر محمد جلس على العرش ثمانية من أولاده (٧٤١ — ٧٦٢ هـ = ١٣٤٠ — ١٣٦١ م) وأربعة من أحفاده (٧٦٢ — ٧٨٤ هـ = ١٣٦١ — ١٣٨٤ م) . وبذلك نرى أن نظام الوراثة استمر متبعاً فى تولية السلاطين

أكثر من قرن من الزمان (١) ولكن على هذا النحو المضطرب ، إذ كان أضعف السلاطين إرادة فى أغلب الأحيان أكثرهم قبولا لدى الأمراء . فاذا مابدأ يعارض رغباتهم بادروا إلى عزله مهما كان حقه الوراثى فى الملك واضحاً . ولم يفهم الأمراء من معنى الوراثة إذ ذاك أن الجالس على عرش مصر يجب أن يظل فى الملك يموت بل حتى لا بأس من أن يباح عزله أو قتله .

وليس بغريب أن يحدث ذلك فى بيت قلاوون الوراثى ، فان قلاوون نفسه يعد مغتصباً للعرش من العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس ومن المهدين لخلع أخيه السعيد بركة خان من قبل .

ألقاب السلطنة

لعل صلاح الدين هو أول من اتخذ لقب السلطنة من حكام مصر (٢) واتخذ المماليك هذا اللقب من بعد الأيوبيين بمصر والشام . وكان السلطان فى العهد المملوكى يعرف باسم « سلطان الاسلام والمسلمين » . وذلك يرجع إلى أن المماليك أكدوا فى ألقابهم اعتزازهم بشرعية مُلكهم — الذى يباركه الخليفة العباسى — فتسموا بهذا الاسم وسموا أمبراطوريتهم « المملكة الاسلامية » أو « الممالك الاسلامية » (٣) . ومما يدل على ذلك أن السلطان قلاوون كان يتخذ فى معاهدته مع أهل جنوة لقب « سلطان جميع الاسلام » ومع أرغون « سلطان أهل الاسلام جميعهم » (٤) .

وكان سلطان المماليك يعتبر نفسه « زعيم أمراء المماليك » Prémier des emirs . وهذا الوصف يشبه ما كان حادثاً فى أوربا فى أوائل العصور الوسطى ببعض الممالك حيث كانت الملكية انتخابية . فاعتبر الملك « أول أقرانه » من بين أمراء الدولة أى Primus inter Pares وكان يلقب أيضاً « خادم الحرمين » و « سيد ملوك العرب والعجم » (٥) . ولم تكتمل تلك الصفات لسلاطين المماليك عفوا ، بل أتت اليهم أثر حوادث وظروف معينة ، ماعدا زعامة أمراء المماليك ، فقد كانت هذه أول الصفات اللازمة لانتخاب السلطان من بين الأمراء .

---

(١) انظر — العينى : عقد الجمان ج ٢٣ القسم الاول ص ٤٩ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٧٢
Lane-Poole : The Art of the Saracens, pp. 17 - 18.

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte 1., pp. 290 - 291.

(٣) Ibid. pp. 216 - 217, 226 , 244 , 249 , 767.

(٤) Ibid. pp. 299 - 300

(٥) Ibid. p. 55.

ومن الألقاب التى كان يتلقب بها سلاطين المماليك لقب « قسيم أمير المؤمنين » . وكان أول من لقب بذلك السلطان الظاهر بيبرس ، حين وفد عليه بمصر الامام المستنصر بالله احمد فى رجب سنة ٦٥٩ هـ فبايع السلطان ولقبه بقسيم أمير المؤمنين . فاتخذ الظاهر هذا اللقب وجاء على النقود وفى الكتابات التاريخية ، ومنها كتابة على الوجهة الغربية فى جامع الظاهر (١). وجاء ذكر هذا اللقب أيضاً عندما بايع الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله . يقول المقريزى : « فلما تمت البيعة أقبل (الخليفة) على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وأقامه قسيمه فى القيام بالحق وفوض اليه سائر الأمور » (٢) وقد تلقب السلطان الناصر بهذا اللقب أيضاً ، فقد وصلت الينا قطعة نقود ضربت بالقاهرة باسم الناصر وعليها لقب « قسيم أمير المؤمنين » (٣) .

ويشير هذا اللقب إلى طبيعة العلاقة بين الخليفة والسلطان . ولعل هذه لم تكن المرة الأولى التى منح فيها خليفة عباسى مستضعف مثل هذا اللقب إلى أمير من الأمراء . فقد سبق أن منحه الخليفة العباسى المستظهر للسلطان السلجوقى غياث الدين محمد (٤٩٨ — ٥١١ هـ) (٤).

وقد وردت ألقاب السلطان الظاهر بيبرس كما يلى : « السلطان الملك الظاهر ، السيد الأجل الكبير ، العالم العادل ، المجاهد المرابط ، المؤيد المظفر المنصور ، ركن الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، قاتل الكفرة والمشركين ، ناصر الحق ، مغيث الخلق ملك البحرين ، صاحب القبلة ، خادم الحرمين الشريفين ، محيى الخلافة المعظمة ، ظل الله فى الأرض ، قسيم أمير المؤمنين بيبرس بن عبد الله الصالحى أعز الله سلطانه (٥) » .

أما ألقاب السلطان قلاوون أبى الناصر ، فقد استقاها فان برشم من النقوش الموجودة على المدرسة التى بناها قلاوون نفسه . ونحن نوردها هنا لإيضاح ما غمض من ألقاب الناصر وعلى سبيل المقارنة بين ألقاب قلاوون والألقاب التى تمتع بها الناصر بعد أبيه : « السلطان الأعظم ، الملك المنصور العالم العادل ، المؤيد المظفر ، المجاهد المنصور ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، سلطان الأرض ذات الطول والعرض ، ملك البسيطة ، سلطان العراقين والمصرين ، ملك البرين والبحرين ، وارث الملك ملك ملوك الغرب

---

(١) Van Barchem : Corpus, Egypte I. pp. 119, 127, 141.

(٢) كتاب السلوك ج ١ ص ٤٧٧ .

(٣) Henri Lavoix : Catalogues des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie, p. 329.

(٤) راجع مصر والحضارة الاسلامية للدكتور زكى محمد حسن ص ١٩

Van Berchem : Corpus, Egypte I. p. 144.

(٥) Mayer : Saracenic Heraldry, p. 107.

والعجم ، صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين ، قلاوون الصالحى ، قسيم أمير المؤمنين أدام الله نصره » . وزاد نفس المؤلف على ألقاب قلاوون فيما بعد : « ... الآملين ، كنز العفاة والمنقطعين ، منصف المظلومين على الظالمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، سيف الدين قلاوون الخ »(١) .

وكان الناصر يتلقب «بالسلطان الملك(٢) الناصر السيد العالم العادل ، المظفر المنصور ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، محي العدل فى العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، صاحب القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين أبى الفتح محمد ابن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون خلد الله ملكه »(٣) .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة كرسى (عشاء) من نحاس أصفر منشورى الشكل مسدس

---

(١) Corpus : Van Berchem, Egypte I., pp. 126-127

انظر أيضا Atiya : Egypt and Aragon, pp. 57—59, footnote 6.

(٢) « سلطان » لقب خاص . ويقال ان أول من لقب به خالد بن برمك وزير هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩ م) تعظيما لمقامه ورفعة لقدره . ولم يتلقب بهذا اللقب بعد ذلك أحد من أصحاب الدول التى نشأت فى أقاليم الخلافة الاسلامية حتى جاء بنو بويه (٣٤٤ — ٤٤٧ هـ) فتلقب به ملوكهم . وجاء بعدهم السلاجقة (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) فتلقبوا بلقب سلطان أيضا . (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ ، Van Berchem : Corpus I. p. 51.) وكذلك فعل خلفاء الدولة الفاطمية نفسها (المقريزى : إغاثة الأمة ص ٢٠ — ٢٢ طبعة الدكتور زيادة) . أما ماعدا ذلك من الدول الاسلامية التى لم تبلغ مبلغ البويهيين والسلاجقة من القوة وبسطة الملك فقد قنع أصحابها بلقب ملك . بل لقد أطلق لفظ ملك على بعض وزراء الدولة الفاطمية . وكان أول من بلقب منهم بلقب ملك رضوان بن وخشى وزير الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى فقد كان يطلق عليه « الملك الأفضل » (٥٣٠ هـ) كما تلقب الوزير الصالح طلائع بن رزيق بالملك المنصور وتلقب ابنه رزيق بالملك العادل كما تلقب شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بالملك المنصور وتلقب صلاح الدين يوسف بن أيوب آخر وزراء الفاطميين بالملك الناصر (المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٤٠) . ومن هنا يتضح الفرق بين لفظى سلطان وملك فى مصطلح الدول الاسلامية ومنها الدولة الأيوبية فقد جرى العرف فيها على إطلاق لفظ السلطان على ملوكها الذين أصبحوا منذ تقلد صلاح الدين مقاليد الحكم أصحاب السيادة العليا على أجزاء الدولة كلها

(٣) وردت هذه الألقاب كاملة فى كتاب الناصر بتاريخ ٢٠ اغسطس سنة ١٣٢٧ م (٧٢٨ هـ) ردا على رسالة يعقوب (السابقة) ملك أرغونة . (انظر : Atiya : Egypt and Aragon, pp. 57—59) إلا أن القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٥٩ و Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٥ و ٥٣ و Van Berchem : Corpus, Egypte I, pp. 152-155, 167, 169 و Mayer : Saracenic Heraldry, pp. 163—164 قد أوردوا ألقابا تماثل ماورد فى تلك الرسالة خاصاً بألقاب الناصر ، إلا أنها أقصر منها وأقل وضوحا .

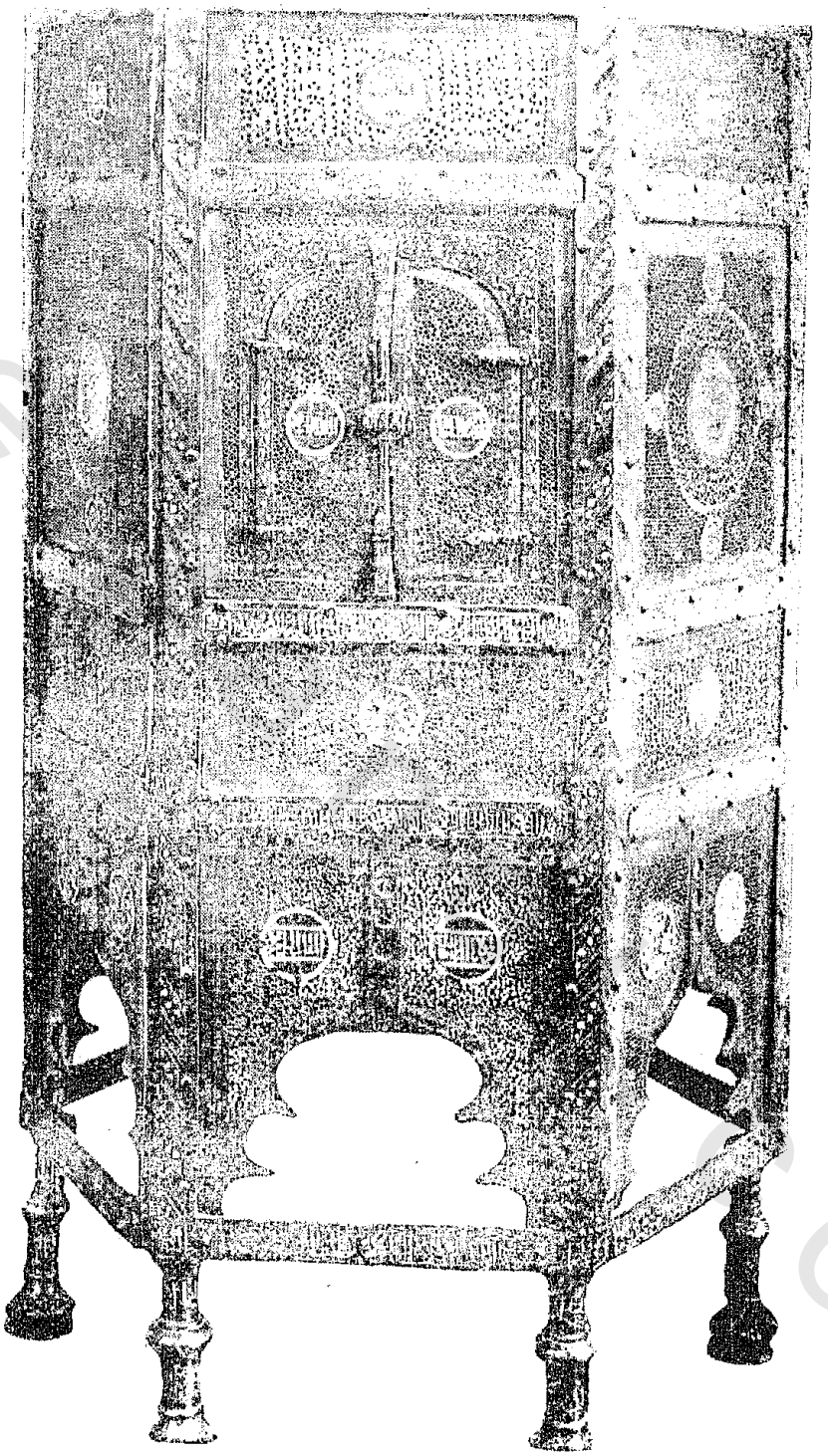

كرسى من النحاس على شكل منشور ذى ستة أضلاع ، مطعم بالذهب والفضة ومخرم . وسطحه وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية ، وفيه صور بط يطير . وعليه كتابات فيها ألقاب السلطان الناصر محمد ، واسم الصانع محمد بن سنقر البغدادى ، وتاريخ صنعه (٧٢٨ هـ = ١٣٢٧ م) . وجد فى مارستان السلطان الناصر ، ومحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة .

(راجع الصفحة التالية حيث تجد القاب السلطان الناصر المنقوشة على هذا الكرسى)

الاصلاع مخرّم وملبس بالفضة أصله من مارستان السلطان قلاوون وعليه كتابة بها القاب السلطان محمد الناصر ونصها :

« عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، العالم العامل ، المجاهد المرابط ، المثاغر المؤيد المنصور ، سلطان الاسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، محيي العدل في العالمين ، مجير المظلومين من الظالمين ، ناصر الملة المحمدية ، ناصر الدنيا والدين ، ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي » (١)

وفي كتابة تاريخية على برج بقلعة القاهرة : « أمر بانشاء هذا البرج المبارك السعيد مولانا وسيدنا السلطان الملك الناصر ، الغازي في سبيل الله الحاج الى بيت الله الزائر قبر رسول الله ، حصن الدنيا والدين ، محمد ابن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور . وبدؤه في جمادى الأولى والفراغ في شوال سنة ثلاث عشرة وسبعمائة » (٢) .

وكثيراً ما نجد في الكتابات التاريخية التي ترجع إلى أواخر العهد المملوكي أن السلطان يتخذ لقب « الامام الأعظم » الذي كان يمثل سلطة الخليفة الدينية . وأقدم هذه الكتابات واحدة ترجع إلى عهد السلطان جقمق نحو سنة ٨١٥ هـ (٣).

وظائف السلطان

كان السلطان يعد رئيس الدولة الأعلى : فهو زعيم أمراء المماليك والمهيمن على شئونهم الخاصة والعامة ، وصاحب الحق في تدرجهم في مراتب الزق من أمير خمسة (٤) إلى أمير عشرة (٥)

---

(١) G. Wiet : Catalogue du Musée Arabe, Objets en Cuivre, pp. 14—18.
راجع أيضا العدد ٥ من مجلة الثقافة ، مقالة للدكتور زكي محمد حسن .

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 88—89. وعن الألقاب المملوكية بوجه عام راجع
Van Berchem : Corpus, Egypte I pp. 441—452.

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte I. p. 46.

(٤) كان في خدمة كل واحد منهم خمسة مماليك ، وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين ، ويمنح الواحد منهم هذه الرتبة تقديراً لخدمات أبيه ، وكانوا يعدون من أكابر الأجناد (المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٢٠ . الخالدي : المقصد ص ١٢٣)

(٥) كانت عدة كل أمير منهم عشرة مماليك أو فرسان . وربما كان فيهم من يدخل تحت إمرته عشرون فارساً ، ولكنه مع ذلك لا يعد إلا في أمراء العشرات الذين كان عددهم يبلغ نحو خمسين أميراً ومنهم يختار صغار الولاة وصغار الموظفين من أرباب السيوف (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥) وكان أمراء العشرات وأمراء الخمسات في الدولة الفاطمية يعرفون باسم « أدوان الأمراء » . (القلقشندي : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٦) .

إلى أمير أربعين (١) ثم إلى أمير مئين (٢) . وكان الناصر يظفر بمماليكه فى بعض الأحيان إلى المناصب العالية حتى « يملأ أعينهم بالعطاء الكثير » . ولم يكن يتبع عادة أبيه قلاوون فى تدرج المماليك فى المراتب والوظائف(٣) برغم أنه كان يراعى فى رقيهم مواهب كل منهم وكفاءته وخبرته . وكما كان الناصر يكافىء الأمراء المخلصين ، كذلك كان من حقه عقاب من يثبت لديه إدانته . وكان أمير جاندار(٤) ينفذ فيهم العقوبة ، التى كانت تصل فى بعض الأحيان إلى القتل . ومن هنا جاءت تسميته « أمير جاندار » ومعناها « الأمير الممسك للروح(٥) »

كذلك كان من اختصاص السلطان توزيع الاقطاعات على الأمراء والأجناد وتحديد أنصبتهم فيها . وتجلى نفوذ كل من السلطان لاچين والسلطان الناصر حين راكا البلاد فى

---

(١) يطلق على أمراء الأربعين أيضاً « أمراء طبلخاناه » لحقهم فى دق الطبول على أبواب قصورهم كما يفعل السلطان وأمراء المئين ولكن على صورة مصغرة . ويظهر أنهم سموا كذلك تمييزاً لهم عمن هم أقل منهم فى الرتبة وليس لهم حق دق الطبول . وقد تزيد رتبة أمير أربعين إلى إمرة سبعين أو ثمانين ، بمعنى أن يكون فى خدمته ما يساوى أحد هذين العددين . وهذه الطبقة لاضابط لعدد أمرائها فقد يتفاوت عددها فى الزيادة والنقص (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ Demombynes : La Syrie, p. XXXVII.) . وكان يطلق على هؤلاء فى عهد الفاطميين « أرباب القضب » لأن كلا منهم كان يحمل فى يده عند خروجه فى المواكب قضيبا من الفضة (القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٦) .

(٢) كان عدد أمراء المئين فى دولة المماليك أربعة وعشرين أميراً . وهى مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف ، وتقرن عادة بلقب مقدم ألف ، فيقال أمير مائة مقدم ألف . والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفه واحدة إذ يكون فى حوزة هذا الأمير مائة مملوك وهو فى نفس الوقت مقدم فى الحروب على ألف جندى من أجناد الحلقة (المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ . كتاب السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية للدكتور زيادة . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣ . Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3.) وكان يطلق على هذه الطبقة من الأمراء فى عهد الفاطميين « الأمراء المطوقون » نسبة إلى أطواق الذهب التى كانوا يضعونها فى أعناقهم (القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٦) . وجاء فى بعض الكتابات التاريخية لقب « عين مقدمى الألوف » . ولسنا نعرف هل المقصود بعين فى هذا اللقب « الرئيس » أو كما ظن : Van Berchem Corpus, Egypte I, pp 545-546 إن فى ذلك إشارة الى أمير انتخب قائداً أو مبعوثا فى مهمة معينة .

(٣) أشار بيبرس الدوادار (زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٥ — ٧٦) إلى ذلك بقوله : « ونقل [قلاوون] أولياءه على التدريج نقلا يدل على رصانة عقله . . فانتقلوا إلى الزيادات على تعاقب السنين وأخذوا فيما أخذوا أخيار المئين فكانوا بالأمرة مدربين وفى التدبير مجربين » . ومما تجب ملاحظته أن بيبرس الدوادار كان من مماليك قلاوون .

(٤) هذا الاسم يتركب من ثلاث كلمات : احداها عربى وهو أمير ، والثانية جان ومعناها بالفارسية والتركية الروح ، والثالثة دار ومعناها ممسك . فيكون المعنى المقصود من أمير جاندار « الأمير الممسك للروح » . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦١ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٢ . السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤ .

سنة ٦٩٦ هـ وسنة ٧١٥ هـ الروك المعروف باسم « الروك الحسامى » والروك المعروف باسم الروك الناصرى »[١].

وكان الناصر يتحرى العدل ما أمكنه فى مكافأة أمرائه وأجناده وتوزيع الاقطاعات عليهم، إذ كان خبيراً بأحوال كل منهم باعتباره القائد الأعلى لجيوش المماليك ، الذى طالما خاض غمار الحروب وقاد تلك الجيوش بنفسه نحو الأعداء وخاصة مغول فارس . وشاهد ما أظهره بعض أمرائه من شجاعة وتفان فى القتال وما أبداه أجناده من استبسال وشهامة فى الدفاع .

وكان السلطان يتولى تعيين كبار موظفى الدولة مثل نائب السلطنة والوزير وكاتب السر والمحتسب ونظار الدواوين ، كما كان له حق عزلهم وتأديبهم . كما كان يتولى أيضاً النظر فى المظالم[٢] .

كان السلطان مطلق الحكم والتصرف ، ولكنه إذا أراد البت فى مشروع من مشروعات الدولة الحيوية أو إعلان حرب أو إبرام صلح ، عقد « مجلس السلطنة » — وهو المجلس المعروف باسم « المشور »[٣] — برياسته وعضوية أتابك العساكر والخليفة والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرون أميراً . وما كان السلطان يتكلم فى هذا المجلس بنفسه وإنما كان يتكلم بلسانه « المشير » . والغرض من استعانة السلطان بالمشير الاحتفاظ بأبهة الملك ، لأن السلطان إذا أدلى برأى فى المجلس ثم نقضه الأعضاء كان فى ذلك انتقاص من هيبته وإحراج لمركزه[٤] . ومما هو جدير بالذكر أن أمراء المشورة لم يكتسبوا حقاً بحكم حضور مجلس السلطنة وإنما كان السلطان هو الذى يستدعيهم فكان عليهم واجب الحضور[٥].

ويتولى أمير مجلس الأستادار المالية بمجلس السلطنة ، ويختار صاحب هذه الوظيفة من بين أمراء المئين[٦] ويشبه منصبه فى كثير من الوجوه منصب كبير الأمناء فى عصرنا هذا ، إذ كان يهيمن على شئون البرونوكورل ، ويتمتع بحكم وظيفته بالجلوس فى حضرة السلطان[٧].

---

(١) راجع ما سبق ذكره عن الاقطاعات المملوكية فى باب « الحالة المالية والاقتصادية » .

(٢) سيأتى ذكر هيئة جلوس السلطان للنظر فى المظالم عند الكلام على « القضاء » .

(٣) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٦

(٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ .

(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٥ .

(٦) ابن شاهين : نفس المصدر ص ١١٤ .

(٧) كان السلطان الظاهر بيبرس أول من حدد اختصاصات صاحب هذه الوظيفة . وعرفت وظيفة أمير مجلس فى عهد الفاطميين ، إلا أن متوليها كان يطلق عليه اسم « صاحب المجلس » . القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٥ .

Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV (L'Egypte Arabe), p. 396.

وقد ازداد قربه منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره بل وفى حجرة نومه[١] . و إذا انعقد مجلس السلطنة جلس رأس نوبة عن يسار السلطان ، إذ كان يعتبر أكبر طائفة الأمراء مقاماً وأعلاهم مركزاً بحكم زعامته للماليك السلطانية[٢] .

وكما كان أمير جاندار يتولى إدخال الناس على السلطان وهو جالس بالايوان بقلعة الجبل ، كذلك كان الحاجب[٣] يقوم بهذه المهمة إذا جلس السلطان فى قصره بالقلعة ، على أن يراعى مقام هؤلاء الناس وأهمية أعمالهم . وعلى الرغم من أن هذه الوظيفة كانت معروفة فى مصر فى العصر الطولونى[٤] وزمن الدولة الفاطمية وأن صاحبها أطلق عليه فى عهدها « صاحب الباب » ثم عرفت من بعدهم فى عهد الدولة الأيوبية[٥] فإن أهميتها عظمت فى عهد السلطان الناصر محمد حتى أصبحت فى مرتبة نيابة السلطنة حتى لقد انتقلت إلى من يشغلها اختصاصات النائب عند ما ألغى الناصر هذا المنصب فى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م)[٦] كما سيأتى . وكان هناك خمسة حجاب : اثنان منهم من أمراء المئين وهما حاجب الحجاب ونائبه[٧] .

---

(١) Lane-Poole : The Art of he Saracens, 31.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٥ .

(٣) كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم ، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلافهم بلا حجاب . ولما انتقل الحكم إلى بنى أمية اتخذ معاوية بن أبى سفيان « الحجاب » بعد حادثة الخوارج مع على ومعاوية وعمرو بن العاص ثم سار على ذلك من جاء بعده من الخلفاء ، وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس وتلافيا لازدحامهم على أبوابهم وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة . راجع الكلام على الحجابة فى مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦ — ٢٠٩ . وقد ذكر السيوطى (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٥) أن الحجابة كانت أقدم عهداً من عبد الملك ابن مروان ، اذ كان لعمر بن الخطاب حاجب يدعى مرفأ .

قارن ذلك بأسباب اتخاذ المقصورة فى المساجد . وراجع فى هذا مادة « مسجد » بدائرة المعارف الاسلامية

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠٣ . راجع لفظ « حاجب » فى :

Zaky M. Hassan : Les Tulunides, pp. 194.

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٩٩ . الخالدى : المقصد ص ١٢٦ .

(٦) كان الحاجب فى ذلك العهد لا تقتصر مهمته على ادخال الناس على السلطان ، بل صار يقضى بين الأمراء والجند إما بنفسه أو بعد استشارة السلطان أو النائب ، كما كان يفصل فى خصومات الجند الخاصة بالإقطاعات . غير أنه لم يكن له حق النظر فى الأمور الشرعية كالفصل فى الخصومات التى تقوم بين الزوجين أو الحكم فى قضايا الديون لأن ذلك كان من اختصاص القضاة . وكان الحاجب يقف أحيانا بين يدى السلطان فى المواكب ليبلغه رغبات رعيته كما كان يركب أمامه وهو يحمل عصا فى يده وينظر فى المظالم . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٢١٩ .

Van Berchem : Corpus I. p. 567

Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV (l Egypte Arabe), p. 396

(٧) برز فى عهد سلطنة الناصر محمد الثالثة طائفة من الحجاب الممتازين فكثيرا ما كان السلطان =

البيوت السلطانية :

كان السلطان يقيم هو وأسرته وحاشيته ورجال بلاطه(١) فى قلعة الجبل التى كانت تشتمل على خزانة السلطان ومطابخه وبيوته واصطبلاته . كما كانت تضم دور المماليك السلطانية وخاصة الأمراء ، الذين كان لكل منهم بيوت كبيوت السلطان يعيش فيها كما يعيش السلطان وسط مظاهر الفخامة والأبهة . وقد ظل هؤلاء الأمراء يقيمون بالقلعة إلى آخر عهد السلطان الناصر(٢) . وكان القصر السلطانى المملوكى منظما تنظيما دقيقاً . فقد كان يحوى عدة بيوت (خانات أو إدارات) ، لكل منها مهمة خاصة بها ، ويقوم بادارتها موظفون معينون .

من ذلك ان جميع الحاجيات اللازمة للمطبخ السلطانى (٣) كاللحوم والخضروات والتوابل والوقود والزيوت كانت تحفظ فى بيت يعرف باسم الحوائج خاناه (أو بيت الحوائج) . كما كان يحفظ مايصرف من هذه الأصناف للدور السلطانية وماهو مرتب للأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند وغيرهم من أصحاب الرواتب حسبما هو مدون فى السجلات المشتملة على أسماء المستحقين ومقدار استحقاق كل منهم . وكان ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين الف درهم

= يوليهم هذه الوظيفة ما داموا حائزين لرضاه . فاذا غضب عليهم عزلهم واستبدل بهم غيرهم أو أمر بالقبض عليهم . وتتبين ذلك من كثرة عدد الحجاب الذين تولوا هذا المنصب فى تلك الفترة (٧٠٩ — ٧٤٠ هـ) إذ بلغ عددهم أربعة عشر حاجبا على ما رواه صاحب « تاريخ سلاطين المماليك » وهم : سنقر السكمالى ، بكتمر الحسامى ، لاجين العمرى ، الطنبغا محمد ابن الوزيرى ، طينال بيبرس أمير آخور ، ألماس الجاشنكير ، قطلوبغا المعزى ، أمير مسعود ابن الخطير ، جاريك قفجق ، أيدغدى الخوارزمى أقول ، محمود ابن خطير ، برسبغا . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٦

(١) يقصد بالبلاط : « بلاط السلطان » أى قصره ومجلسه وزعمائه (محيط المحيط) وكلمتا بلد وبلاط دخيلتان فى اللغة العربية إحداهما قديمة وهى « بلد » وقد ذكرها القرآن الكريم ، والأخرى أحدث منها وهى بلاط بمعنى حاشية . لأن الكلمتين وإن اختلفتا فى الظاهر ، إلا أنهما ترجعان إلى لفظ لاتينى واحد وهو Palatium ومعناه الجبل البلاتينى الموجود فى روما وجزء المدينة الذى شيده روميلوس Romulus عليه من ناحية والساكن التى شيدها أوغسطس لنفسه ولحاشيته على نفس الجبل من ناحية أخرى . ومن هنا جاء معنى « بلاط » . ومن اللفظ اللاتينى بالتيا Palatia نجد فى سائر اللغات الهندية الأوربية پاليه Palais فى الفرنسية وپالاس Palace فى الانجليزية وبالست Palast فى الالمانية وبالازو Palazzo فى الايطالية وكلها بمعنى قصر . انظر مجلة الثقافة عدد ١٤٧ ص ١٢٠ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ Lane - Poole : The Art of the Saracens, p. 17

(٣) كان المطبخ السلطانى يقع فى موضع جامع الناصر بالقلعة ، ثم نقل إلى موضع آخر منها . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣ .

فى كل يوم ، وذلك عدا ما كان يصرف على ألوان الطعام الأخرى (١) وكانت الحوائج خاناه تعرف فى عهد الفاطميين باسم « خزانة الطعم » (٢)

وكانت تحفظ فى الشراب خاناه أصناف السكر والفواكه والشراب والحلوى والملح والمياه المفيدة والسفوفات المسهلة والمقبضة والمبردة . كما كانت تحفظ فيها أيضاً الأوانى النفيسة التى تستخدم فى تقديم هذه الألوان للسلطان وزائريه (٣) . وقد عرفت فى عهد الفاطميين باسم « خزانة الشراب » (٤)

أما جميع مايخص السلطان من ثياب وجواهر وسيوف ، فكان يحفظ فى « الطَّسْت خاناه » (٥) التى كانت تحتوى أيضاً على كثير من المقاعد والوسائد التى يستعملها السلطان ، والبسط التى يصلى عليها (٦) . وسميت بذلك لأن بها الطست الذى يغسل فيها القماش . وقد أخذ هذا النظام عن العباسيين فى بغداد الذين نقلوه عن آل ساسان من قبل (٧) . وقد عرفت الطست خاناه فى عهد الفاطميين فى مصر باسم « خزانة الكسوة » (٨).

وتشتمل الفراش خاناه على أنواع المفروشات من البسط والخيام (٩)، وتهيئة مايختار السلطان استعماله منها فى اثناء سفره (١٠) .وقد أخذ سلاطين مصر هذا النظام عن الفاطميين والعباسيين

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص١٣ — ١٦. المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٦
Demombyes : La Syrie, p. L IV.

(٢) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٩ — ١٠

Lane — Poole : The Art of the saracens, p. 32

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٥) شاع بين رجال الطست خاناه استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء . وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٠ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ١١ . Demombynes : Le Syrie, p LII.

(٧) الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٩) وصف القلقشندى (نفس المصدر جـ ٤ ص ٩) هذه الخيام فقال : « ولهذا السلطان من ذلك المدد الكبير تتخذ له الخيام العظيمة الشأن المختلفة المقادير والصنعة من القطن الشامى الملون بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها ، وكذلك من الجوخ المختلف الألوان مما يدهش العقول لينوب مناب قصورهم فى الاقامة . وكانت الخيمة التى تنصب للسلطان أثناء السفر تعرف باسم الدهليز » .

(١٠) القلقشندى نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٧٠ . الخالدى : المقصد ص ١٣٠

من قبل(١) . وكان يطلق على الفراش خاناه فى عهد الفاطميين اسم « خزانة الفرش »(٢) .

وينزل السفراء والعربان الذين يفدون على السلطان فى دار الضيافة ، كل منهم فى المكان اللائق بمركزه . ويصرف عليها مما يتحصل من سوق الخيل والرقيق وغيرهما . ولهذه الدار أهمية خاصة فى عهد الناصر إذكان يفد اليها كثير من الرسل حاملين الى سلطان مصر الكتب والهدايا من ملوك أوربا وأمرائها .

وكذلك أفرد مكان خاص لحفظ الطبول والأبواق وما يتبعها من الآلات ، أطلق عليه اسم الطبلخاناه وهى كلمة فارسية يقصد بها أيضاً فرقة الموسيقى السلطانية ، وقد جرت العادة بأن تدق مدة فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة السلطان فى الأسفار والحروب(٣). وكان مقرها دار العدل بقلعة الجبل ، ولكن السلطان الناصر هدم تلك الدار سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) ثم بناها تحت قلعة الجبل بين باب السلسلة والمدرج وكانت عبارة عن ساحة مسورة من غير سقف(٤) .

وكانت فرقة الطبلخاناه السلطانية تتكون من أربعة طبول وأربعين من الكوسات وأربع زمارات وعشرين نقارة . ولم يسمح بتكوين فرقة موسيقية غير الفرقة السلطانية إلا لأمراء المماليك البارزين وهم الذين كان يطلق عليهم لقب أمراء الطبلخاناه(٥) ، وقد بلغ عددهم — كما ذكرنا — ثلاثين أميراً . وتتكون فرقة كل منهم من عشرة رجال وزمارتين وأربع نقارات(٦) .

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٧٣ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ . Demombynes : La Syrie, p. LIII.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٨

(٥) من الالقاب الخاصة بأمراء الطبلخاناه فى دولة المماليك لقب اسپاسلار وهوفى الأصل إسم لوظيفة معروفة فى الأنظمة الحكومية بمصر منذ عهد الدولة الفاطمية . وكان صاحبها فى عهد تلك الدولة ، كما يقول القلقشندى (نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨٣) « زمام كل دار واليه أمر الأجناد والتحدث فيهم وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم » . وأسپاسلار تحريف عامى للفظ « اسفهسلار » . ويتركب هذا اللفظ من كلتين : أولاهما فارسى وهو أسفه ومعناها المقدم ؛ وثانيهما تركى وهو سلار ومعناه العسكر . فيكون اسفهسلار هو مقدم العسكر (القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٨) . على أن أمراء الطبلخاناه قد عدلوا عن تلقيب أنفسهم بهذا اللقب زمن القلقشندى بعد أن تبين لهم أن العامة كانت « تقول لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان اسپاسلار . وكأن أمراء الطبلخاناه كرهوا مشاركة بعض الأعوان فيه فأضربوا عنه لذلك أو لم يفهموا معناه فتركوه » (القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٧ — ٨) .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٨ . ane—Poole : The Art of the Saracens, p. 31

ويرجع أصل نظام نوبات الطبلخاناه الى عهد السلطان علاء الدين خوارزم شاه الذى خرج على الخليفة الناصر العباسى واعتزم المسير الى العراق ، فضرب لنفسه نوبة الاسكندر ذى القرنين تعاظما واختار لضربها سبعة وعشرين ملكا من أكابر الأمراء وأولادهم . وتصنع آلات النوبة عادة من الذهب . وكانت النوبة حتى ذلك الوقت تضرب خمس مرات فى أوقات الصلوات الخمس فجعلها خوارزم شاه مرتين وفوضها لأولاده يضربونها فى الولايات التى ولاهم عليها ، فاتخذوا الطبلخاناه لأنفسهم أيضاً . وقد سار على ذلك سلاطين المماليك بعد خوارزم شاه ولذلك كان نور الدين يضرب بدمشق النوب الخمس(١).

وكان للاصطبلات السلطانية ادارة خاصة عرفت باسم الركاب خاناه « يحفظ فيها ، عدد الخيـــل من السروج واللجم والكنابيش » وغير ذلك من نفائس العدد والمراكيب مايحير العقول ويدهش البصر مما لايقدر على مثله إلا عظماء الملوك »(٢). وكانت هذه الدار(٣) من أهم البيوت السلطانية ، فقد كان عدد الاصطبلات التابعة لها وفيراً : فمنها اصطبل الخاص الذى يضم الحيوانات التى تسير فى المواكب . واصطبل الحجوره وينتخب منه ما يلزم للعب الكرة ، واصطبل البيمارستان وتوضع به الخيول الضعاف . واصطبل البغال ، واصطبل السباع . واصطبل الفيلة ، واصطبل البريد . كذلك كان يتبع الاصطبلات السلطانية « المناخات » وهى الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية ومنها مناخ الجمال البخاتى ومناخ الهجن والنياق (٤) .

وقد شغف الناصر بشراء الخيل العربية الأصيلة ، وبذل فى شرائها أموالا ضخمة حتى كان ثمن الواحد منها أحياناً ثلاثين ألف درهم ، وقد قدر ثمن ما دفعه لبعضها فى يوم واحد مليون درهم وكان يخلع بعضها على الأمراء الذين يأنس فيهم الولاء والإخلاص لعرشه وعلى أفراد حاشيته المقربين إليه وخاصة طائفة الخاصكية(٥). واشتهر بشدة العناية بأمرها ، حتى صارت له دراية عظيمة بأنواع الخيل التى يشتريها فيذكر أسماء بائعيها وتاريخ شرائها وثمن كل منها(٦) .

---

(١) Demombynes : La Syrie, p, L IV

راجع أيضاً كتاب السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٤٦ حاشية للدكتور زيادة .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٢ .

(٣) كانت هذه الدار يطلق عليها فى عهد الفاطميين اسم « خزانة السروج » المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٨ . زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٩ — ٦١ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٤ — ٢٥٢ . Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٩٩ و ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٦) راجع عن ركوب الخيل والفروسية عند المماليك كتاب :

Le Mercier : La Chasse et les Sports Chez les Arabes, pp. 212-228

وكانت كتب البيطرة نادرة فى اللغة العربية . ولكن من أعظمها كتاب قدمه إلى الناصر محمد بن

وبلغ عددها فى عهده أربعة آلاف وثمانمائة من الخيل وخمسة آلاف من الهجن والنوق. وعرف سباق الخيل فى عهده وكثرت حتى بلغت مائة وخمسين[١].

وقد أوضح المقريزى شدة عناية الناصر بالخيل فقال: «وكان من عنايته بالخيل لا يزال يتفقدها بنفسه، فاذا أصيب منها فرس أو كبر سنه بعث به إلى الجشار وتنزى الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه وكتاب الاصطبل تؤرخ تاريخ نزوها واسم الحصان والحجرة فتوالدت عنده خيول كثيرة اعتنى بها عن الجلب، ومع ذلك فلم تكن عنده فى منزلة ما يجلب منها. وبهذا ضخمت سعادة آل مهنا وكثرت أموالهم وضياعهم فعز جانبهم وكثر عددهم وهابهم من سواهم من العرب. وبلغ عدد خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس وكان يعرضها فى كل سنة ويدوغ أولادها بين يديه ويسلمها للعربان الركابة وينعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها ويتبجح ويقول هذه فلانة بنت فلان وهذا فلان بن فلانة وعمره كذا وشراء أم كذا وكذا وكان لا يزال يؤكد على الأمراء فى تضمير الخيول ويلزم كل أمير أن يضمر أربعة أفراس»[٢].

مديرو البيوت السلطانية ومعاونوهم:

وكان على رأس كل من هذه البيوت (أو الخانات) موظف كبير يعاونه عدد كبير من الموظفين كل لكل منهم اختصاص محدود. وكان اختيار هؤلاء الموظفين يتطلب كياسة ومرونة من جانب الناصر: فان سلطان المماليك كان ذا أتباع كثيرين ذوى ميول ومآرب مختلفه. ولذلك كان لزاماً عليه أن يعمل على إرضائهم جميعاً. فأكثر من عدد الوظائف فى القصر حتى يتمكن من الاقلال من عوامل الغيرة والحسد بينهم ويضمن دوام تأييدهم له ويقضى بذلك على ما يمكن أن يثيروه فى وجهه من الدسائس والفتن.

وقد استحدث السلطان الناصر محمد، وأبوه قلاوون من قبل، بعض هذه الوظائف. وهذه الوظائف — سواء ما أنشىء منها وما أعيد تنظيمه — كانت مقتبسة من نظام البلاط عند العباسيين فى بغداد وعند الفاطميين والأيوبيين فى مصر[٣]. إلا أن سلاطين المماليك

= قلاوون طبيب كان له الاشراف على اصطبله وخيوله. واسم الكتاب: كامل الصناعتين — البيطرة والزرطقة لأبى بكر بن المنذر البيطار (المتوفى سنة ١٣٤٠ م). وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية فى ثلاث مجلدات بباريس بين عامى ١٨٥٢ و ١٨٦٠ بعنوان:

Le Nacerie : La perfection des deux arts ou traité complet d'hippologie et d'Hippiatrie Arabes, traduit par le docteur perron.

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥.

(٢) الخطط جـ ص ٢٢٥.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦. الخالدى: المقصد ص ١٢٦.

قاطر أبي النجا وعليها رباك (شارة) السلطان الظاهر بيبرس .

البارزين كالظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون وابنه الناصر محمد قد وفقوا إلى اقتباس أحسن النظم القائمة فى عهد هذه الدول حتى أصبح نظامهم يفوق كل ما كان سائداً عند هذه الدول دقة ونظاما .

وكان يتولى وظائف البلاط والحاشية فى القصر السلطانى طبقة خاصة من الأمراء[١] ، ولم يكن للشعب سوى نصيب ضئيل فيها . وكانت للأمراء أصحاب الوظائف الرئيسية أشعرة خاصة تعرف باسم « الرنوك » وهى كلمة فارسية الأصل ، مفردها « رنك » ، بمعنى لون ، استعملت فى العصور الوسطى للدلالة على الأشعرة . وكان جل الاعتماد فى دراسة هذه الرنوك يرجع إلى ما نقش منها على التحف الزجاجية والمعدنية وعلى العمائر خاصة . وذلك للعناية التى كانت تبذل فى دقة إظهار هذه الرنوك ، إذ أنه كلما كانت المادة المراد نقش الرنك عليها من معدن نفيس أو مادة غالية الثمن زادت العناية برقمه . وقد نقش المماليك رنوكهم على التحف من مختلف المواد على الحجر والخشب والمعدن والخزف والزجاج والورق والنسيج والعاج .

وقد بلغ عدد الأشعرة المملوكية المعروفة إلى الآن خمسين شعاراً عرف مدلول بعضها ، ومن أهمها : الكأس والمقلمة والقوس والبقجة والخونجة (المنضدة) وعصا البولو وزهرة اللوتس والصولجان . ولم يقتصر الأمر على تلك الأشكال الرمزية بل تعداها إلى الطيور والحيوانات وأهمها النسر والأسد . أما غيرهما فمشكوك فى صحة اتخاذه رنوكا كالبط المنسوب إلى قلاوون والسمك المنسوب إلى ابنه محمد .

ومن المعترف به أن بعض الرنوك يدل على الوظائف الصغرى وهى التى لم يتولها قط أمير عظيم ، ومثل هذه الجاشنكير والجوكندار والعلم دار . أما تلك الوظائف التى يصاحبها لفظ أمير أو كبير كوظيفه أمير سلاح ودوادار كبير ، فان ذكر تلك الألفاظ أو عدم ذكرها لا يغير من قيمة الوظيفة نفسها لأن هذه الوظائف معدودة من الوظائف السلطانية الكبرى والتى يتولاها الأمراء العظام .

وإذا علمنا أن الأمراء لم يكن من عادتهم تناسى مراكزهم البسيطة يوم أن كانوا أجناداً بل كانوا يعتزون بها ويفخرون بتلك الأيام ، اتضح لنا السبب فى عدم ذكر تلك الوظائف الكبرى على الرنوك لأن هذه الوظائف لا يناها الأمير إلا بالترقية فى مراتب الامارة ولأنه لم يغير شعاره بترقيه فى مناصب الامارة . وبذا تكون تلك الرنوك دالة على الوظائف الكبرى والصغرى على السواء ولو لم تذكر الوظائف الكبرى على الرنوك أو تصاحبها .

ولم يكن للنساء حق فى الوظائف ولم يشغلنها ، ولكن بالرغم من ذلك ، وجدت رنوك تصاحبها أسماء سيدات . وبفحصها اتضح أنها لم تكن خاصة بهؤلاء السيدات بل انها خاصة بآبائهن أو أزواجهن الذين كانوا يشغلون تلك المناصب السلطانية التى تشير إليها . ومن هذا نرى أن النساء كن يستعرن أشعرة آبائهن أو أزواجهن وينقشنها على ما يشيد لهن من عمائر أو يصنع لهن من تحف .

اناء من الفخار المطلى بالميناء الصفراء مزين من الداخل والخارج بكتابة صفراء منقوشة تحت طبقة من المينا ومقسمة إلى مناطق بدوائر بها رنوك مموهة بالميناء باللونين الأحمر والبنى الغامقين . والكتابة باسم أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المتوفى سنة ٧٤١ هـ .

ولا نستطيع الجزم بان الأشعرة كانت متوارثة إطلاقا ، وذلك لقلة المعلومات عن أبناء أمراء المماليك . غير أننا إذا ما عرفنا النظام الذى سار عليه الأمراء نحو أبنائهم من حيث انهم لم يسمحوا لهم بالانخراط فى سلكهم ولم يقبلوا ضمهم إلى زمرتهم للاختلاف بين النشأتين : فالأمراء أصلهم أرقاء ، وأبناؤهم غير أرقاء وأن المماليك لم يكن عندهم نظام وراثة العرش وإن كان قد وجد فى أسرة قلاوون وفى تولية بركة خان بعد والده بيبرس فانها حالة شاذة ولم تكن القاعدة المتبعة ، لذلك يمكن القول أن الأشعرة لم تكن متوارثة اللهم إلا فى الأبناء الذين ينشأون نشأة حربية ويقتفون آثار آبائهم أو يتمكنون من الاحتفاظ بعروش آبائهم . أما باقى الأبناء وهم الأغلبية العظمى فكانوا يوجهون وجهة غير حربية ويعدون للوظائف الدينية والدنيوية وبذلك يحرمون حمل أشعرة آبائهم وتوارثها (١) .

ومن بين الأمراء الذين يشغلون مناصب البلاط والحاشية رجال اختيروا للاشراف على القصور السلطانية وإدارة شئونها والعناية بشخص السلطان وقضاء أموره الخاصة .

وكان أكبر موظفى القصر السلطانى ، موظف يعرف باسم « الأستادار »(٢) . ويشرف على البيوت السلطانية كلها من الحوائج خاناه والشراب خاناه والطست خاناه والفراش خاناه ورجال الحاشية . وله حق تأديب خدم السلطان . ويعهد اليه جلب ماتحتاجه البيوت والكساوى(٣) واصدار الأمر بدفع ثمنها بعد وصولها . وقد جرت العادة فى دولة المماليك أن يكون عدد الاستادارية(٤) أربعة : أحـــدهم من أمراء المئين ، وثلاثة من أمراء

---

(١) راجع مقالة « الرنوك المملوكية » — مجلة المقتطف ، العدد الخامس ، المجلد الثامن والتسعين (مايو سنة ١٩٤١) ص ٤٦٠ — ٤٦٨ .

وعن رسوم الرنوك التى تشير إلى الوظائف التى كان يشغلها الأمراء فى بداية عهدهم ، انظر :
Hautecœur et Wiet : Mosquées du Caire, pp. 49-50.

(٢) هذا الاسم يتركب من كلمتين فارسيتين : أولاهما — استد ومعناها السيد أوالكبير ، وثانيهما دار ومعناها ممسك . وبذلك يكون المقصود من كلة استادار : الذى يتولى قبض المال (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٧ . الخالدى : المقصد ص ١٢٦) . وقد يكتب هذا الاسم « أستاذ الدار » باعتبار أن المقصود من اللفظ العربى هو حقيقة الدار ، وأن أستاذ بمعنى السيد أو الكبير . وتجد نص وصية الاستادار (أو أستاذ الدار) فى العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٩٦ — ٩٨ .

وخلاف الألقاب الأخرى (جوكندار — سلاحدار — دوادار) حيث نرى أن دار مشتقة من الفارسية داشتن بمعنى يحمل أو يمسك ، نجد أن استادار فيها كلة دار العربية بمعنى منزل ، كما يتجلى فى بعض هجاياتها العربية (أستاذ الدار — أستادار) وكما يتجلى فى لقب « أستاذ الدار العالية » . راجع كتيمر القسم الأول ص ٢٥ وما بعدها و Van Berchem : Corpus, Egypte I. p. 159.

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٢ . Demombynes : La Syrie, P. 4xl.

(٤) ممن تقلد وظيفة الاستادار فى دولة الناصر الثانية بيبرس الجاشنكير الذى ضيق على الناصر محمد وحرمه ما يشتهيه من المأكل والملبس حتى اضطر إلى الرحيل إلى الكرك معتزلا العرش . وتولى

الطبلخاناه ، وربما نقص عددهم عن ذلك فى بعض الأحيان[١] . ويساعدون هؤلاء فى أعمالهم جماعة من أمراء العشرات[٢] . وكانت الأستادارية من الوظائف الكبرى فى عهد الفاطميين ، ويعرف متوليها باسم « ناظر البيوت والحاشية[٣] » .

ويتولى « الخازندار[٤] » الاشراف على حفظ مايأمر الاستادار بجلبه إلى البيوت السلطانية من المؤن والكساوى والصرف منه على قدر حاجة تلك البيوت ، فهو بمثابة مدير مخازن البيوت السلطانية ، ويعين عادة من أمراء الطبلخاناه . ثم ارتقت وظيفته فى دولة الناصر حتى صار يعهد بادارتها الى أمير من أمراء المئين[٥]، وكان يقوم باعباء تلك الوظيفة ثلاثة أشخاص : الأول يسمى « خازندار الصنف » ويشرف على خزائن القماش المزركش والمذهب والحرير والسروج الذهب وأنواع الوبر ، والثانى ويسمى « خازندار العين » ويتولى أمر ضبط الوارد والمنصرف والثالث يسمى « الخازندار الكبير » وهو المكلف بحمل كيس المال المقرر للصدقة وتوزيعه على الفقراء عند ركوب السلطان فى الموكب[٦] . وكان يطلق على الخازندار فى عهد الفاطميين اسم « صاحب بيت المال »[٧].

وكان يرأس كل بيت من البيوت السلطانية على حدة موظف كبير يختلف اسمه باسم البيت الذى يرأسه ، ويعمل تحت يده طائفة الموظفين الذين يشتغلون فى ذلك البيت ، ويتلقى أوامره من الاستادار .

ويرأس « الحوائج خاناه » موظف معروف باسم « أستادار الصحبة » وهو المشرف على المطبخ السلطانى وموظفيه ، ويخاطب السلطان فى كل مايتعلق بالأطعمة الخاصة بمطابخه . كما

الاستادارية فى عهد سلطنة الناصر الثانية أيضاً الأمير سيف الدين بتخاص . ومن أشهر الاستادارية من أمراء المئين فى سلطنة الناصر الثالثة : قراسنقر الاچين (٧١٥ — ٧٢٣ هـ) وبكتمر العلائى (٧٢٣ — ٧٣٢ هـ) ومغلطاى الجمالى (٧٣٢ هـ) وآقبغا عبد الواحد . ومن الاستادارية الصغار من أمراء الطبلخانات أو العشرات (فى دولة الناصر الثالثة) طرنطاى المنصورى وبلبان القبجقارى وكيكلدى اللقمانى وهم من أمراء العشرات ويغمور والطلقش وكيكلدى أبو غرة ولؤلؤ الزدركاش وعلاء الدين الرحبى وهم من أمراء الطبلخاناه . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٤٨ .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ : السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٢ و ٢٢٤ . Van Berchem, Corpus, p. 89.

(٣) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣١ .

(٤) هذا الاسم يتركب من كلمتين : أولاهما عربية وهى خزانة أى ما يخزن فيه ، وثانيهما فارسية وهى دار ، فيكون الخازندار هو ممسك الخزانة . ومما هو جدير بالملاحظة أن بعضهم كان يكتبها «الخزندار» بعد حذف الألف . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢١ . Van Berchem : Corpus I., pp. 271-272.

(٦) الخالدى : المقصد . ص ١٢٧ . Demombynes ;La Syrie, p. LIX.

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨١ .

كما كان يسير امام الطعام حتى يوضع على المائدة السلطانية ويقف بجانب السماط [١] كما عهد إلى صاحب هذه الوظيفة فى الاشراف على مايحتاجه السلطان من الأدوية والعقاقير والتحدث إلى الأطباء فى هذا الشأن[٢] ويختار هذا الموظف من بين أمراء العشرات أو العشرينات[٣] وكان يطلق على من يتولى أمر طعام الخليفة فى عهد الفاطميين اسم « زم الرجال »[٤] .

وكان يساعد استادار الصحبة موظف يعرف باسم « المشرف » ويتولى أمر المطبخ ويشرف على طهى الطعام وإعداده[٥]. أما المُشْرف على ما يشوى للسلطان من أصناف اللحوم والطيور فكان يعرف باسم « أمير مَشوى » وهو فى مرتبه أمير عشرة . وكان هناك أميران يقومان بهذا الاشراف بالتناوب[٦] .

وكان يقوم بذوق الطعام والشراب قبل تقديمه للسلطان موظف خاص يعرف باسم « الجاشنكير[٧] » وذلك خوفا من أن يتمكن أحد من دس السم له فى الطعام . وكانت مهمته الاشراف على اعداد الأسمطة مع استادار الصحبة ، ويقف معه بجانب السماط[٨] ويتمتع بحكم وظيفته بمكانة سامية عند السلطان ونفوذ كبير وشهرة واسعة فى انحاء الدولة [٩] ، ويظهر أن هذه الوظيفة لم يكن يتولاها واحد فقط بل كانت تسند الى أكثر من واحد على رأسهم أمير من أمراء المئين [١٠]. وليس غريباً أن يكون فى رنك هذا الأمير رسم مائدة ترمز إلى طبيعة عمله . [١١]

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢١ . الخالدى : المقصد ص ١٣٨ .

(٢) Demombynes : La Syrie, p. LXII.

(٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٨١ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٥٤ .

(٦) الخالدى : المقصد ص ١٢٩ .

(٧) هذا الاسم يتركب من كلمتين فارسيتين : إحداهما جاشنا ومعناها الذوق والثانية كبير ومعناها المتعاطى . فيكون الجاشنكير « الذى يذوق » . ولذلك أطلق عليه العامة اسم الشمنى . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٠ . الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

Demombynes : La Syrie, p. LXI.

(٩) Lane-Poole : The Art of the Saracent, p. 30.

(١٠) الواقع أن وظيفة متذوق الطعام لم تكن من مستحدثات المماليك . وإنما وجدت فى دول متعددة فى عصور متباينة . من ذلك مثلا فى أيام البطالسة موظف يحمل اسم Edeatros مهمته تذوق الطعام قبل تقديمه إلى بطليموس خوفا من دس السم له .

(١١) انظر Mayer : Saracenic Heraldry, p. 4,15.

وكان كبير الخدم المكلفين بالسماط السلطانى يعرف باسم « الخوان سلار »(١) ، وعمله إعداد الموائد السلطانية وتنظيمها والخدمة مع رجاله عليها أثناء الطعام . ومن تولى هذا المنصب علىّ بن الطباخ الذى نشأ بمصر وسهر على خدمة السلطان الناصر محمد أثناء مقامه بالكرك . فلما حضر الى مصر سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) سلمه شئون السماط السلطانى وعينه فى وظيفة خوان سلار وظل ابن الطباخ على ذلك سبعاً وثلاثين سنة ، وأثرى من وظيفته لطول مدة توليه إياها . فقد كان يتولى كذلك أمر الأفراح والأعراس التى كانت تعمل فى الدور السلطانية وفى دور الأمراء (٢) .

ومن أظهر معاونى « الخوان سلار » الموظف المعروف باسم « الساقى » . وكان يتولى أمر مد السماط الخاص بالسلطان وتقطيع اللحم وسقى الشراب بعد الانتهاء من الأكل ورفع الخوان . وكانت وظيفته الرئيسية — كما يتضح من الاسم الذى أطلق عليه — سقى الشراب . ولكن الأعمال الأخرى أضيفت الى اختصاصه الأول . ويظهر انه لقب بذلك اللقب لأن سقى الشراب كان آخر عمل يقوم به(٣) .

ويساعد فى رفع الخوان السلطانى موظف يعرف باسم « المَرَقْدار » . وقد سمى بهذا الاسم لأنه — كما يقول القلقشندى — « يتصدى لخدمة ما يحوز المطبخ وحفظه . . . (و) لكثرة معاطاته لمرق الطعام عند رفع الخوان ونحو ذلك »(٤) . وقد أشار تاج الدين السبكى إلى آداب الساقى فذكر أمرين : إحداهما انه لا يحل له أن يحضر لخدومه منكر يشربه ، وثانيهما أن يحفظ حقوق مخدومه ويخشى عليه من عدو يضع له فى المشروب ما يهلكه »(٥) .

ولكل بيت من البيوت السلطانية « مِهْتار »(٦) ، يرأس طائفة غلمان(٧) (أو خدم)

---

(١) هذا الاسم يتركب من كلمتين : الأولى معربة وهى خوان وهو ما يؤكل عليه ، والثانية سلار وهى فارسية ومعناها المقدم ، فيكون الخوان سلار هو « مقدم الخوان » . وكانت العامة إذ ذاك تنطقه « خوان سلار » . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣١٥ . ويقول المقريزى أيضاً (نفس المصدر والجزء والصفحة) أن السلطان شعبان بن الناصر لما صادر سنة ٧٤٦ هـ أموال على بن الطباخ الكثيرة ، وجد فى حوزته خمسا وعشرين داراً تشرف على النيل . راجع أيضا المقريزى (نفس المصدر والجزء ص ١٣١) حيث تجد معلومات أخرى عن ثروة على بن الطباخ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٤ . الخالدى : المقصد ص ١٢٤ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤٧٠ .

(٥) السبكى : معيد النعم ص ٥٣ — ٥٤ .

(٦) المهتار : لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان (أو خدم) البيوت السلطانية . ويتركب من كلمتين : أولاهما مه ومعناها بالفارسية الكبير وتار بمعنى أفعل التفضيل . فيكون المهتار « الأكبر » القلقشندى نفس المصدر ج ٥ ص ٤٧٠ .

(٧) مفردها غلام ، والغلام هو الصبى الصغير . ولذلك أطلق هذا اللفظ على من يكلف بالاعمال

البيت الذى يعمل فيه . ويتولى هذه الوظيفة أحيانا اثنان يتناوبان العمل فيما بينهما .

ويرأس مهتار الشراب خاناه طائفة الشراب دارية [١] وهم الغلمان المكلفون بالخدمة فى تلك الدار . أما شد الشراب خاناه [٢] فكان يدير شئون هذا البيت ، ويختار عادة من بين أمراء المئين أو أمراء الطبلخاناه ، وهو المسئول عن الأصناف الواردة الى خزانة الشراب من السكر والفواكه والحلوى والشراب ونحوها .

وكان مهتار الطست خاناه يرأس طائفة « الطست دارية » [٣] و « الرَّخْتَوَانِية » [٤] . وكان لهاتين الطائفتين خبرة بترتيب الأحمال على ظهور البغال للزينة فى المواكب العظيمة ونحوها . وقد أفتنوا فى ذلك وأظهروا من بديع الصناعة وجمال التنسيق ما كانوا يتباهون به [٥] ، وكان كل واحد من رجال الطست خاناه يلقب بلقب « بابا » وهو لفظ رومى معناه « الأب » . وقد أطلق أولا على مهتار الطست خاناه تعظيما له وإظهاراً لما كان يقوم به من الترفيه عن السلطان بتنظيف ملابسه وتحسين هيئته وهو فى ذلك يشبه الأب الشفيق [٦] .

ويتولى « المهتار » شئون الفراش خاناه ويعهد اليه بتسلم القماش الخاص بصنع الخيام وتهيئة ما يختاره السلطان استعماله منها أثناء سفره [٧] . ويرأس عدداً من الغلمان يعرفون باسم « الفراشين » عرفوا بالمهارة والدربة فى نصب الخيام وربما تمكن أحدهم من نصب الخيمة بمفرده دون أن يساعده أحد فى ذلك . كما كانوا يقومون بعملية الكنس وفرش البسط ومد الأسمطة داخل الخيام . وكان هذا المهتار يخضع فى تصرفاته للأوامر التى يتلقاها من الاستادار [٨] .

ويشرف على الطبلخاناه موظف يعرف باسم « مهتار الطبلخاناه » ، ويعهد اليه بحفظ آلات

البسيطة لصغره فى النفوس . القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٧١ : قارن استعمال لفظ page فى البلاط فى اللغه الانجليزية .

(١) هذا الاسم يتركب من كلمتين : الأولى شراب وهو ما يشرب من ماء أو نحوه وحذفت منه الألف استثقالا ، والثانى دار فيكون الشرابدار هو حامل الشراب . القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤٦٩ .

(٢) المقصود من كلمة « شد » : الأمين . وبذلك يكون شد الشراب خاناه هو الأمين على بيت الشراب

(٣) يتركب هذا الاسم من كلمتين : الأولى الطست وهو مايغسل فيه . والثانية دار ومعناها ممسك . فيكون المعنى « حامل الطست » .

(٤) نسبة إلى « رختوان » : ويتركب من كلمتين : الأولى فارسية وهى الرخت وهو اسم للقماش والثانية وان ويقصد بها ياء النسب . فيكون الرختوان هو المتولى لأمر القماش .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١١ و ج ٥ ص ٤٦٩ — ٤٧١ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٧٠ .

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٧٠ . الخالدى : المقصد ص ١٣٠ .

(٨) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤١٦ . Demombynes : Le La Syrie, p. III.

الضرب والاشراف على المطبلين والزمارين والمنقرين وغيرهم . وكان عدد مهاترة الطبلخاناه اثنين وقد يصل عددهم الى ثلاثة (١) ، ويرأس المهتار أعضاء فرقة الموسيقى السلطانية ومن بينهم الدنبذار ويختص بالضرب على الطبل والمُنَقِّر ويضرب بالنقارات (٢) والكُوسى ويضرب بالكوسات (٣)

ويتولى « أمير عَلَم » أمر الأعلام فى الطبلخاناه السلطانية ، ويختار من طبقة أمير عشرة ، ويشترط فيه أن يكون حسن الوجه رضى الخلق (٤) . ويقف أمير علم فى الطبلخاناه بالقلعة فى كل ليلة وقت الضرب ويشرف عليها فى أثناء السفر (٥) .

ويقوم « المَهْمَنْدار » (٦) باستقبال السفراء والعربان الذين يفدون على السلطان ، وينزل كلا منهم فى المكان اللائق بمركزه فى دار الضيافة ، ويعين من يقوم على خدمته ، ويرتب لهم ما يحتاجون اليه ولا يمكن أحداً من الاجتماع بهم إلا بأمر السلطان ، كما يشرف على الخدم الذين يعهد اليهم بخدمة هؤلاء السفراء ويعمل على توفير أسباب الراحة لهم (٧) .

وإذا أهدى أحد السفراء الى المهمندار هدية قبلها منه بعد أن يستأذن السلطان فى ذلك (٨) . وكان يختار من أمراء العشرات على حين كان يختار فى عهد الدولة الفاطمية من أرباب العمائم ويعرف باسم « نائب صاحب الباب » (٩) .

---

(١) الخالدى ; المقصد ص ١٣٠ .

(٢) النقارات : جمع نقارة وهى من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة وكانت تحمل فى ركاب السلاطين إلى الحرب فتستخدم فى اصدار الأوامر . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٥ .

Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٣) الكوسات : هى صنوج نحاس يدق بأحداها على الأخرى بتوقيع خاص مرتين فى القلعة كل ليلة ثم يدار بها فى جنباتها مرتين مرة بعد العشاء وأخرى قبل التسبيح . وإذا كان السلطان مسافراً تدور الكوسات حول خيامه . القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٩ — ١٣ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ و ج ٥ ص ٤٥٦ .

Demombynes : La Syrie, p. LXIII.

(٥) قضى على نظام الطبلخاناه فى مصر بعد الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م .

Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 248.

(٦) المهمندار : يتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين احداهما مهمن ومعناها الضيف والثانية دار. فيكون المهمندار هو ممسك الضيف أى المكلف بخدمة الضيف والسهر على راحته . القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ و ج ٥ ص ٤٥٩ . الخالدى : المقصد ص ١٢٨ .

(٧) المقريزى : الخطط ج ٥ ص ٤٦٣ . السبكى : معيد النعم ص ٣٥ — ٣٦ .

(٨) كان احمد المهمندار فى بلاط الناصر محمد بن قلاوون، ممن أغدق عليهم أحد ملوك السودان، الهدايا حين زار بلاط الناصر ، فان الأخير منح المهمندار عطايا كثيرة منها سبائك من ذهب . انظر

Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 146.

(٩) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨٤ .

وقد أتى القلقشندى بوصف شامل عن طريقة استقبال السفراء الذين كانوا يفدون على مصر فى مهمات رسمية من قبل الملوك وعن كيفية نزولهم فى دار الضيافة ومقامهم فيها ، وكيف كانوا يمثلون بين يدى السلطان لعرض ما معهم من الكتب عليه . قال : « وقد جرت العادة أنه اذا وصل رسول من ملك من الملوك الى أطراف مملكته كاتب نائب تلك الجهة السلطان وعرفه بوفوده واستأذنه فى أشخاصه اليه ، فتبرز المراسيم السلطانية بحضوره فيحضر فاذا وقع الشعور بحضوره فان كان مرسله ذا مكانة عظيمة من الملوك : كأحد القانات من ملوك الشرق خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقائه وأنزل بقصور السلطان بالميدان الذى يلعب فيه بالكرة وهو أعلى منازل الرسل ، وان كان دون ذلك تلقاه المهمندار واستأذن عليه الدوادار وأنزله دار الضيافة أو ببعض الأماكن على قدر رتبته . ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بايوانه وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام ويحضر ذلك الرسل وصحبته الكتاب الواردين (وصحتها الواردون) معه فيقبل الأرض ويتناول الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه الرسول ثم يدفعه الى السلطان فيفضه ويدفعه إلى كاتب السر فيقرأه على السلطان ويأمر فيه بأمره[١] .

ويشرف « الزمام دار[٢] » على شئون الحريم السلطانى ، ويعتبر رئيس الخدم والخصيان المكلفين بالاشراف على ستارة السلطان ، ويتولى أمر زواج الخوندات[٣] والمعتقات[٤] ويختار من بين أمراء الطبلخاناه ، ويرأس عدد كبيراً من الموظفين ينفذون أوامره فيما يوكل اليهم من المهمات[٥] وأول من أنشأ هذه الوظيفة السلاجقة[٦] .

أما الاصطبلات السلطانية ، فكان يديرها موظف يسمى « أمير آخُور »[٧] وكانت وظيفته من الوظائف الكبرى فى القصر السلطانى ، لما كان للفروسية من المقام الأول فى حياة المماليك .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) الزمام دار : تحريف من الزنان دار ، يتركب من كلمتين إحداهما زنان ومعناه النساء وثانيهما دار ، فيكون المعنى ممسك النساء . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٩ .

(٣) لعلها من الفارسية « خوند » بمعنى « سيد » أو « أمير » .

F. Steingass : Persian-English Dictionary : p. 489.

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٢٧ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢١ Demombynes : La Syrie, p. LIX,

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٥ .

(٧) يتركب هذا اللفظ من كلمتين : أولاهما « أمير » والثانية « آخور » . وهى كلمة فارسية معناها المذود أو المعلف . وبذلك يكون أمير آخور هو أمير المذود الذى يأكل فيه الخيل أو أمير المعلف أى المتولى لأمور الدواب ، ومن أهمها المعلف . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦١ .

راجع ما جاء عن تطور هذه الوظيفة فى : Van Berchem : Corpus, Egypt I. p. 301.

واقرأ نص وصية أمير آخور فى العمرى : التعريف ص ٩٩ — ١٠١ .

وهى من الوظائف التى أنشأها السلطان الظاهر بيبرس ، ولم تكن معروفة قبل عهده . وكان المغول يطلقون على من يتقلد تلك الوظيفة اسم « آق طاشى[١] » ويختار أمير آخور من بين أمراء المئين ويتخذ مسكنه فى الاصطبل السلطانى وكان يسمى أولا « أمير آخور » . ولما ارتفعت مرتبة وظيفته أضيف اليه « الكبير » وهو مقدم الف وأصبح له أعوان : أمير آخور الثانى ثم أمير آخور ثالث وهكذا حتى بلغوا أربعين [٢]

ويلى « أمير آخور » فى الرتبة « السّراخور »[٣] ويتولى أمر علف الدواب من الخيل وغيرها وكانت الغلال التى يصرف منها ما يلزم للاصطبلات والمناخات السلطانية تحفظ فى « الأهراء السلطانية » وهى الأماكن التى تخزن بها الغلال[٤] .

ويعاون أمير آخور عدد كبير من الموظفين من مربنة أمراء العشرات والجند ، وصلوا أحيانا إلى ثمانمائة موظف ، منهم أوجاقية (أو أوشاقية) الخاص به وكان عددهم ستة عشر شخصاً ، يصحب اثنان منهم السلطان عند خروجه فى المواكب ، ويركب كل منهما فرساً أشهب برقبة [٥] وعدة ويلبس قباء أصفر من حرير مطرز ومزركش[٦] . ويقوم المهمهرد[٧] بحفظ قماش الجمال والخيل والسقائين ونحوهم . ويرأس مهنار الركاب خاناه طائفة الركاب دارية[٨] والسواس والفلمان .[٩]

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٣٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

Wiet : Histoire de la Nation Egyrptienne, tome IV (L'EgypteArabe), p. 396

(٣) هذا اللفظ يتركب من كلمتين : سرا ومعناها الكبير وآخور ومعناه الفلف . فيكون السراخور هو كبير العلف أى كبير الموظفين الذين يشرفون على علف الدواب . ويطلق عليه اسم « سراخورى » أو « سلاخورى » . القلقشندى . نفس المصدر ج ٥ ص٢٤٦ .

Lane--Poole : The Art of the Saracens p. 30

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٣ .

(٥) الرقبة — هى رقبة من أطلس أصفر مزركش بالذهب بحيث لا يرى الأطلس لتراكم الذهب عليها ، وتوضع على رقبة الفرس تحت أذنيه إلى نهاية عرفه . القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٨ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٨ .

(٧) هذا اللفظ يتركب من كلمتين فارسيتين : مه وهى الكبير ومرد وهى الرجل . فيكون المهمرد هو الرجل الكبير . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٧١ .

(٨) يتركب هذا الاسم من كلمتين : أولاهما ركاب ومعناه الغاشية (وهى السرج) والثانية دار فيكون الركاب دار هو حامل السرج . القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص٧ . Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٩) وكان يطلق على الركاب دارية فى عهد الفاطميين اسم « الركابة » أو « صبيان الركاب الخاص » . القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨٠ .

وقد ذكر ابن شاهين وظائف الاصطبلات السلطانية. وهى على العموم تعطينا صورة واضحة عن هذه الوظائف فى ذلك العهد ، لأن هذا المؤرخ وان كان قد توفى فى سنة ٨٧٣ هـ إلا أنه قد نسب ماذكره إلى عصر تقدم عصره . فقال : « أما بقية مايتعلق بالاصطبل من الوظائف : فالأجاقية كانوا قديما جملة مستكثرة ، قيل كانوا ثمانمائة نفر ومنهم أوجاقية الخاص ستة عشر نفراً ، والسلاخورية ، وسواق البريد والشحن الذى على المناخات ، والجمالة ، والنقرية ، والعرب الذين يركبون السايرات (كذا) كان عدتهم ثلاثمائة نفر ، الخاص منهم ثلاثون نفراً والسواس ، وسواس الخاص والهجانة الذين يتعلق بهم الهجن كان عدتهم أيضاً قديماً ثلاثمائة نفر ومكارية البغال والدشارية والبياطرة ، والسقاءون ، والخول وغير ذلك مما يطول شرحه والمتكلم عن ذلك جميعه : أمير آخور الكبير » (١) .

الحرس السلطانى :

وكان للسلطان مماليك خاصة ، به تقيم معه فى القلعة ، أطلق عليهم اسم « المماليك السلطانية » وقد وصف القلقشندى هذه الطائفة من المماليك بأنها كانت عند السلطان « أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة » (٢) وأهم طوائف المماليك السلطانية « الخاصكيه » وهم الذين يختارهم السلطان من المماليك الذين تولى تربيتهم منذ الطفولة (٣) . وإنما عرفوا بذلك الاسم لأنهم كانوا يلازمون السلطان فى خلواته وأوقات فراغه وينالون من خيره وعطاياه ما لا يناله أكابر الأمراء المقدمين . فقد ذكر المقريزى أنه كان « لخاصة السلطان المقربين إنعام من الانعامات كالعقارات والأبنية الضخمة التى ربما انفق على بعضها زيادة على مائة ألف دينار . ووقع هذا فى الأيام الناصرية مرارا ، ولهم أيضاً كساوى القماش المنوع ، ولهم عند سفرهم إلى الصيد العلوفات والأنزال » (٤)

وقد بلغ عدد الخاصكية فى عهد السلطان الناصر أربعين خاصكياً (٥) ، كانوا يختارون من بين أمراء الخمسات أو أمراء العشرات (٦) ، وفى سجلات جيش المماليك فى عهد سلطنة الناصر الثالثة سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) كانت كلمة « خاصكية » يقصد بها الأمراء الكبار والصغار

---

(١) زبدة كشف الممالك ص ١٢٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥ .

(٣) Demombynes : La Syrie, p. XXX III, XCIX.

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٦ .

(٥) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢١٥ — ٢١٦ .

وقد بلغ عدد الخاصكية فى عصر الفاطميين قرابة خمسمائة كان يطلق عليهم اسم « صبيان الخاص » القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٧ .

(٦) Demombynes. La Syrie, p. XXX III.

من مختلف الرتب(١). وكان لهذه الطائفة آداب مرعية وتقاليد خاصة يتميزون بها عن غيرهم فانهم كانوا إذا التحقوا بخدمة القصر وقف كل منهم فى مكانه المعين له دون أن يسمح له ولا لأحد من المماليك أن يحدث زميله بكلمة واحدة فى أى أمر من الأمور ولا يلتفت اليه ، كما كان محرماً عليهم أن يجتمع كل منهم بالآخر فى الرحلات أو الصيد ، وإذا بلغ السلطان عن أحدهم أنه فعل ذلك دون استئذانه أمر بنفيه أو القبض عليه (٢)

وكان الخاصكية يظلون معظم النهار وجانباً من الليل فى خدمة القصر السلطانى . ومن هنا جاءت تسمية رئيس المماليك السلطانية جميعاً — ومنهم الخاصكية — باسم « رأس نَوْبة » ، إذ كان المفروض أن مماليك السلطان يسهرون بالتناوب على راحته . وكلما انقضت نوبة جماعة منهم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم . ويتشاغل أصحاب النوبة الأولى عن النوم بالقراءة فى المصاحف أو لعب الشطرنج أو تناول الطعام حتى يأتى ميعاد نوبتهم مرة أخرى (٣) . لذلك بلغت درجة قربهم من السلطان مبلغاً كبيراً حتى أنهم كانوا يدخلون عليه بدون استئذان ، وصار رأس نوبة أول من يدخل على السلطان فى النهار ليعرض عليه الأمور الخاصة بالمماليك ، ومن اختصاص هذا الموظف الكبير الاشراف على مماليك السلطان والفصل فى خصوماتهم وعقاب من يهمل منهم فى واجباته أو يقصر فيها ، ويقبض على من يأمره السلطان بالقبض عليه منهم ، ويرجعون اليه فى كل أمورهم ، وهو الواسطة بينهم وبين السلطان . وقد بلغ من تكريم السلطان لهذا الموظف الكبير أنه كان يخاطبه « الجناب العالى الكريم » بل كان يسميه أحيانا « الأخ » (٤) . وقد جرت العادة أن يتقلد وظيفة رأس نوبه أربعة أمراء ، يختار أحدهم من أمراء المئين والثلاثة من أمراء الطبلخانات (٥) .

وقد عرفت وظيفة رأس نوبة فى مصر فى عهد الأيوبيين (٦) . ولكنها لم تدخل على نظام الحكم فى دولة المماليك إلا فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، ويظهر انه أدخله على النحو الذى كانت عليه عند التتار ، فقد كانت هذه الوظيفة من أكبر وظائف الحاشية فى قصورهم .

---

(١) Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3.

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٦ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ . الخالدى : المقصد ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٤) Lane-Poole : The Art of the saracens, p. 3.

ولعل استعمال هذا اللفظ يشير إلى بعد نظام المماليك عن نظرية الحق الالهى وقربه من النظام الجمهورى ، الذى يجعل الرئيس ، الأول بين نظراء له : Primus inter pares.

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٠ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٤ .
Demombynes : La Syrie, p. LV.

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٨ .

ويطلق على من يليها عندهم « كيشُول » (١) .

وكانت وظيفة « مقدم المماليك » قريبة الشبه بوظيفة « رأس نوبة » إذ كان القائم بتلك الوظيفة ينظر فى تربية المماليك السلطانية تربية عسكرية والحكم بينهم والفصل فى أمورهم(٢) . وكان يختار عادة من أمراء الطبلخاناه ، ويعاونه فى عمله نائب برتبة أمير عشرة ، يقوم مقامه عند غيبته . كما كان له أتباع يفصلون فى بعض الخصومات بأمره (٣) .

* * *

هذا هو الحرس السلطانى داخل القصر . أما خارج القصر فقد كان لهذا الحرس أهمية خاصة فى المواكب السلطانية التى كانت من أظهر ما يتميز به ذلك العصر ، اذ تعددت تلك المواكب حتى شملت موكب السلطنة والاحتفال بحبر الخليج وصلاة الجمعة والعيدين ولعب الكرة والخروج الى سرياقوس والسرحات أى الصيد الذى كان يخرج له السلطان سبع مرات فى فصل الربيع .

أما موكب السلطنة فقد ظل سلاطين مصر من المماليك بعد بيبرس يتبعون نفس النظام الذين كان يتبع عند اعتلاء كل منهم العرش وتقليد الخليفة لهم أمور البلاد . وفى ذلك الموكب كان يركب السلطان والخليفة والوزير والأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة إلى خيمة تقام خارج باب النصر وهناك يُلبس الخليفة السلطان خلعة السلطنة . ويعود السلطان بموكبه بعد ذلك الى القاهرة لابساً تلك الخلعة ، ومخترقاً طريقاً مفروشاً بالبسط ، يمتد من باب النصر إلى القلعة .

وفى عهد أولاد الناصر أدخلت تعديلات جوهرية على نظام موكب السلطنة وأصبح أكثر روعة وبهجة ، فضلا عما أحيط به من مظاهر الفخامة والأبهة . وفى المقريزى وصف شائق لهذا الموكب ، حيث يقول : « كانت العادة أنه اذا تولى السلطنة أحد من أولاد الناصر

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١٥

ولما استحدثت وظيفة الأمير الكبير « فى عهد السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد صار رأس نوبة من مرتبة هذا الأمير . والأمير الكبير هو أكبر الأمراء وأعظمهم وأقربهم إلى السلطان . وكان يستشيره فى مهام الأمور ويأخذ برأيه (السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥ . الخالدى . المقصد ص ٢٢٤) . وكان يلى الأمير الكبير فى المرتبة : أمير سلاح . أمير مجلس . الدوادار الكبير . أمير آخور الكبير . أمير نوبة النواب . أمير حاجب الحجاب . الخازندار الكبير . أمير الحاج . وكان هؤلاء كلهم من مقدمى الالوف . انظر دائرة المعارف الاسلامية ، مادة الأمير الكبير .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٦ . Demombynes : La Syire p. LXII.

(٣) القلقشندى : نفس المصدر . ج ٤ ص ٢١ . الخالدى : المقصد ص ١٣٧ .

Van Berchem : Corpus , Egypte I. pp. 250, 310.

محمد بن قلاوون فانه عند توليته يحضر الأمراء الى داره ، وتفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء ومن تحتها فرجية خضراء وعمامة سوداء مدورة ويقلد بالسيف العربى ويركب فرس النوبة ويسير الأمراء بين يديه والغاشية قدامه والجاويشية تصيح والشبابة السلطانية ينفخ بها والطبردارية حواليه ، إلى أن يعبر من باب النحاس إلى درج الديوان المعروف بدار العدل ، فينزل عن الفرس ويصعد الى التخت فيجلس عليه ويقبّل الأمراء الأرض بين يديه . ثم يتقدمون إليه ويقبّلون يده على قدر رتبهم ثم مقدمى الحلقـــة . فاذا فرغوا حضر القضاة والخليفة فتفاض التشاريف على الخليفة ويجلس مع السلطان على التخت ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء »(١) .

وهنا يجب أن يلاحظ أن السلطان الناصر كان آخر من ركب بشعار السلطنة وخلعة الخلافة والتقليد من سلاطين مصر . وكان أول من ركب بها منهم السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، ولم يركب بها من سلاطين المماليك أحد قبل بيبرس(٢) .

أما هيئة السلطان فى « الركوب لكسر الخليج » . فسنقتصر فى وصفها على بيان الحرس السلطانى وأنواع الأدوات التى كان يخرج ويعود بها فى مثل هذا الموكب . يقول القلقشندى : «واعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج ، ولم تجر العادة بركوبه فيه بمظلة ولا رقبة فرس ولا غاشية ولا ما فى معنى ذلك . بل يقتصر على السناجق والطبردارية والجاويشية ونحو ذلك . ويركب من القلعة عنـد طلوع صاحب المقياس بالوفاء فى أى وقت كان ويتوجه الى المقياس فيدخله من بابه ويمد هنـاك سماطاً يأكل من معه من الأمراء » . (٣) .

أما صلاة العيدين وهيئة السلطان فيها فقد وصفها القلقشندى بقوله : « وأما صلاة العيدين ، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من منفذه من الاصطبل إلى الميدان الملاصق له ، وقد ضرب له فيه دهليز على أكمل ما يكون من الهيئة ، ويحضر خطيب جامع القلعة الى الميدان فيصلى به العيد ويخطب . فاذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والأمراء والمماليك يمشون حوله ، وعلى رأسه العصائب السلطانية ، والغاشية محمولة أمامه ، والچتر وهو المظلة محمول على رأسه مع أحد كبار الأمراء المقدمين وهو راكب فرساً الى جانبه ، والأوشاقيان الجفتة راكبان أمامه ، وخلفه الجنائب وأرباب الوظائف من السلاح دارية كلهم خلفه ، والطبردارية أمامه مشاة بأيديهم الأطبار ، ويطلع من باب الاصطبل

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٩ . يلاحظ أن الألفاظ الغريبة فى هذه العبارة مثل : فرس النوبة ، والجاويشية ، والشبابة ، والطبردارية ، جاء تفسيرها فى موضعها من الكتاب .
لمعرفة تفاصيل حفلات « تخليق المقياس وفتح الخليج »

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٠٧ — ١٠٨ . الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٣) صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٧ — ٤٨ . انظر كذلك خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٧٠ و ٤٨٩ — ٤٩٣
لمعرفة تفاصيل حفلات « تخليق المقياس وفتح الخليج »

ويطلع الى الايوان الكبير ، ويمد السماط ويخلع على حامل الجتر وأمير سلاح والاستادار والجاشنكير وجماعة من أرباب الوظائف ممن لهم خدمة فى مهم العيد كنواب استادار وصغار الجاشنكيرية وناظر البيوت ونحوهم »(١).

وكان السلطان يخرج للعب الكرة « على الهيئة المذكورة فى العيد ، ما عدا الجتر فانه لا يحمل على رأسه ، وتحمل الغاشية أمامه فى أول الطريق وآخره ، ويصير الى الميدان »(٢).

ووصف المقريزى « رسوم السلطان فى خروجه الى سرياقوس وغيرها من الأسفار » فقال ان السلطان كان فى مثل تلك الحالات « لا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة ، بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم واستاداره وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن . وأما هو نفسه فانه يركب ومعه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص وجملة من خواص مماليكه ولا يركب فى السير برقبة ولا بعصائب بل يتبعه جنائب خلفه . ويقصد فى الغالب تأخر النزول إلى الليل ، فاذا جاء الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل . فاذا قارب مخيمه تلقى بشموع موكبه فى شمعدانات كفت وصاحت الجاويشية بين يديه ونزل الناس كافة إلا حملة السلاح فانهم وراءه والوشاقية أيضاً وراءه ، وتمشى الطبردارية حوله حتى [يصل] القصور بسرقاقوس أو الدهليز من المخيم . . . فاذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة وطاف بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهيز فى كل ليلة وتدور بسرياقوس حول القصر فى كل ليلة مرتين : الأولى منذ يأوى الى النوم والثانية عند قعوده من النوم . وكل زفة يدور بها أمير جاندار وهو من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة وينام على باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم »(٣).

بذلك كان لكل من هذه المواكب نظام خاص وترتيب معين . فقد كان يخرج فى معية السلطان أعيان الدولة وكبار موظفيها ويسير خلفه كثير من المماليك السلطانية ، ويصحبه الخاصكية مرتدين الثياب المزركشة ومتمنطقين بالسيوف اللامعة مما كان يكسب تلك المواكب جلالا وأبهة .

وكان السلطان يظهر فى تلك المواكب بأنواع مختلفة من الملابس ، كانت تعرف فى مصطلح عصر المماليك بشعائر السلطنة . وكان الملابس السلطانية موظفون يختارون للسطان الملابس المناسبة له فى المواكب والحفلات ومنهم الجمدار(٤) والبشمقدار(٥). وكان أولها

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٤٧ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٤) أصل هذه الكلمة جامادار فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالا وقيل جمدار . ويتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين أولاهما جاما ومعناها الثوب أو البقجة والثانية دار ومعناها ممسك . فيكون المعنى : حامل البقجه أو الثوب . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٩ .

(٥) يتركب هذا الاسم من لفظين : أحدهما تركى وهو بشمق ومعناه النعل والثانى فارسى وهو دار =

يعين من أمراء الطبلخاناه (١) ويقوم على أمر الملابس والثانى يحمل نعل السلطان . وكانت الجمدارية أقل فى المرتبة من الخاصكية (٢) ، ويتولى وظيفة البشمقدار رجلان يتناوبان العمل بينهما فى المواكب السلطانية (٣).

ويتألف الحرس السلطانى فى تلك المواكب من فئات مختلفه ، على رأس كل منها أمير يحافظ على شخص السلطان فى أثناء خروجه فى المواكب . ومن هؤلاء الموظفين : أمير طبر ، والجقدار ، والسنجقدار ، والعلم دار ، والركاب دار ، والمحفدار ، والجوكان دار ، وصاحب المظلة .

واذا خرج السلطان فى المواكب سار فى ركابه أمير يحمل الطّبر ، ويسمى «أمير طبره» وهو رئيس طائفة الطبردارية (٤) ، التى بلغ عددها عشرة ، عليهم أمير برتبة أمير عشرة (٥) ، وكانوا ينتخبون من أبناء الجند ومهمتهم مرافقة السلطان والاحاطة به لحمايته فى أثناء تجواله فى أنحاء المملكة .

وفى المواكب السلطانية يسير الجُمْقُدار (٦) على يمين السلطان يحمل دبوسا (massue) ، له رأس ضخم . ويتجه نظره إلى السلطان من أول خروج الموكب إلى نهايته . ويشترط فيه أن يكون مهيباً حسن الشكل ضخم الجسم (٧) .

وهناك طائفة من الموظفين كانوا يقومون بحمل السّناجق والأعلام على رأس السلطان فى المواكب : فيحمل السنجقدار (٨) ورجاله السناجق وهى رايات صفر صغار . ويحمـــل

= فيكون البشمقدار هو حامل النعل . وكان هذا الاسم يحرف أحيانا إلى بصمقدار على اعتبار أن بشمق وبصمق معناها فى اللغة التركية واحد وهو النعل . ولكن كان الشائع فى دولة المماليك كلمة البشمقدار . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ .

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢٤ .

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٤

Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 31.

(٣) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٤) يتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين : أولاهما طبر ومعناها البلطة hâche ، والثانية دار ومعناها ممسك . فيكون طبردار هو حامل البلطة . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٨ .

السبكى : معيد النعم ص ٥٠ . Demombynes : La Syrie, p. LXIII.

(٥) القلقشندى : نفس المصـدر ج ٤ ص ٢٢ . Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 31.

(٦) لفظ الجمقدار مركب من كلمتين : أولاهما تركية وهى جمق ومعناها الدبوس ، والثانية فارسية وهى دار ومعناها ممسك . فيكون الجمقدار حامل الدبوس Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٧) الخالدى : المقصد ص ١٢٣ .

(٨) يتركب هذا اللفظ من كلمتين : أولاهما السنجق وهو لفظ تركى يطلق فى الاصل على الرمح =

العلم دار(١) العلم وهو راية مصنوعة من الحرير الأصفر مطرزة بالذهب وعليها ألقاب السلطان واسمه ، ويطلق عليها اسم العصابة ، ويختار عادة من بين أمراء الخمسات . ويحمل الرِّكاب دار الغاشية وهى « سَرْج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب » توضع على ظهر الفرس فوق البرذعة ، ويلفتها الركاب دار يميناً وشمالا . وكان يطلق على الركاب دارية فى عهد الفاطميين اسم « الرِّكابية » أو « صبيان الركاب الخاص »(٢) .

ويتولى أمر المحفة السلطانية فى المواكب المحَفِّدار(٣) ومهمته استجلاب الآلات والأقمشة اللازمة لتلك المحفة(٤) .

وإذا خرج السلطان فى موكب لعب الكرة خرج معه الجُوكان دار(٥) يحمل له الجوكان وهو المحجن الذى تضرب به الكرة ، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً . والجوكان عصى مدهونة طولها نحواً من أربعة أذرع ، برأسها خشبة مخروطة محدودبة تزيد عن نصف ذراع . وهى لعبة البولو Polo الحالية .

وكان صاحب المظلة(٦) يحمل مظلة السلطان أثناء سيره فى الموكب . ويعبر عن المظلة بالجتر

= والمراد به هنا الراية التى تربط به والثانية دار فيكون السنجقدار حامل الراية . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ . ج ٥ ص ٤٥٨ . الخالدى : المقصد ص ١٢٩ .

(١) يتركب هذا اللفظ من كلمتين : أولاهما العلم وهو لفظ فارسى معناه الراية ، والثانية دار . فيكون العلم دار هو حامل العلم . القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٨ و ج ٥ ص ٤٥٦ و ٤٦٢ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨٠ .

(٣) هذا الاسم يتركب من كلمتين : أولاهما محفة وحذفت منها التاء استثقالا ومعناها الهودج والثانية دار ومعناها ممسك . فيكون المحفدار هو الذى يمسك مقود الجمل الذى يحمل المحفة . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٧٠ .

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٣٠ .

(٥) هذا الاسم يتركب من كلمتين فارسيتين : أولاهما الجوكان (المحجن أو الصولجان) والثانية دار ومعناها ممسك ، فيكون الجوكان دار هو حامل الجوكان . ويطلق عليه العامة اسم الجكندار بحذف الواو بعد الجيم والألف بعد الكاف . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٨ . الخالدى : المقصد ص ١٢٩ Lane-Poole : The art of the Saracens, p. 31.

(٦) جاء فى تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته وعليه الشمسية . وترجم كترمير Quatremère المظلة بكلمة parasol ، ومعنى هذا المظلة الخاصة بالسيدات . ولكن الأفضل استعمال لفظ Umbrella الدال على المظلات التى يستعملها الرجال لأنها أكبر وأصلح لاستعمال الخليفة . الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٥ .

راجع فى معنى مظلة وجتر : صبح الأعشى للقلقشندى ج ٣ ص ٤٦٣ و ج ٤ ص ٧ و ٨ وكتاب السلوك للمقريزى ج ١ فى المواضع المذكورة أمام جتر فى فهرس الألفاظ الأصطلاحية وأسماء الدواوين عمل الدكتور زيادة وكتاب الصين وفنون الاسلام للدكتور زكى محمد حسن ص ٢ والتصوير عند العرب لتيمور باشا (ونشره وعلق عليه الدكتور زكى حسن) ص ٦٤ ، ٨٥ ، ١٩٥ و =

وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر مصنوع من فضة مطلية بالذهب ، وتوضع على رأس السلطان عند خروجه فى المواكب لصلاة العيدين . وقد استحدثت هذه الوظيفة فى مصر منذ عهد الدولة الفاطمية(١). وكان لا يتولاها عندهم إلا كبار الأمراء ، لأنه يعهد إلى من يتقلدها فى « حمل ما يعلو رأس الخليفة »(٢) .

أما إذا خرج السلطان للصيد ، فتصحبه جماعة خاصة على رأسها « أمير شكار »(٣) . وعمله الاشراف على الجوارح السلطانية والعناية بأمرها ، فضلا عن سائر أمور الصيد ، ويعين من أمراء المئين ثم صار يختار من أمراء الطبلخاناه(٤) .

ويشرف أمير شكار على طائفة البَازْدَارِيّة والحوَنْ دَارِيّة . والبازدار(٥) هو الذى يحمل جوارح الطير المعدة للصيد على يده . والباز أهم الطيور الضارية التى كان العرب يستخدمونها فى صيدهم(٦) . أما الحون دار فهو الذى يكلف بخدمة طيور الصيد ويحملها إلى المكان الذى تدرب فيه وأصلها « حيوان دار »(٧) .

وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد ، وهى حِرَاسة الطَّيْر . ويشرف صاحبها على حراسة الطيور فى الأماكن والمزارع التى يقصدها السلطان للصيد(٨). ويراقب الطيور التى يقوم السلطان بصيدها حتى تستقر فى مكان تألفه ، وعندئذ يحظر على الناس القرب منها أو التعرض لها . وكان لذلك يعرف باسم « حارس الطير » أو « كَاشِفُ الطير » ويختار من بين أمراء العشرات(٩).

F. Steingass : Persian — English Dictionary.

Quatremère. : Histoire des Mongols de la Perse, pp. 206 et seq.

R.L.Devonshire : An Egyptian Mameluke Feature in a persian Miniature فى مجلة Apollo (ج ١٤ عدد ٨٣ نوفبر ١٩٣١)

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٩ .

(٣) شكار : لفظ فارسى معناه الصيد . فيكون المراد « أمير الصيد » . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦١ . السبكى : معيد النعم ص ٥٢ .

Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 31. Demombynes : La Syrie. p. L X III.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ . الخالدى : المقصد ص ١٢٨ .

Zaki Hassan : Hunting as practised in Arab Countries of the Middle Ages, pp. 14-15

(٥) هذا الاسم يتركب من كلمتين أولاهما الباز وهو أحد أنواع الطيور الجوارح ومعناها ممسك . فيكون البازدار هو حامل الطير الجارح .

(٦) راجع : L. Mercier : La chasse et les sports chez les Arabes, pp. 81—104.

Zaky M. Hassan : Hunting as practised in Arab Countries of the Middle Ages, pp. 12—13.

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٦٩ ؛ — ٧٠

(٨) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ .

(٩) الخالدى : المقصد ص ١٢٨ Demombynes : La Syrie. p. I X III.

ويحمل البُنْدُقْدَار(١) جراوة البندق خلف السلطان عند خروجه للصيد ، ويقوم بهذا العمل شخصان فى بعض الأحيان(٢) .

وكان الناصر من أشهر سلاطين المماليك تعلقا بالصيد . ويعرف المكان الذى كان يجتمع فيه مع هواة الصيد باسم « الشكارخاناه » ، وبه عدد وافر من جوارح الطير . وكانت أماكن الصيد عبارة عن أحواش عديدة منتشرة فى أنحاء الديار المصرية ويشتمل كل منها على عدة شباك وصيادين . وقد عرف الصيادون بالمهارة حتى انهم كانوا يجذبون فى الضربة الواحدة ثمانمائة بطة ، وبلغ طول الشباك أحياناً مائة وعشرين ذراعاً . ولم يكن جذبها بالأمر اليسير حتى لقد كان يقوم بهذا الأمر عدد لا يقل عن ستة عشر شخصاً(٣)

* * *

ومن استعراض أسماء وظائف البلاط والحاشية التى ذكرناها ، نرى أن معظمها مشتق من كلمات فارسية ، وهذا يدلنا على أنها قد أخذت عن العباسيين الذين نقلوها عن الفرس كما نعلم . ويقول القلقشندى : « والوظائف منقولة عنها الى هذه المملكة إما مضاهاة كما فى الدولة الفاطمية على قلة ، وإما تبعاً كما فى الدولة الأيوبية »(٤) . كذلك نقلت بعض هذه الوظائف عن السلاجقة الذين كان يمتد حكمهم إلى إيران أيضا (٥) . واقتبس البعض الآخر عن التتار مثل وظيفة رأس نوبة وكان من يليها عندهم يطلق عليه اسم « يسول » (٦) .

ولم يكن جميع شاغلى هذه الوظائف من طبقة الأمراء كما قد يتبادر الى الذهن ، بل كان بعضها لا يشترط فيه لقب الامارة . وبعضها كان يتقلده موظفون من غير طبقه الأمراء . وكانت الوظائف التى يشترط فى شاغليها أن يكونوا من أمراء المئين هى : حاجب الحجاب ، أمير مجلس ، أمير خازندار الكبير ، أمير آخور الكبير . أما أمراء الطبلخانات فكانوا يشغلون وظائف : أمير جاندار ، الحاجب الثانى ، أمير شكار ، رأس نوبة الثانى ، شاد الشراب خاناه ، الخازندار الثانى . أمير آخور الثانى . وأما أمراء العشريّنات والعشرات فكانوا يشغلون وظائف الحاجب الثالث ، رأس نوبة الثالث ، استادار الصحبة . أمير آخور الثالث .

أما الوظائف التى كان يشغلها رجال من طبقة الأمراء أو من غير هذه الطبقة فمنهم :

---

(١) يتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين : أحدهما بندق ومفردها بندقية ، والثانية دار ومعناها ممسك . فيكون البندقدار هو حامل البندقية . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ .

(٢) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٣ .

(٥) راجع الصفحات المذكورة أمام مادة Seljoukide فى الـ Corpus .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١٥ . السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٩ .

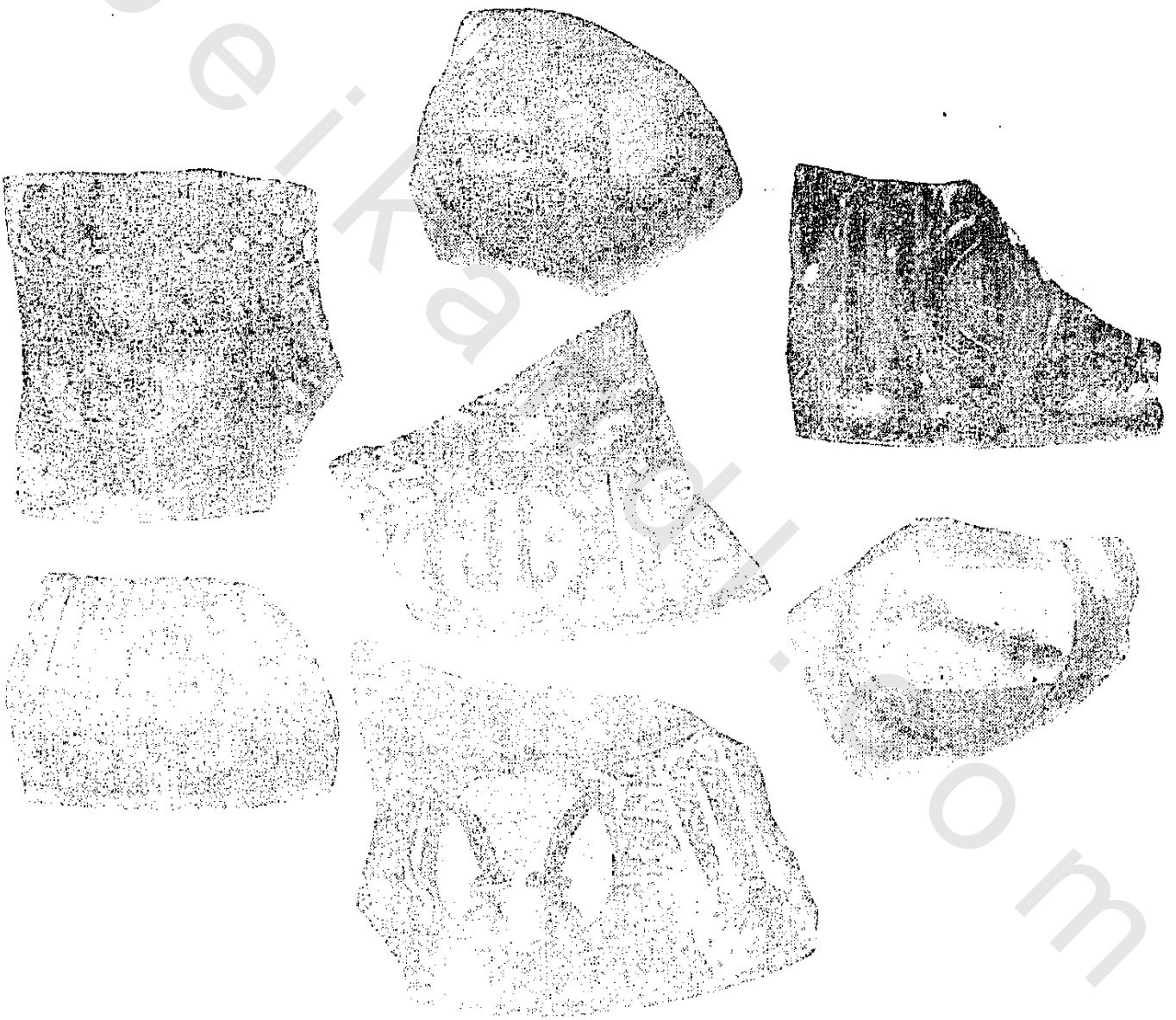

قطع من الفخار المطلى بالميناء الصفراء عليها رنوك من عصر المماليك .
محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة .

المهمندار . كما كانت هناك وظائف يشغلها موظفون من غير طبقة الأمراء وهى : أمير علم ، كاشف الطير ، شاد السواقى .

وكانت للأمراء أصحاب الوظائف أشعرة خاصة : فشعار الدوادار (السكرتير) ، المقلمة . والطست دار (المشرف على المخازن) والسلاح دار (حامل السلاح) ، السيف . والبندقدار ، السهم . والأمير آخور (أمير المعلف أو المتولى الاشراف على الاصطبلات) ، حدوة الفرس . والجمدار (المتولى امور الملابس) ، بقجة . والجاويش (أحد أربعة من جنود الحلقة ووظيفتهم السير أمام السلطان أو النائب فى مواكبه للنداء وتنبيه المارة) ، قبة مذهبة . والساقى (متولى السقاية والاشراف على الموائد) ، كأس . والجوكندار ، عصا البولو . والجاشنكير (ذائق الطعام) ، خونجة (أى منضدة) . والعلم دار (المتولى أمر أعلام السلطان) ، علم . والطبل دار ، الطبلة والعصا . والبشمقدار (حامل الأحذية) ، الحذاء . والجقدار (حامل الدبوس) ، الدبوس . والبريدى ، دائرة ذات ثلاث شطف (١).

وهذه الوظائف — برغم كثرتها — أكسبت بلاط السلاطين رونقا وبهاء وعظمة أكثر مما كانت عليه الحال قبل اعتلائهم عرش السلطنة . كما أن هذه الكثرة الملحوظة فى عدد تلك الوظائف كان لها أكبر الأثر فى تخفيف حدة الأحقاد التى كانت نيرانها تتأجج فى نفوس كبار المماليك بين آن وآخر من أجل السلطة والنفوذ ومكنتهم من إبقاء عدد كبير من الأتباع فى خدمتهم وضمنوا بذلك نصرتهم لهم فى شدتهم ورضاهم عن حكمهم .

---

(١) انظر مقالة « الزنوك المملوكية » بمجلة المقتطف ، العدد الخامس من المجلد الثامن والتسعين (مايو سنة ١٩٤١) ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .

الباب الثامن

الخلافة العبّاسية فى القاهرة

الخلفاء العباسيون فى مصر ، والسلاطين المعاصرون لهم :

(٦٥٩ — ٧٨٤ هـ ١٢٦١ — ١٣٨٢ م)

السنوات	سلاطين المماليك	الخلفاء العباسيون
٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م	المعز أيبك	المستعصم
٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م	المنصور نور الدين على	
٦٥٧ هـ = ١٢٥٧ م	المظفر سيف الدين قُطُز	
٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م	الظاهر بيبرس	
٦٥٩ هـ = ٢٢٦١ م		المستنصر بالله أبو القاسم أحمد
٦٦٠ هـ = ١٢٦٢ م		
٦٦١ هـ = ١٢٦٣ م		الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد
٦٦٦ هـ = ١٢٦٨ م		
٦٦٩ هـ = ١٢٧١ م		
٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م	السعيد بركة خان	
٦٧٨ هـ = ١٢٧٩ م	العادل بدر الدين سلامش	
	المنصور سيف الدين قلاون	
٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م	الأشرف صلاح الدين خليل	
٦٩٣ هـ = ١٢٩٤ م	الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الأولى]	
٦٩٤ هـ = ١٢٩٤ م	العادل زين الدين كتبغا	
٦٩٦ هـ = ١٢٩٦ م	المنصور حسام الدين لاچين	
٦٩٨ هـ = ١٢٩٩ م	الناصر محمد [سلطنته الثانية]	
٧٠١ هـ = ١٣٠٢ م		المستكفى بالله أبو الربيع سليمان
٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م	بيبرس الجاشنكير	

obeikandl.com

السنوات	سلاطين المماليك	الخلفاء العباسيون
٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م	الناصر محمد [سلطنته الثالثة]	
٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م		
٧٢٧ هـ = ١٣٣٠ م		
٧٤٠ هـ = ١٣٣٩-١٣٤٠ م		الواثق بأمر الله
		الحاكم بأمر الله أبو العباس احمد بن المستكفي
٧٤١ هـ = ١٣٤٠-١٣٤١ م	المنصور سيف الدين أبو بكر	
٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م	الأشرف علاء الدين كجك	
٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م	الناصر شهاب الدين أحمد	
٧٤٣ هـ = ١٣٤٢ م	الصالح عماد الدين اسماعيل	
٧٤٦ هـ = ١٣٤٥ م	الكامل سيف الدين شعبان	
٧٤٧ هـ = ١٣٤٦ م	المظفر زين الدين حاجي	
٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م	الناصر حسن [سلطنته الأولى]	
٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م		
٧٥٢ هـ = ١٣٥١ م	صلاح الدين صالح	
٧٥٣ هـ = ١٣٥٢ م		المعتضد بالله أبو الفتح أبو بكر المستكفي
٧٥٥ هـ = ١٣٥٤ م	الناصر حسن (سلطنته الثانية)	
٧٦٢ هـ = ١٣٦١ م	المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	
٧٦٣ هـ = ١٢٦٢ م		المتوكل على الله أبو عبد الله محمد
٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م	الأشرف زين الدين شعبان	
٧٧١ هـ = ١٩٦٩-١٣٧٠ م		
٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ م	المنصور علاء الدين علي	
٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م		
٧٨٠ هـ = ١٣٧٨ م		
٧٨٢ هـ = ١٣٨١ م	الصالح زين الدين حاجي	

obeikandl.com

الخلافة العباسية فى القاهرة الى أيام الناصر محمد المرسوم :

خدم بيبرس السلطنة المملوكية خدمة لا مثيل لها عند ما أقام الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ هـ ، إذ أصبحت مصر مقر الخلافة ومركز الرآسة العامة على المسلمين ، وأفادت السلطنة المملوكية من ذلك المركز فائدتين هما : أن سلاطين المماليك من بيبرس فصاعداً ظهروا أمام العالم الإسلامى حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء ، وأن السلطنة المملوكية كسبت شرعية ما كانت لتكسبها من أى مصدر آخر .

والسلطان الظاهر بيبرس — على الرغم من أنه كان أول من نجح فى اجتذاب الخلفاء العباسيين إلى القاهرة — لم يكن أول من فكر فى هذا ، فقد حاول ذلك قبله بعض ولاة مصر الاسلامية كأحمد بن طولون الذى أراد فى سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢م) أن يكسب حكمه صفة شرعية باجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر هرباً من الموفق الذى كانت له السلطة العليا فى الجيش والحكومة والذى اغتصب السلطان حتى لم يبق للخليفة منه شىء . وطبيعى أن وجود الخليفة فى وادى النيل كان من شأنه أن يزيد نفوذ ابن طولون . ولو نجح هذا المشروع لتغير إلى حد كبير مستقبل الخلافة ومستقبل مصر . ولكن المعتمد لم يفلح فى الهرب إلى مصر إذ قبض عليه عيون أخيه الموفق وأرجعوه إلى عاصمته شبه سجين(١). كذلك فكر محمد بن طغج الأخشيد حين ذهب إلى الشام سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م) لإنجاد الخليفة المتقى من جور الحمدانيين بالموصل ، واستبداد الأتراك الذين تنازعوا على الاستئثار بالسلطة فى بغداد(٢).

وعمد السلطان قطز إلى تحقيق هذه الفكرة نفسها سنة ٦٥٧ هـ . فانه لما قدم إلى دمشق بعد انتصاره على التتر فى واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، أخبره الأمير عيسى بن مهنا أن أميراً عباسياً يدعى أبا العباس أحمد(٣) قد وصل أخيراً إلى دمشق، فقال له قطز: «إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله »(٤) ويقال إن قطز بايع هذا العباسى بالفعل وهو فى دمشق(٥). وفى هذا كله ما يدل على سبق هذا السلطان إلى فكرة نقل الخلافة العباسية إلى القاهرة(٦).

---

(١) زكى حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ١٨ — ١٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : Relations between Egypt and the Caliphate. pp. 9—10, 15. Extract from the Bulletin al-'Ulùm, Cairo, jan. Febr., 1940.

(٣) اختفى هذا الأمير فى أثناء هجوم التتر على بغداد ، ثم تمكن من الفرار وأقام عند حسين بن فلاح أمير بنى خفاجة ، ثم ذهب إلى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٤) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٩٣ . ابن ايبك : كنز الدر ج ٨ القسم الثالث ص ٧٦ .

(٥) السيوطى : نفس المصدر ص ٣١٨ .

(٦) يقال ان الملك الناصر يوسف صاحب دمشق أراد إحياء الخلافة العباسية قبل أن يفكر قطز فى ذلك ، فانه ما كاد يعلم من الأمير عيسى بن مهنا أن أميرا عباسيا (وهو أبو العباس احمد) قدم إلى =

ثم آلت سلطنة مصر بعد قطز إلى السلطان الظاهر بيبرس ، فأخذ فى السنة التالية من توليته عرش مصر يعمل على إعادة الخلافة العباسية إلى مكانتها الأولى ، على أن يكون مقرها القاهرة .

وقد اضطر بيبرس إلى التعجيل باحياء الخلافة بمصر ، ليجعل منها سنداً للسلطنة المملوكية ، ومهما قيل فيما نالته هذه السلطنة من توفيق فى الحوادث الداخلية والخارجية ، فقد كانت لاتزال بحاجة إلى دعامة قوية تجعلها مهيبة الجانب . ولا غرو فقد كان الأيوبيون فى مصر والشام يعملون للاستيلاء على مصر ، كما أن التتار ، على الرغم مما أحرزه قطز من الانتصارات الباهرة عليهم ، كانوا لا يزالون يهددونها بالغزو ، والصليبيون يدأبون على مناوأتها والعمل على طرد المماليك منها ، أضف إلى ذلك أن البلاد الشامية كانت أشبه بعدة ممالك يتنازعها الصليبيون والتتار الذين احتلوا جزءاً عظيما منها .

لذلك لا نعجب إذا رأينا بيبرس يعمد إلى إحاطة عرشه بسياج من الحماية الروحية ، يقيه شر أعدائه من الصليبيين والتتار ، وشر الطامعين فى ملك مصر من أمراء الشام ، ويبعد عنه كيد منافسيه من أمراء المماليك بمصر ، الذين أيقنوا أن الوصول إلى العرش لا يأتى إلا عن طريق الدسيسة والغدر .

هذا إلى أن بيبرس كان يرمى من وراء احياء الخلافة العباسية بمصر إلى هذا الغرض ، وهو أن تنظر إليه الشعوب الاسلامية الأخرى نظرة حامى الاسلام(١) ، كما رأى أن إقامة خليفة من السنيين من شأنه أن يؤدى حتما إلى القضاء على هذه المحاولات التى بذلها الشيعيون لاعادة الخلافة الفاطمية قبل أن يستفحل خطرها(٢). كذلك رأى أن وجود الخليفة العباسى فى القاهرة ، وهو مصدر السلطات فى العالم الإسلامى كله ، يجعل « سلطان » المماليك فى مرتبة أعلى من سلاطين البلاد الإسلامية الأخرى ، بل لايحق لهؤلاء الحكام بعدئذ أن يتخذوا لقب سلطان ، لأن هذا اللقب إنما منح لبيبرس من الخليفة ، الذى يُعد فى نظرهم ظل الله فى الأرض.(٣)

ولم يكن غرض بيبرس من إحياء الخلافة فى مصر دينياً فحسب ، بل كان يرمى من وراء ذلك أيضاً إلى بسط سلطانه بمعاونة الخليفة العباسى وتأييده ، على البلاد المجاورة لمصر(٤)، وبخاصة بلاد الحجاز ليقوى بذلك مقام مصر الأدبى فى نظر المسلمين حتى يرفرف لواؤها على الحرمين الشريفين ، وليؤمن حدود مصر الشرقية ويمدها إلى نهر الفرات(٥).

= دمشق حتى أرسل يستدعيه . غير أنه فوجىء بقدوم التتار ، فعاد الأمير ثانية إلى عيسى بن مهنا . السيوطى : نفس المصدر ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(١) Lane--Poole : Egypt In the Middle Ages, pp. 264—265.

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 14—15.

(٣) Arnold : The Caliphate. p. 99.

(٤) حسن ابراهيم حسن : Relations between Egypt and The Caliphate.

(٥) Wiet ; Précis de l' Histoire d' Egypte, tome II. p. 250 .

فى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) استدعى بيبرس الأمير أبا العباس أحمد الذى كان قطز بايعه فى دمشق[١]، غير أنه لم يحضر ، وسبقه الأمير أبو القاسم أحمد إلى القاهرة ، بعد فراره من وجه التتار المتغلبين على بغداد . فقد ذكر المقريزى أنه نزل بالعراق ثم رحل إلى دمشق ، فكتب إلى بيبرس الأميران علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق وعلاء الدين أيدكين البندقدار كتاباً يذكران فيه أن رجلا وصل إلى دمشق يدعى أنه أحمد ابن الإمام الظاهر ابن الامام الناصر العباسى ومعه جماعة من عرب خفاجة . فكتب إليهما السلطان يوصيهما به خيراً كما « كتب إلى النواب بالقيام فى خدمته (كذا) وتعظيم حرمته ، وأن يسير معه حجاب من دمشق »[٢].

وصل أبو القاسم أحمد[٣] إلى القاهرة فى ٨ رجب سنة ٦٥٩ هـ فأعد السلطان العدة لاستقباله ، وخرج للقائه ، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا وقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وجميع الأمراء والجند وأعيان القاهرة ومصر والعلماء والمؤذنون والشهود واليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الانجيل ، وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته . ولما وقع نظر الظاهر بيبرس على هذا الأمير العباسى ترجل إجلالا وتقدم فعانقه . ثم ركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس[٤] ، وركب معه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا إلى

---

(١) ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢١٨) أن هذا سار فى جماعة من أمراء العرب ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار ، وانتصر على التتار ، ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشق ليذهب إلى الملك الظاهر ، غير أنه امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن أميراً عباسيا آخر قدم اليها ورجع إلى حلب ، فبايعه صاحبها شمس الدين البرلى .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٤٧.

(٣) هو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبى نصر بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى ، وهو عم الخليفة المستعصم ، وأخو المستنصر . وقد لقبه العامة باسم الزراتيتى (تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢١٣ . كتاب المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨) . كما عرف كذلك باسم الزرابينى (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٢) . ولقبه ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ١٥٠) باسم « المستنصر بالله الاسود » . وقد وصف المقريزى (نفس المصدر والجزء ص ٤٥١) وابن اياس (بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٠) هذا الخليفة بالسمرة . ولعل كل ذلك هو الذى رجح لدى الدكتور زيادة (مقالته المنشورة بمجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع ، الجزء الاول ص ٨٦) أن يكون المقصود من لفظ الزراتيتى أو الزرابينى هو اللفظ العامى « زربون » المستعمل فى مصر للدلالة على الشخص الاسود .

(٤) شعار العباسيين هو السواد . وقد أوضح القلقشندى (صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٠) السبب فى اتخاذ العباسيين السواد شعاراً لهم ، فقال إن النبى صلى الله عليه وسلم « فى يوم حنين ويوم الفتح عقد لعمه العباس رضى الله عنه راية سوداء . وقيل أيضاً إن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حين أراد قتل ابراهيم الامام بن محمد العباسى قال لشيعته : لا يهولنكم قتلى ، فاذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أبا العباس (السفاح) . فلما قتله مروان لبس شيعته عليه السواد فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم » . =

القلعة(١). وهنا « تأدب السلطان الظاهر ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسى »(٢) بحضرة الخليفة

وفى يوم الاثنين ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) عقد الظاهر بيبرس مجلسا فى قاعة الأعمدة بالقلعة دعا اليه القضاة والعلماء والأمراء ، وشيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام وسائر أرباب الدولة ، والعرب الذين قدموا الى مصر مع أبى القاسم احمد (٣) ، وذلك : « لاثبات نسبه وتقرير بيعته ، لأن الخلافة قد شغرت منذ مقتل المستعصم بالله . فسُرّ السلطان باتصال أسبابها وتجديد أثوابها وإقامة منارها وإظهار شعارها ، لتكون ثابتة الأساس متصلة فى بنى العباس ، كما سبقت الوعود النبوية بأنها تالدة خالدة فى هذه الذرية » (٤) .

ولما انتظم عقد المجلس جلس بيبرس بين يدى الامام أبى القاسم احمد ، واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد ، « وسئلوا عنه فى ذلك المجلس : هل هذا هو الامام احمد بن أمير المؤمنين الظاهر محمد بن الناصر احمد ؟ فأجابوا بنعم . وشهد جماعة بالاستفاضة عند القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز بذلك » . فأقر ذلك أيضا بعض الفقهاء والقضاة ، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة (٥) . ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر بيبرس وبايعه « على كتاب الله وسنة رسول الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ الأموال بحقها ، وصرفها فى مستحقها » (٦) . وبايعه بعد السلطان شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء ، وكبار رجال الدولة ، ثم الناس على اختلاف طبقاتهم وتلقب أبو القاسم احمد بلقب « الخليفة المستنصر بالله » (٧) .

= انظر كتاب السيادة العربية والتشيع والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٢٤ — ٢٢٦ .

(١) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ القسم الأول ص ٦٣ . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٤٩

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٦٠٥ .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٩ .

(٥) أجمع المؤرخون على نسبة الخليفة المستنصر بالله إلى الخلفاء العباسيين ، فلم يشك فى انتمائه إلى بنى العباس : بيبرس الدوادار (نفس المصدر جـ ٩ ورقة ١٩ — ٢٠) والنويرى (نهاية الأرب جـ ٢٨ القسم الاول ص ١٨ — ٢٠) والمقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ — ٣٠٢ . كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٤٩ — ٤٥٠) وأبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١٠) والسيوطى (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤٤ وتاريخ الخلفاء ص ٣١٧) وابن اياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠١) والخالدى : المقصد ص ٥٥ . غير أن أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢١٢ — ٢١٣) لم يقطع بصحة هذا النسب حين ذكر « أنه [فى سنة ٦٥٩ هـ] قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد وزعموا أنه الامام الظاهر ابن الامام الناصر » .

(٦) بيبرس الدوادار : نفس المصدر جـ ٩ ورقة ٢٠ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٥٠ .

(٧) يعد الخليفة المستنصر بالله الثامن والثلاثين من خلفاء بنى العباس ، وصار بينه وبين العباس =

ولما تمت البيعة قلد الخليفة المستنصر بالله السلطان ، الملك الظاهر البلاد الاسلامية ، وما ينضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار [١] ، وكتب السلطان الى النواب والحكام فى سائر الولايات التابعة لمصر بأخذ البيعة للخليفة المستنصر بالله ، والدعاء له فى خطبة الجمعة على المنابر ، والدعاء للسلطان من بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما . ثم دعاه السلطان ليخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة . فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء ، وخطب الخليفة أبو القاسم احمد خطبة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى رد الخلافة الى بنى العباس استهلها « بقراءة سورة الأنعام ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وترضى عن الصحابة وذكر بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر » [٢] فامتدح الناس خطبة الخليفة ، وزادت عناية السلطان به .

وفى ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وكبار رجال الدولة إلى خيمة أقيمت خارج القاهرة ، وهناك ألبس الخليفة السلطان الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة ، وهى : عمامة سوداء مذهبة مزركشة [٣] ، وجبة حرير سوداء [٤] ، ودراعة بنفسجية اللون [٥] ، وطوق ذهب ، وقيد من ذهب وضع فى رجليه ، وسيف [٦] ، ولواءان منشوران على رأسه ، وسهمان كبيران ، وترس ، وقدم له فرس أشهب [٧] ، فى عنقه مشدة [٨] سوداء ، وعليه كنبوش [٩] أسود . وعلى أثر ذلك عقد

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠١ .

(٣) كان أول من لبس العمامة السوداء النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم لبسها جماعة من الصحابة ، وتبعهم الخلفاء العباسيون . وهى عبارة عن عمامة مدورة ، من حرير ، بعذبة قدر ذراع ، ترسل بين الكتفين . القلقشندى . صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٦ . الخالدى : المقصد ص ١٣١ .

(٤) كان أول من لبس هذه الجبة من الصحابة عبد الله بن العباس ، وتوارث الخلفاء العباسيون لبسها .

(٥) الدراعة : جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من صوف .

(٦) قدم الخليفة للملك الظاهر عدة سيوف تقلد واحداً منها ، وحمل الباقى وراءه . وهو سيف ينسب تجميله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يتقلده من أعلى كتفه الأيمن كالعرب . وأول من تقلده بمصر الملك الظاهر بيبرس . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٥٢ . الخالدى : المقصد ص ١٢٢ .

(٧) هذا الفرس هو الذى عرف باسم فرس النوبة ، وصار تقديم مثله منذ ذلك الحين لكل سلطان جديد قاعدة اطردت فى عصر المماليك .

(٨) الشد عند العامة شال من الحرير يعتم به أو يتمنطق . والمشدة مرادفة للفظ الرقبة . وكون المشدة سوداء راجع إلى رغبة السلطان بيبرس فى احياء شعائر العباسيين وهو السواد . الدكتور زيادة .

(٩) الكنبوش : البردعة تجعل تحت سرج الفرس ، يقابلها لفظ housse الفرنسى وهو غاشية الفرس . الدكتور زيادة .

اجتماع تلا فيه فخر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الانشاء — تفويض الخليفة العباسى الملك الظاهر بيبرس (١) ، وذلك تقوية لعرشه على أعدائه من أمراء المماليك . واثباتاً لأحقية المماليك فى تولى شئون مصر . وسنرى أن الخليفة قد تصور نفسه فى هذا التفويض حاكماً على أراض لم تحكمها الدول العباسية منذ قرون ، بل ادعى لنفسه السيادة الشرعية على العالم الاسلامى ، مع أنه لم يكن له بيت مال يعتمد على موارده ، ولا تحت تصرفه جيش ينفذ أوامره ويحقق رغباته . كما أنه تدخل — وهو غريب عن المماليك — فى الأمور الادارية التى هى من اختصاص الحكومة المصرية القائمة على أساس النظام البيروقراطى (٢) .

ولما فرغ فخر الدين بن لقمان من قراءة هذا التفويض سار السلطان وعليه الخلعة(٣) ، يتقدم موكب السلطنة ، عائداً الى القاهرة حتى وصل إلى باب النصر ، ثم سار فى طريق مفروش بالبسط يمتد من باب النصر إلى القلعة ، ومر بشوارع القاهرة الرئيسية ؛ وتقدم السلطان الموكب ، وتلاه الخليفة ، فالوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه . وتبعهم الأمراء وسائر الناس مشاة . وقد سادت ذلك الموكب مظاهر الابتهاج والانشراح ، واصطف الناس على جانبى الطريق يكبرون ويهتفون ، « وضجّ الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره وأن يخلعها خلع الرضا إلى أن خرج من باب زويلة ، وسار الى القلعة . فكان يوماً مشهوداً تقصر الألسنة عن وصفه (٤) » .

وإن دعاء الشعب للسلطان بخلود أيامه وإعزاز نصره ، وهذه الخلعة التى قال عنها بيبرس الدوادار أنها « خلعت من العداة قلوبهم »(٥) ليدلنا على أن هذه الخلعة التى أفيضت على الظاهر بيبرس قد ساعدت إلى حد بعيد على تثبيته على عرش السلطنة ، وباعدت بين العدو الطامح وبين تحقيق آماله فى الوصول إلى العرش ، بل كان لها فى نفوس عامة الشعب تأثير روحى . وهذا كله قد ساعد على إخماد الاضطرابات وتسكين الفتن التى نوى أمراء هذا العصر القيام بها فى حكم بيبرس ، وكتم الأحقاد التى كانت تغلى بها صدورهم كالمرجل

كذلك كان لأنواع الملابس التى ظهر بها الخليفة فى الموكب أثر بالغ فى محبة الشعب

---

(١) اقرأ نص هذا التفويض فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١١٢ — ١١٦ .

(٢) Arnold ; The Caliphate. p. 94.

(٣) كان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول من ركب من سلاطين مصر بخلعة الخليفة . وكان الظاهر بيبرس أول من ركب بها من سلاطين المماليك . كما كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون آخر من ركب بشعار السلطنة وخلعة الخليفة والتقليد عند رجوعه الى القاهرة من بلاد الشام بعد فرار السلطان لاچين من الديار المصرية سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨) . المقريزى . الخطط ج ٢ ص ١٠٧ — ١٠٨ . انظر أيضا الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٤) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٥٧ .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٥ ورقة ٢٤ .

لشخص بيبرس والالتفاف حول عرشه . فقد ظهر الخليفة المستنصر بالله فى ذلك اليوم لابساً البردة(١)، وعلى رأسه عمامة ، وكان حاملا القضيب(٢).

وبعد أن خرج الموكب من باب زويلة ، سمح للأمراء بالركوب ؛ واستمر الموكب فى سيره حتى وصل إلى القلعة . وهناك جلس بيبرس على عرش ملكه(٣). ثم أمر بالاحتفاء بهذا اليوم الميمون فمد سماط(٤) فخم جلس إليه الأمراء والقادة وسائر رجالات الدولة . وهكذا تمت مراسيم اعتلاء بيبرس عرش السلطنة المصرية بصفة رسمية ، تؤيدها الصفة الشرعية التى نالها من قبل الخليفة ، فأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه فى الداخل والخارج . وازدهرت الخلافة العباسية فى مصر ، بعد أن قضى عليها سنة ٦٥٦ هـ . وباحيائها أحاط بيبرس عرشه بسياج من القداسة والتبجيل .

عزم السلطان بعد ذلك على إعادة الخليفة إلى بغداد . ولم يتضح تماما الغرض الذى كان يرمى إليه هذا السلطان من ذلك . فذكر بعض المؤرخين أن ذلك كان « قصداً منه فى تقرير ما تغير من القواعد وإعادة الأحوال بدار السلام وممالك الاسلام على العوايد »(٥). وذكر البعض الآخر أن بيبرس قد شك فى قيمة ما أقدم عليه من الترحيب بأحد أبناء البيت العباسى فى عاصمة ملكه وإقامة خلافة عباسية فى مصر(٦).

---

(١) البردة : هى بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، التى اعتاد الخلفاء لبسها فى المواكب . وهى شملة مخططة ، وقيل كساء أسود مربع فيه صغر . وقد اختلف فى وصولها إلى الخلفاء : فقيل إن النبى قد وهبها لكعب بن زهير حين امتدحه بقصيدته التى أولها : بانت سعاد ، ثم اشتراها معاوية بن أبى سفيان منه أو من ورثته بعشرين ألف دينار . وقيل إن النبى أعطاها أهل أيلة أمانا لهم ، فأخذها منهم عبد الله ابن خالد بن أوفى عامل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية على أيلة ، وبعث بها إليه ، فظلت فى خزائنه حتى آلت إلى أبى العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) بقى القضيب والبردة عند خلفاء بنى العباس ببغداد إلى أن انتزعها السلطان سَنْجَر السلجوقى من الخليفة المسترشد بالله ، ثم أعادها إلى المقتفى بالله عند توليته الخلافة سنة ٥٣٥ هـ ، فاحتفظ بهما من جاء بعده من خلفاء بنى العباس حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ هـ . القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٠ Demombynes : La Syrie, p. XXI.

(٣) عرش الملك أو سرير الملك هو من رسوم الملك وآلاته ، متخذ من رخام . وأول من اتخذ ذلك فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان ، ثم اتخذه من جاء بعده من خلفاء بنى أمية وبنى العباس . وصار مكانه فى عهد المماليك بقلعة الجبل بالإيوان ، وبلغ ارتفاعه سبعة أذرع . القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٦ . الخالدى : المقصد ص ١٢٢ .

(٤) السماط هو المائدة الملكية . انظر وصف الأسمطة السلطانية على النحو الذى كانت عليه زمن المماليك فى المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٢١٠) .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٢٦ .

(٦) Arnold : The Caliphate, p. 94.

وكان بيبرس قد عزم على أن يرسل مع الخليفة عشرة آلاف فارس ويجهزه بالمال والسلاح ، لمعاونته فى إعادة الخلافة العباسية وإقامة نفسه خليفة فى بغداد . وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق ، غير أن أحد أمراء الموصل أسر إلى السلطان أن يعدل عن هذا الرأى وقال له : « إن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر »(١). فخاف بيبرس عاقبة هذا الأمر ، ولم يجهز الخليفة إلا بثلثمائة فارس سار على رأسهم إلى بلدة الرحبة الواقعة على نهر الفرات ، حيث انضم إليه أربعمائة فارس من عرب العراق الذين لجأ إليهم عقب هربه من بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم ، وتقدم الخليفة إلى مشهد علىّ ، حيث التقى بأبى العباس أحمد يقود سبعمائة فارس من التركمان ، فاتفقا معاً على إعادة الخلافة العباسية فى بغداد ، واتجها نحو الحديثة الواقعة على نهر الفرات يريدان هيت حيث أحاطت بهم جنود التتار وهزموهم وقتلوا معظمهم ، ولم ينج منهم سوى الأمير أبى العباس أحمد ونحو الخمسين فارساً(٢). أما الخليفه أبو القاسم أحمد فلم يقفوا له على أثر .

وصل بيبرس الى مصر فى ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٩ هـ ، فلما علم بمقتل الخليفة المستنصر بالله تأسف غاية الأسف ، لأن ما بذله فى سبيل اقامة خلافة عباسية فى القاهرة « قد راح فى البارد » على حد تعبير ابن اياس(٣). وحزن بيبرس على مقتل الخليفة إذ لم يستفد من ارساله لاسترداد بغداد سوى ضياع الأموال التى بذلها فى سبيل إعداد هذه الحملة والتى قدرها كل من ابن الوردى وأبى الفداء بنحو مليون دينار (٤) . كما أن بيبرس بقتل هذا الخليفة قد فقد الأمل فى استمرار قيام خلافة عباسية فى مصر ، تجعل سلطانه وسلطان خلفائه شرعيا . ولكن سرعان ما تبددت همومه وسنحت له الفرصة باحياء الخلافة العباسيه فى مصر فى شخص أبى العباس احمد الذى كان قد بايعه قطز فى دمشق واستدعاه بيبرس عند جلوسه على العرش . ولكن أبا القاسم احمد كان قد سبقه الى مصر كما تقدم .

شَهِد أبو العباس أحمد(٥) موقعة هِيت التى قُتِل فيها الخليفة المستنصر بالله وقصد بعد ذلك عيسى بن مهنا ، فكاتب الظاهر بيبرس فى شأنه ، فأمر السلطان بارساله إلى القاهرة . « فلما كان الثانى من المحرم من هذه السنة (٦٦١ هـ = ١٢٦٢ م) أحضره السلطان ليقرر له الامامة ويبايعه على الخلافة ، بحكم وفاة المستنصر بالله شهيدا بسيوف التتار ، قتيلا بأيدى الكفار ،

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ القسم الثالث ص ٧١ — ٧٥ . المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٥٨ الخالدى : المقصد ص ٥٦ .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٢ وهذه العبارة تدلنا على أن بيبرس كان جادا فى إحياء الخلافة العباسية فى مصر ، وأنه كان فى نيته استمرارها . ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢١٣ .

(٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٣ .

(٥) أورد السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ ترجمة دقيقة لأبى العباس احمد .

فلم يرد أن يبقى منصب الخلافة شاغراً وفوها فاغرا » (١) . وأحضر السلطان أبا العباس أحمد راكبا إلى الايوان الكبير بقلعة الجبل ، حيث أجلسه ، وجلس بجانبه ، وقرىء نسبه (٢) — بحضور القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة — بعد ما ثبتت صحة هذا النسب لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الذى بايعه من فوره . ثم بايعه السلطان على العمل بكتاب الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الى آخر الصيغة التى ذكرت فى بيعة الخليفة ابى القاسم أحمد المستنصر بالله . فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد وجعل اليه «تدبير الخلق وإقامة قسيمة فى القيام بالحق وفوّض إليه سائر الأمور وعدق به صلاح الجمهور » (٣) . بعد ذلك بايعه الوزير ، فالأعيان ، فالناس على اختلاف طبقاتهم ، ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (٤) . ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها (٥) وأن يقدم اسم الخليفة فى الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه ورتّب له ما يكفيه كل يوم هو وأولاده (٦) . وفى يوم الجمعة ١٠ المحرم سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) خطب الخليفة وصلى بالناس بالقلعة ، ثم ألقى خطبة ثانية (٧) . وفى الخطبتين ذكر الجهاد والامامة وتعرّض إلى ما حدث من زوال الخلافة العباسية وفضل الظاهر بيبرس فى إقامتها بعد زوالها .

على أنه يظهر لنا أن السلطان الظاهر بيبرس بدأ يفكر فى تلك الآونة فى استمرار قيام الخلافة العباسية بمصر ، إذ أنه لم يفكر بعد مبايعة الحاكم بأمر الله فى إعادة الخلافة العباسية فى

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٣٥ .

(٢) أورد بيبرس الدوادار (نفس المصدر ج ٩ ورقة ٣٥) سلسلة نسب آبى العباس كاملة إلى عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . أما العمرى (مسالك الأبصار ج ١٦ القسم الثالث ص ٦٠٨ — ٦٠٩) وأبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٥) فقد أوضحا انه كان هناك اختلاف فى نسبه حيث قالا : فالذى هو مشهور بمصر عند نسابة مصر انه احمد بن حسن بن ابى بكر ابن الأمير ابى على القبى ابن الأمير حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر . وأما عند الشرفاء العباسيين السلمانين فى درج نسبهم الثابت فقالوا هو احمد بن ابى بكر على بن ابى بكر احمد ابن الامام المسترشد الفضل بن المستظهر .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤١٠ . المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٧٧

(٤) كان عمر بن الخطاب أول من تلقب بهذا اللقب لما فيه من معنى السلطتين الحربية والادارية ومعنى ذلك اللقب أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة وأن الخليفة قد صار أميرا لهذه القوة . لأن « الأمير » عند العرب فى الجاهلية كان يقصد به « قائد الجيش » . وكان الخلفاء العباسيون فى مصر يلقبون بلقب « إمام » و « أمير المؤمنين » .

(٥) خطب للحاكم بأمر الله فيما بعد على منابر دمشق ومكة والمدينة وبيت المقدس .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٢ .

(٧) اقرأ نص الخطبتين الأولى والثانية فى ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤١٠ — ٤١١

بغداد كما فعل مع سلفه المستنصر بالله . هذا إلى أنه رحب بجماعة من عمالك الخليفة المستعصم كانوا قد فروا إلى الحجاز من وجه التتر وبعض شيوخ عرب العراق ، وكانوا قد كاتبوا بيبرس يستأذنونه فى الحضور إلى مصر فسمح لهم . وإن رغبة هذه الطوائف فى الاقامة بمصر تبين لنا بأجلى بيان أن العباسيين كانوا يعدون مصر مكاناً أميناً يلجأون إليه ويتخذونه داراً لاقامتهم .

كما أنه يظهر لنا أنه كان هناك تنافس بين أبناء البيت العباسى الفارين من وجه التتر على الوصول إلى عرش الخلافة ؛ فقد رأى بعض هؤلاء أنهم أحق بها من الحاكم بأمر الله . يتضح ذلك من قدوم رجلين إلى بيبرس سنة ٦٦٤ هـ حين كان بغداد ، أحدهما ادعى أنه مبارك ابن الخليفة المستعصم ، والثانى ادعى أنه من أولاد الخلفاء ، يريدان بذلك إثبات أحقيتهما فى الخلافة دون الحاكم بأمر الله . وقد أجمع المؤرخون على أن بيبرس قد أرسل هذين الرجلين إلى مصر لبحث هذه الدعوى ، فاتضح له كذبها وأمر بحبسهما (١) .

وبعد أن صار الحاكم خليفة أنزله بيبرس بالبرج الكبير داخل قلعة الجبل (٢) ، موسعاً عليه فى النفقات والكساوى ، يتردد إليه العلمـــاء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الاكرام ، وملاحظة جانب الاجلال والمهابة » (٣) .

وقد قصر بيبرس سلطان هذا الخليفه على الأمور الدينية دون سواها وضيق حدود سلطته حتى جعلها لا تتعدى ذكر اسمه فى الخطبة فى مصر والأقطار التابعة لها (٤) . وقد شملت مدة خلافة الحاكم بأمر الله عهود السلاطين بيبرس وأبنيه بركة خان وسلامش وقلاوون وابنيه خليل والناصر محمد (فى عهد سلطنته الأولى) وكتبغا ولاجين والناصر محمد (فى عهد سلطنته الثانية) ، وظل فى الخلافة حتى توفى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) . فكانت مدة خلافته أربعين سنة ، وهو أول من دفن بمصر من الخلفاء العباسيين . وظل الخليفة الحاكم بأمر الله مقيما كالسجين بالبرج الكبير فى قلعة الجبل منذ سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) إلى سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١ م) أى مدة ثلاثين سنة . وظل لا يجتمع بأحد من أهل الدولة إلى أن أفرج عنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وأعاد إليه خطبة الجمعة ، وكان قد حرم حتى من القيام بهذا الواجب (٥) . ثم عهد

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) كنز الدرر جـ ٨ القسم الأول ص ٧٥ و ٨٣ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١٨ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤٨ .

(٤) وبذلك قلل بيبرس نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله مع أنه أمر بنقش اسم سلفه الخليفة المستنصر بالله على السكه .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٨٨ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤٨ .

إليه بالدعوة إلى الحث على قتال التتار واستخلاص بلاد العراق من أيديهم [١] . وفى عهد السلطان لاچين نقل الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٦٩٦ هـ من البرج الكبير بالقلعة إلى القصر المعروف باسم « مناظر الكبش » التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب حول سنة ٦٤٠هـ على جبل يشكر بجوار جامع ابن طولون وأصبحت بعده من المنازل الملوكية . وأذن له بالخروج من القصر للنزهة كيفما شاء ، كما سمح له بأن يخطب يوم الجمعة بجامع القلعة وصار يركب مع السلطان فى المواكب ثم أذن له بالذهاب إلى القلعة مرة فى كل شهر ليهنىء السلطان بحلول الشهر الجديد [٢] .

وقد سار هؤلاء السلاطين إزاء الخليفة الحاكم بأمر الله على خطة السلطان الظاهر بيبرس ، فلم يجعلوا للخليفة شيئاً من السلطة وأصبح كل عمله إسباغ الصبغة الدينية على السلاطين لتوطيد دعائم مُلكهم . واتخذ السلاطين المماليك لقب « قسيم أمير المؤمنين » الذى يشهد بمشاركة السلاطين المماليك فى نفوذ الخلفاء أو بمعنى أوسع باستيلائهم على هذا النفوذ . وجدير بنا فى هذه المناسبة أن نذكر أن صلاح الدين بعد كل أعماله الجليلة فى القضاء على مذهب الشيعة وفى نشر المذهب السنى لم يستطع أن يحصل من الخلافة العباسية فى بغداد — وكان الانحطاط قد دَبّ إليها — إلا على لقب « محيي دولة أمير المؤمنين » [٣] الذى كان الخليفة العباسى فى بغداد يمنحه لبعض سلاطين السلاچقة . وظاهر أن هذا اللقب على ما فيه من عظمة وجلال لا يفيد المشاركة فى شىء .

الخلافة العباسية فى مصر منذ عهد عصر الناصر إلى نهاية الدولة :

فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) أوصى الخليفة الحاكم بأمر الله — بحضور القضاة — بولاية العهد من بعده لابنه ابى الربيع سليمان ، وتوفى الحاكم بعد ذلك بيومين ، فاستشار السلطان الناصر قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد فى أمر توليه سليمان الخلافة بعد أبيه فأفتى بصلاحيته . وعلى أثر ذلك استدعى السلطان أبا الربيع سليمان [٤] إلى القلعة وعقد مجلساً حضره القضاة والأمراء وبايع أبا الربيع بالخلافة ولقبه المستكفى بالله [٥] . وهنا نلاحظ أن الخلافة فى مصر أصبحت منحة يمنحها السلطان لمن يشاء ويصرفها عمن يشاء .

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ القسم الثالث ص ١٤٧ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٢

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 88—84

(٤) أورد العينى (عقد الجمان ج ٢٣ القسم الثانى ص ٣٨) سلسلة نسب الخليفة أبى الربيع سليمان المستكفى بالله ابن الخليفة أبى العباس احمد الحاكم بأمر الله كاملة إلى عبد المطلب بن عبد مناف أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام .

(٥) اقرأ نص هذه البيعة فى السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ — ٥٠

وعقب ذلك أقر الخليفة المستكفى بالله أنه « ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والده وفوضه اليه » (١) أى أنه منح السلطان الناصر تفويضاً بحكم البلاد .

ثم أمر السلطان الناصر بأن يقيم المستكفى فى قصر الكبش وبأن يمنح ما كان مقرراً لوالده الحاكم من الرواتب (٢) . كما حدد له اختصاصاته على نحو ما كان متبعاً فى أيام أبيه ، فأمر بأن يخطب له فى الجوامع وأن ينقش اسمه على الدينار والدرهم (٣) . ومن الغريب حقا أن الناصر كان يعلم تمام العلم أن اسم الحاكم لم ينقش قط على السكة مع أن بيبرس منحه هذا الحق ولكن الناصر برغم ذلك رأى إظهار احترامه للخليفة المستكفى بن الحاكم بتقرير تمتعه بهذا الأمر الصورى .

أقام الخليفة المستكفى بالله بمناظر الكبش حتى نقل إلى القلعة فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) . ومنذ ذلك الحين سكن الخليفة بالقلعة حيث أقام أبوه الحاكم من قبل . ولكن الناصر حد بعد ذلك من حريته « ورسم على الباب جاندار كالنوبة . . ومنع عن الاجتماع بالناس ، كل ذلك لأمر قيل (٤) » . ولتفسير الدافع الذى حدا بالناصر إلى نقل المستكفى بالله إلى القلعة نقول : إن العلاقات بين الناصر والمستكفى كانت قد توطدت إلى حد بعيد حتى سارا معاً لقتال التتار (٥) . وقد اصطحبه السلطان معه لمباركة الجيش والدعوى له بالنصر والتأييد وهو اختصاص منحه السلاطين للخليفة الحاكم بأمر الله وصار بعد ذلك تقليداً اتبع مع من جاء بعده من الخلفاء . ولم تقف علاقات المودة التى سادت بين الناصر والمستكفى عند هذا الحد بل زادت هذه العلاقات وثوقا حتى كان السلطان لا يرى إلا والخليفة معه « كأنهما أخوان » (٦) . وقد توثقت عرى المودة والصفاء بينهما إلى أن حدث أن الخليفة رفع إلى السلطان « قصة عليها خط الخليفة بأن يحضر السلطان بمجلس الشرع الشريف » (٧) فغضب عند ذلك السلطان وأمر برحيله الى مدينة قوص فى أواخر سنة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥١ .

(٢) كان راتب الخليفة الحاكم بامر الله فى الشهر خمسمائة دينار وثمانى أرادب قمح وثلاثة أرادب شعير وفى كل يوم أربع جرايات خبز وعشرين رطلا من اللحم عدا الكسوة . Zettersteen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٠٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٩ . السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٣ . Zettersteen : نفس المصدر ص ١٠٧ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) ج ٤ القسم الرابع ص ٢٥٢ .

(٥) السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٢ . الخالدى : المقصد ص ٥٦ .

(٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكره ج ٩ ورقة ٢٠٩ . المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٢٠

(٧) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣ . ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٠ .

٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) [١] وقيل فى سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) [٢] . فوصل إليها هو وأولاده وسائر أفراد أسرته الذين بلغ عددهم نحو مائة نفس . وفى هذا منتهى الدلالة على أن الخليفة العباسى فى مصر كان خاضعاً لأهواء السلطان من رضاً وغضب .

ولكن الناصر على الرغم من غضبه على الخليفة المستكفى ونفيه إياه لم يحرمه الحق الذى تمتع به من سبقه من الخلفاء إذ أمر بأن يخطب له على المنابر وهو مقيم فى قوص كما كان فى القاهرة [٣] . وعلى الرغم من أن الناس كانوا يعتقدون أن بُعد الخليفة عن حاضرة الملك لا يحدث فراغاً محسوساً ، فقد أسفوا لذلك الحادث وحزنوا له [٤] . وتوفى الخليفة المستكفى بمدينة قوص وله من العمر ست وخمسون سنة ونصف .

ولما مات الخليفة المستكفى بالله لم يلتفت الناصر الى ابنه احمد ، وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة من بعده ، وثبت عهده على يدقاضى قوص بشهادة أربعين رجلا من العدول » [٥] . وذلك أن الناصر كان يريد تحويل الخلافة إلى عباسى آخر اسمه ابراهيم بن محمد بن المستعسك بن احمد الحاكم بأمر الله ، وجمع لذلك القضاة بدار العدل (رمضان سنة ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩ م) . وأمرهم بمبايعته ، ولكنهم رفضوا ذلك لعدم أهليته من جهة ولأن المستكفى قد عهد الى ابنه احمد بشهادة قاضى قوص . ولكن السلطان أمر باحضار ابراهيم ولما رآه وعرفه قبح سيرته فأظهر التوبة منها والتزم سلوك طريق الخير ، فاستدعى السلطان القضاة وعرّفهم أنه قد أقام ابراهيم فى الخلافة . فأخذ قاضى القضاة عز الدين بن جماعة يعرّفه عدم أهليته فلم يلتفت السلطان إليه وقال إنه قد تاب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » [٦] . فبايعه ولقب الواثق .

اضمحل شأن الخلافة فى عهد الواثق وانحطت قيمتها عما كانت عليه . فقد اتصف الخليفة الجديد بسوء التدبير وانصرف الى اللهو واللعب ومخالطة السفهاء من الناس . وكان يستدين المال دون أن يرده الى صاحبه [٧] . ومن العبارة التى وصفه بها السيوطى نستدل على الدرك

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٩٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٢ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥١ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر جـ ١ ص ١٧٠ . Zetterstéen : نفس المصدر ص ٢٢٥ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٦٧ .

(٧) حكم فى بغداد فى نهاية العصر العباسى الاولى الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م) بن المعتصم . ولذا فان السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣٠٥) قد أتى بمقارنة لطيفة بين الخليفتين العباسيين فى بغداد والقاهرة اللذين كان يطلق عليهما هذا الاسم . ومنها نتبين أن هذا المؤرخ قد نزل بالواثق العباسى فى مصر إلى الحضيض . يقول السيوطى : « أين هو من صاحب هذا الاسم الذى طالما سرى رعبه فى القلوب وأعيت هيبته مضاجع الجنوب ، وهيهات لاتعد من النسر التماثيل ولا الناموسة وان طال خرطومها كالفيل وإنما سوق الزمان قد ينفق ما كسد والدهر يحكى انتفاخا صورة الأسد »

الذى انحط إليه هذا الخليفة : « أغرى بالقاذورات وفعل مالم تدع اليه الضرورات وعاشر السفلة والأراذل وهان عليه من عرضه ما هو باذل ، وزين له سوء عمله فرآه حسنا وعمى عليه فلم ير مسيئاً الا محسنا وغواه اللعب بالحمام وشرى الكباش للنطاح والديوك للنقار ومثله مما يسقط المروءة ويثلم الوقار . وانضم هذا إلى سوء معاملة ومشترى سلع لا يوفى أثمانها واستئجار دور لا يقوم بأجرها وتحيل على درهم يملأ به كفه وسحت يجمع (هكذا) به فمه وحرام يطعم منه ويطعم حرمه حتى كان عرضة للهوان وأكلة لأهل الأوان »[1] . فلا عجب إذا أطلق عليه بعض المعاصرين اسم « المستعطى » لأنه كان يستعطى من الناس ما ينفقه[2] .

ويهمنا أن نتتبع اختصاصات هذا الخليفة . فقد عرفنا أن أسلافه من الخلفاء العباسيين فى مصر منحوا حق ذكر أسمائهم فى الخطبة والسكة وإن كان الأمر الثانى ظل صوريا بعد رحيل المستنصر بالله عن مصر ومقتله . إلا أن الواثق قد حرم حتى ذكر اسمه فى الخطبة . ذلك أن السلطان الناصر لما لم يقبل تولية احمد الخلافة اتفق هو وقاضى القضاة على « ترك الخطبة للاثنين » ، واقتصر على اسم السلطان . وبذلك « رحل بموت المستكفى اسم الخلافة عن المنابر كأنه ما علا ذروتها وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومروتها »[3]

ظل الخليفة الواثق فى منصبه سنة وأربعة أشهر . فلما دنا أجل السلطان الناصر أوصى بتحويل الخلافة إلى أحمد وفق وصية أبيه المستكفى بالله وندم على تولية الواثق بالله ابراهيم . فلما اعتلى أبو بكر بن الناصر عرش السلطنة عقد مجلساً فى ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠م) حضره الخليفة ابراهيم وأحمد بن المستكفى والقضاة ، وأقر المجلس وصية الناصر . ومنذ ذلك الحين استقرت الخلافة للحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بن المستكفى

ولم يعهد الخليفة أحمد بن المستكفى بالله بالخلافة لأحد بعد موته . فأمر الأمير شيخو — وكان يومئذ أتابك العساكر وصاحب السلطة الفعلية فى الدولة فى عهد السلطان الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢ — ٧٥٣ هـ) — أن يجتمع القضاة والأمراء والأعيان للمشاورة فيمن يلى الخلافة . فوقع اختيارهم على أخى الخليفة أحمد المتوفى واسمه أبو بكر ، فبايعوه[4]

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٦٧ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٠ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٤ .

(٤) اختلف المؤرخون فيما إذا كان الخليفة احمد بن المستكفى بالله قد عهد ، قبل وفاته ، بالخلافة لأخيه ، فقال السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣٣٣) إن أبا بكر لم يعهد اليه أخوه قبل موته . ولكن السيوطى نفسه (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٨) قد نفى روايته التى ذكرها فى « تاريخ الخلفاء » وقال إن الخليفة احمد بن المستكفى لم يعهد بالخلافة لأحد .

سنة ٧٥٣ ، ولقب المعتضد بالله ، وكنى أبا الفتح (١) وضم إلى اختصاصاته نظر المشهد النفيسى (٢).

وكان المعتضد بالله « عارفا ، مهاباً (كذا) ، واسع الفكرة ، محباً لأهل الخير والعلم » . وقد ظل خليفة على مصر حتى توفى سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١م) ، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه أبى عبد الله محمد (٣) الذى تلقب « بالمتوكل على الله » . وقد حدث لهذا الخليفة حادث يعد الأول من نوعه فى تاريخ الخلافة العباسية فى مصر ، إذ عرض عليه أمراء مصر أن يضم إلى خلافته عرش السلطنة . ذلك أنه فى سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) سافر السلطان الأشرف شعبان لحج بيت الله الحرام ومعه الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء . وفى الطريق اتحد الأمراء ضد الأشرف وأرادوا الغدر به ، ولكنه عاد خلسة إلى القاهرة ، فلم يتمكن الأمراء من تنفيذ ما اعتزموه من قتله . وعلى أثر هربه استقر رأى الأمراء على عرض السلطنة على الخليفة المتوكل على الله ، وقالوا له : « يا أمير المؤمنين ! تسلطن ونحن بين يديك » . فامتنع الخليفة من قبول السلطنة . وقام الأمراء بذلك العرض دون أن يكونوا قد علموا بوصول المنصور علىّ إلى العرش (٤) .

وعلى الرغم من أن هذا الحادث قد عد غريباً ، فان وقوعه لم يكن مستبعداً ، لما اتصف به هذا الخليفة من جميل الصفات وحميد الخلال التى حببته إلى نفوس الشعب والأمراء . وقد وصفه الخالدى (٥) فقال « إنه كان حسن الشكل ، كريم الأخلاق ، عظيما ، مهاباً تهابه الملوك فمن دونهم ، قوى الحجة والملكة » . ولكن ذلك لم يمنع تحكم الأمراء فى الخلفاء كتحكمهم فى السلاطين ، فقد رأوا أن يخضع الخليفة لمشيئتهم فيمنع التفويض لمن يريدون . فان الأمير يلبغا — الذى كان متصرفاً فى شئون الدولة فى عهد المنصور علاء الدين على بن شعبان بن حسين — اختلف سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) مع السلطان وتحاربا . فعمد يلبغا إلى إقامة سلطان جديد هو أنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون ، وطلب إلى الخليفة المتوكل أن يقدم إليه تفويضاً بالسلطنة . ولكن الخليفة امتنع . وهنا كان يصح أن يثنى يلبغا عن عزمه لو أنه كانت لشرعية عرش المنصور علىّ وتقليد الخليفة قيمة فى نظره . ولكن يلبغا قال : « أنا أعينه وأؤيده ومن [له] الشوكة غيرى » . فلم يجد الخليفة بداً من إعلان أنوك سلطاناً ولقب بالملك المنصور . ولكن هذا السلطان الجديد لم يلبث أن هرب وقبض عليه بعد هزيمة يلبغا

---

(١) أورد أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ١٨٣ سلسلة نسب المعتضد كاملة إلى « أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس » .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٨ .

(٣) اقرأ نص هذا العهد عن السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٩ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الاولى ٢٣٣ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

(٥) المقصد ص ٥٧ .

وثبتت المنصور على عرشه(١) . وفى هذا منتهى الدلالة على أن منح الخليفة تفويضاً للسلطان بالحكم إنما كان أمراً صورياً لا قيمة له طالما كانت السلطة والنفوذ فى يد الأمراء .

وقد ظل المتوكل على الله فى منصب الخلافة إلى أن قتل الأشرف شعبان ، وأقيم بعده المنصور على . ونظراً لصغر سن ذلك السلطان ، كان أينبك البدرى هو المهيمن على شئون الدولة على نحو ما كان متبعاً فى عصر السلاطين الأطفال . وكان هذا الأمير يحقد على المتوكل موقفه من خلع الأشرف شعبان وقتله وما كان من عرض السلطنة عليه عن طريق بعض الأمراء ، فبعث إلى عباسى آخر اسمه زكريا وأقامه خليفة سنة ٧٧٩ هـ بغير مبايعة ولا اجماع ولقبه « المستعصم بالله » (٢) . وأمر بنفى الخليفة المتوكل إلى قوص ليبقى بها بقية حياته (٣) كما فعل الناصر محمد مع الخليفة المستكفى بالله . ولكن شفع فى الخليفة بعض الأمراء لدى أينبك ، فلم يرحل إلى قوص ، بل اكتفى بخلعه وبقى مقيما فى داره بالقاهرة . ثم عاود الأمراء كلامهم مع أينبك فى أمر عودة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، فعاد إليه وعزل زكريا . وبذلك كانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوماً أو على حد تعبير ابن اياس « كسنة من النوم أو يوم أو بعض يوم » (٤) .

كانت حياة الخليفة المتوكل فى مصر ، مع ما اتصف به من جميل الصفات ، سلسلة متتابعة من العزل والحبس إذ لم يكتفى بما كان من عزله سنة ٧٧٩ هـ على يد أينبك ، بل أن برقوق مؤسس دولة المماليك الثانية المعروفة بدولة المماليك الشراكسة أو البرجية عزله سنة ٧٨٥ هـ وحبسه بقلعة الجبل (٥) وعقد البيعة للامام أبى حفص عمر الواثق بالله ، فظل خليفة إلى أن توفى فى ١٨ شوال سنة ٧٨٨ هـ ، وعين برقوق مكانه أخا محمد زكريا الذى ولى الخلافة مدة يسيرة فبويع ولقب « المستعصم بالله » ، واستمر فى منصبه إلى ٢ جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ ، وإذ ذاك ندم برقوق على ما فعل بالمتوكل وأخرجه من حبسه وأعاده إلى كرسى الخلافة وخلع

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) جـ ١ القسم السادس ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٩ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

(٤) بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤١ .

(٥) اختلف المؤرخون فى السبب الذى حدا ببرقوق إلى خلع الخليفة المتوكل وحبسه . فقال أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الثانى ص ٣٧٣ إنه « فى أوائل رجب سنة ٧٨٥ هـ طلع الأمير محمد بن محمد بن تنكز إلى السلطان ونقل له عن الخليفة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد أنه اتفق مع بنى عمر التركمان وهم نحو ثمانمائة فارس أنهم يثبون على السلطان إذا نزل من القلعة إلى الميدان فى يوم السبت للعب الكرة ويقتلونه ويمكنون للخليفة من الأمر والاستبداد بالملك » . وقال الخالدى : المقصد ص ٥٧ إن المتوكل « أغلظ على برقوق فى أول مملكته ، وامتنع عن مبايعته ، فأخافه السلطان فلم يخف وحمل منه فسكن وقيده » .

زكريا . واستمر المتوكل فى الخلافة إلى أن مات سنة ٨٠٨ هـ . فكانت مدة خلافته خمسا وأربعين سنة ، بما تخللها من خلع وحبس .

وظائف الخليفة :

بقيام الخلافة العباسية فى مصر وجد بها حاكمان : أحدهما « السلطان » وهو الذى يرأس حكومة مصر ، وثانيهما « الخليفة » الذى كانت سلطته صورية . ولما كان من الصعب القول بأنه كان هناك إذ ذاك حد فاصل بين الأمور الدينية التى كان يصح أن تكون من اختصاص الخليفة وحده ، والمسائل السياسيه التى كان يباشرها السلطان ، فان الخليفة لم يكن إلا مظهراً خداعا جهد المماليك لايجاده ذراً للرماد فى العيون حتى يقضوا على شهوة الطامحين فى مُلك مصر ويبددوا السحب التى كانت تحوم حول مبالغ شرعية حكمهم للبلاد . ولو أن المماليك علموا أن المعارضة لحكمهم قد تأتيهم من ناحية الشعب المصرى وحده لما اهتموا باحاطة أنفسهم بهذا النوع من الحماية الروحية الممثلة فى شخص الخليفة . ولا غرو فان سلطان المماليك كان يحكم شعبه وهو آمن مطمئن من ناحيته لأن الشعب المصرى اشتهر بالهدوء والطاعة وكان نادراً ما يعمد إلى ثورة يقوم بها أو أحزاب يكوّنها تعمل على معارضة السلطان[1] . ولكنهم رأوا أن الشر قد يأتيهم من ناحية أعدائهم الذين كانوا ينادون بأن المماليك فئة من الرقيق لاحق لها فى حكم البلاد [2] : فأوجدوا لذلك سلطة أخرى بجانب السلطان تؤيده وتثبت عرشه وهى سلطة الخليفة ، الذى كان من أغراض الظاهر بيبرس من إيجادها هو التذرع لاستبقاء نفوذ مصر على الأراضى المقدسة بالحجاز والحيلولة دون انتفاع أمراء مسلمين آخرين بسقوط العباسيين فى بغداد مثل بنى حفص [3] .

---

(١) كانت الحكومات الأجنبية الأصل والتى يدافع عنها جند مأجورون أو مماليك متعددو الجنسيات سببا فى ميل الشعب المصرى إلى السكينة وانصرافه عن الاشتراك فى الأحداث السياسية أو الثورة على النظم اللهم إلا احتجاجا على الضرائب . فكانت الأسرات الحاكمة تتغير دون أن يتأثر المصريون بذلك كثيرا . ولم يتم فى وادى النيل شعور وطنى صحيح لأن الجيش والطبقه الحاكمة لم يكونا من صميم الشعب المصرى الصحيح . ولقد ذهب بعض المستشرقين بعيدا فى هذا السبيل فزعموا أن المصريين فى عصر المماليك كانوا على استعداد لقبول المغول بدلا من المماليك ، وأن المماليك لم يهتموا بالرأى العام أو يهيبوا بالشعب المصرى للدفاع عن نفسه بل قاموا هم بالدفاع عن مصر كما دافع البريطانيون عنها ضد تركيا فى الحرب العظمى

انظر Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, pp. — 66 — 67

(٢) راجع ماسبق ذكره عن محاولات الايوبيين فى مصر والشام الاستيلاء على مصر ، وتهديد التتار لمصر بالغزو ، ودأب الصليبيين على مناوأة المماليك وعملهم على طردهم من مصر .

(٣) Wiet : Précis de L'Histoire d'Egypte, t. II (L' Egypte Arabe) pp. 250—251

راجع أيضا Van Berchem : Titres Califiens d'Occidents (Etrait du Journal Asiatique, Mars— Avril, 1907, p. 47.

وكان أهم مظاهر السيادة التى تمتع بها الخلفاء العباسيون فى مصر ثلاثة وهى : السماح لهم بمنح السلطان تفويضاً يجعل حكمه شرعيا ، وذكر اسم الخليفة فى خطبة الجمعة ، ونقشه على السكة . إلا أن سلطة الخليفة كانت فى الواقع سلطة صورية ، كما كانت وظائفه وهمية أكثر منها حقيقة واقعة .

ذلك أن السلطان حرّم على الخليفة التدخل فى شئون الدولة السياسية إذ اعتبرها من حق السلطان وحده دون سواه . ورأى أن تدخل الخليفة فى مثل تلك الشئون قد يؤدى إلى استئثاره بالسلطة والنفوذ بتأييد الشعب له باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين . وبذلك يعود الحال إلى ما كان عليه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حين كانت السلطتان الزمنية والروحية تتمثلان فى شخص الخليفة . وزاد السلطان من انتقاص النفوذ الذى كان يصح أن يتمتع به الخليفة ، فحرّم عليه الاتصال بالشعب ، لأنه كان يخشى أن يؤدى ذلك إلى تقريب الخليفة من الشعب ، فينسى السلطان ويؤيد الخليفة باعتباره « حامى الدين ، وخليفة رسول الله » . ومن ذلك نرى أن السلطان لم يرد أن تعدو معاملته للخليفة مراعاة جانب الاكرام والاجلال اللازمين لمقامه الدينى ، لأنه يستمد شرعية سلطنته منه ولأنه يعتقد أن فى إحياء الخلافة قُربى إلى الله وخدمة للاسلام .

حقيقة إن قيام الخلافة العباسية بمصر أصبح أمراً واقعاً وأنه كان يصحب اعتلاء كل خليفة منصبه عدة مظاهر غاية فى الأبهة والعظمة : من فحص عن نسبه وتقليد السلطان له أمر الخلافة بالديار المصرية وتولية الخليفة للسلطان أمور البلاد فى حفل يجمع الأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة ثم حمل ذلك التقليد على رأس الوزير فى موكب علنى يطوف أرجاء مدينة القاهرة مما يدل على تلهف السلطان وابتهاجه بحصوله على مثل ذلك التقليد الذى يجعل سلطانه فى نظر الشعب شرعيا ولكن كل ذلك لم يعد المظاهر التى لا تنطوى على أى نفوذ فعلى فى تصريف أمور الدولة أو التعرض لشئونها ، ولم يكن الخليفة إلا العوبة فى يد السلطان : إن أراد وسّع الرزق عليه ومنحه حرية التنقل وسمح له بالاجتماع مع الناس على أن لا يتكلم فى أمور الحكم ، وأباح له تبادل الزيارات ، وان غضب السلطان حرم الخليفة من كل شىء وجعله أشبه بالسجين . وأظهر الأمثلة على ذلك ما فعله السلطان الناصر مع الخليفة المستكفى بالله حين أمر بنقله الى القلعة سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) فجد من حريته ، وحين نفاه إلى قوص سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) بعد أن غضب عليه على ما بينا .

وفى الحق أن جل عمل الخلفاء العباسيين فى القاهرة انما كان إعطاء السلاطين تفويضاً بالحكم . وعلى الرغم من أن السلطان قلاوون لم يهتم بالحصول على ذلك التفويض ولم يحفل بأن يطلب من الخليفة الحاكم بأمر الله أن يقلده السلطنة (١) فان ابنه الناصر اعتبر هذا التفويض

(١) يظهر ان الخليفة الحاكم بأمر الله قد منح السلطان قلاوون تفويضا بالحكم من تلقاء نفسه ، على=

أمراً ضرورياً لجعل حكمه شرعياً وحصل عليه فعلا من الخليفة الحاكم عند اعتلائه عرش السلطنة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٢ م) (١) ، كما حصل السلطان لاچين على مثل هذا التفويض من هذا الخليفة نفسه سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤م) على الرغم من أنه كان مغتصباً للعرش من السلطان الناصر محمد (٢) .

غير أن هيبة ذلك التفويض الشرعى بدأت تزول من نفوس المماليك بعد أن رأوا إقدام كبار الأمراء على اغتصاب العرش كلما واتتهم الفرصة ، وذلك على الرغم من حصول السلطان المخلوع على تفويض الخليفة . وأظهر الأمثلة على ذلك ما حدث فى سنة ٧٠٩هـ (١٣٠٩ م) حين عمل المماليك على عودة الناصر محمد من الكرك واضطربت أمور الدولة فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير ، فان الخليفة المستكفى بالله الذى كان قد منح هذا السلطان تفويضاً يجعل حكمه شرعياً(٣) ، جدد له هذا التفويض مرة ثانية حين أبلغه سيف الدين بهادر حُنكى رحيل معظم جند مصر الى السلطان الناصر بالكرك ، « وسلّمه كتاب الأمير برلغى ، فلما قرأه (بيبرس الجاشنكير) ابتسم وقال : سلم على بُرُلغى وقل له : لا تخش من شىء فان الخليفة أمير المؤمنين (المستكفى) قد عقد لنا بيعة ثانية ، وجدد لنا عهدا ، وقد قرىء على المنابر وجددنا الايمان على الأمراء ، وما بقى أحد يجسر أن يخالف ما كتب به أمير المؤمنين ، وقال : امض به إليه يقرأه على الأمراء والجند ثم يرسله لى فاذا فرغ من قراءته يرحل بالعساكر إلى الشام (٤) . وهنا كان يصح أن تستقيم الأمور لبيبرس الجاشنكير ، لو كان لبيعته قيمة فى نظر الناس . وتتبين لنا قيمة مركز الخليفة من رد برلغى على سيف الدين بهادر حين قرأ كتاب بيبرس الجاشنكير إليه بتجديد البيعة له إذ قال : « يا بارد الذقن ، والله ما بقى أحد يلتفت إلى الخليفة » وانتهى الأمر بفرار بيبرس الجاشنكير وعودة الناصر إلى ملكه .

وعلى الرغم من أن الخليفة والقضاة الأربعة كانوا هم الذين يباركون السلطان عند اعتلائه العرش ، لم يكن ذلك يتم الا بعد أن يعلن أمراء مصر موافقتهم على اختياره وارتياحهم لتوليته وبعد أن يأخذ عليهم السلطان الجديد العهود والمواثيق بأن يخلصوا له ويلتفوا حول عرشه . وقد رأينا عند كلامنا على سلطنة الناصر أن موافقة الأمراء وتأييده كانت العامل الأساسى الذى يسهل للسلطان الوصول الى العرش والاحتفاظ به مدة تطول أو تقصر تبعا

= نحو ما اتبعه مع السلاطين الذين سبقوه . اقرأ نص هذا التقليد فى السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ — ٧٤

(١) اقرأ نص تقليد الخليفة الحاكم للسلطان الناصر فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٥٤ — ٥٨ .

(٢) اقرأ نص تقليد الخليفة الحاكم للسلطان لاچين فى القلقشندى : نفس المصدر ج ١٠ ص ٥٤ — ٥٨

(٣) اقرأ نص البيعة فى القلقشندى : نفس المصدر ج ١٠ ص ٥٩ — ٧٥ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٢ .

لمبلغ ذلك التأييـــد . أما مبايعة الخليفة للسلطان وحضور القضاة الأربعة عند تلاوة البيعة والشهادة على صدورها من الخليفة فقد كان أمراً صورياً لا يقدم ولا يؤخر فى توطيد عرش السلطان أو زعزعته . ولكنه كان تقليداً اتبع منذ عهد بيبرس وعادة اصطلح عليها فى تلك الفترة من تاريخ مصر فى العصور الوسطى .

كان من أهم مظاهر السيادة للخلفاء بنى العباس منذ إحياء خلافتهم فى القاهرة ذكر أسمائهم فى الخطبة ونقشها على السكة بجانب السلطان . وتمتع المستنصر بالله (٦٥٩ — ٦٦١ هـ = ١٢٦١ — ١٢٦٣ م) أول الخلفاء العباسيين فى مصر بتلك الميزات . وسار الناصر على هذه السياسة إزاء من عاصره من الخلفاء ، فقد أمر بذكر اسم الخليفة المستكفى بالله (٧٠١ — ٧٤٠ هـ = ١٣٠١ — ١٣٣٩ م) فى الخطبة ونقشه على السكة . غير أنه قيد ذكر اسم الخليفة مع اسم السلطان فى الخطبة بقيود واعتبارات شتى ، فأمر بذكر اسم الخليفة على المنابر وقت حضوره منفرداً ، أما إذا حضر مع السلطان فلا يذكر اسمه ويدعى للسلطان وحده (١) . وإذا عرفنا أن ذكر اسم الخليفة فى الخطبة هو المظهر الذى يدل دلالة واضحة على أنه كان له اعتبار روحى وكيان دينى ، أمكننا أن نتصور درجة التدهور التى انحدر إليها مركز الخليفة إذ ذاك . كذلك جعل الناصر ظهور اسم الخليفة على السكة بجانب اسمه أمراً صورياً (٢) .

وفيما عدا ذلك لم يباشر الخليفة العباسى فى القاهرة أى عمل من أعمال الدولة ، بل كان يقضى وقته فى العبادة وزيادة بعض العلماء وذوى الحيثية . وكان يؤتى به فى الحفلات الرسمية وبخاصة عند تولية سلطان جديد ليعترف بلقب السلطان باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين ولكنه لم يمنح سلطة غير ذلك . وقد كتب المقريزى فى هذا الصدد . « وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة فأقيم فى تلك السنة خليفة فى مصر قدم إليها من بغداد لقبه المستنصر بالله احمد بن الظاهر بن الناصر وسار يريد بغداد فحاربه التتار وقتلوه قبل أن تتم له سنة منذ بويع بمصر . فصار من بعده ملوك مصر من الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة ويلقبونه بلقب الخلفاء وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ بل يتردد إلى أبواب الأمراء

---

(١) Demombynes : La Syrie, p. XX III

(٢) كان السلطان بيبرس أول من فكر فى جعل حق نقش اسم الخليفة بجانب السلطان على السكة أمرا صوريا . فقد عمل على التقليل من نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله (٦٦١ — ٧٠١ هـ = ١٢٦٢ — ١٣٠٢ م) فلم يمنحه حق نقش اسمه على السكة ، وهو الحق الذى منحه لسلفه المستنصر بالله . ويظهر أن بيبرس أمر أولا بمنح الخليفة الحاكم هذا الحق حين وصوله الى مصر سنة ٦٦١ هـ ثم عاد فعدل عن ذلك . يقول السيوطى : (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٨) : « وكتب (بيبرس) بيعته إلى الآفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه . فخطب له بجامع دمشق وبسائر الجوامع فى يوم الجمعة ٦ المحرم سنة إحدى وستين وستمائة ونقش اسمه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم . ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر » .

وأعيان الكتاب والقضاة لتهنئتهم بالأعياد والشهور (١) .

ومهما بلغ مركز الخليفة العباسى فى مصر من ضعف ، فقد كان يشترك فى تولية السلطان الجديد بمنحه تفويضاً شرعيا بالحكم ويخطب فى الجمع والأعياد ويخرج مع الجيوش ليباركها ويحث على الجهاد فى سبيل الله والدين ويحرّض على التتار ويدعو الله بتفريج الكروب وتخفيف البلاء إذا نزل بها ضر أو انتشر وباء . وهذه كلها أدنى مراتب الاختصاصات التى يصح أن تعهد إلى شخص يستمد منه السلطان التفويض الشرعى بالحكم .

ويوضح لنا القلقشندى مدى علاقة الخلافة العباسية فى القاهرة بسلطنة المماليك فيقول : والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عهداً بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلى السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة . ويستبد السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الاقطاعات حتى للخليفة نفسه ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك » (٢) .

* * *

بذلك لم يكن الخليفة العباسى فى القاهرة أكثر من « دمية يوجهها السلطان كيفما شاء ، بل ان السلطان لم يكن يعتبره سوى تابع من أتباعه (٣) » . ولم يكن هذا الخليفة فى نظر ميور Muir غير صنيعة السلطان فحسب (٤) . كما لم يكن خلفاء العباسيين فى مصر — على قول المؤلف نفسه — سوى فئة من أشباح الخلفاء لم يكن لهم من الخلافة إلا اسمها (٥) . ومصداق ذلك قول السير توماس ارنولد « إن الخلافة لم يكن لها اعتبار وأن الخلفاء لم يكن لهم كيان فى

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٢ . وانظر

Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV. (L'Egypte Arabe), p. 401. Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 58.

(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٥ .

ومما يمهد بطبيعة العلاقة بين السلطان والخليفة كتابتان تاريخيتان باسم السلطان قايتباى فى ضريح شيد نحو سنة ٨٨٦ هـ ويعرف الآن باسم « قبة الفداوية » . ففى الكتابة الاولى يلقب قايتباى بألقاب منها « ناصر دين الله حافظ بلاد الله قيم خليفة الله » . وفى الثانية يذكر بين ألقابه : « ناصر الملة المحمدية الحنيفية والخلافة العباسية سيد الملوك والسلاطين قسيم أمير المؤمنين »

Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 748—749.

(٣) Sanhoury : Le Califat, p. 316.

(٤) عبر ميور عن ذلك بقوله

« A mere creature of the Court » (The Caliphate, p. 594)

(٥) عبر ميور عن ذلك بقوله

« A race of mock-caliphs, having the name without the substance, a mere spectre as it were » (The Caliphate, p. 593.)

مصر ، وإنما كانت الخلافة شبحا ليس إلا (١) » ، كما أوضح لنا هذا المؤلف نفسه أنهم كانوا أضعف من خلفاء العصر العباسى الثانى فى بغداد وتكلم عن وظيفتهم التى وجدوا من أجلها فى القاهرة فى نوع من السخرية والازدراء ، فقال إن الخليفة إنما كان يؤتى به من عزلته عند تولية كل سلطان جديد ليقلده السلطة ويمنحه تفويضا بالحكم يجعل سلطانه شرعيا .

وعلى الرغم من حالة الركود التى صارت إليها الخلافة العباسية فى القاهرة عمل بعض أمراء المسلمين للحصول على تفويض بالحكم يجعل عرشهم شرعيا على نحو ما كان يحدث حين كانت الخلافة العباسية قائمة فى بغداد (٢) . فقد منح الخليفة المستكفى بالله سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢١م) محمد بن طغلق حاكم دلهى تفويضا بالحكم ، بعث به مع رسول خاص . وبلغ من سرور ابن طغلق بوصول هذا التفويض إليه أن خرج بنفسه لاستقبال رسول الخليفة المستكفى وأكرم وفادته وبعث بالهدايا الثمينة إليه وزاد على ذلك أن أمر بذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقشه على السكة فى بلاد الهند(٣)، وقد استمر نفوذ الخليفة العباسى الاسمى عظيما فى تلك البلاد، فانه على الرغم من وفاة الخليفة المستكفى بالله سنة ٧٤١ هـ (١٤٣٠) استمر اسمه يذكر فى الخطبة وينقش على السكة حتى سنة (٧٤٤ هـ ١٣٤٣ م(٤)) .

ومهما يكن ما نال الخلافة العباسية فى بغداد من التقتيل والتشريد على أيدى التتار ، ومهما آلت إليه الخلافة العباسية فى القاهرة من المذلة والهوان ، فقد تمكنت هذه الخلافة بفضل سلاطين المماليك من أن تحيا بعد موتها مدة قرنين ونصف قرن من الزمان .

---

(١) Arnold : The Caliphate, pp. 98-99

(٢) Ph. Hitti : History of the Arabs, pp. 676-677

(٣) عثر على سكة هندية عليها الاعتراف بخلافة العباسيين فى مصر
راجع مقال السير ولسلى هيج فى
Journal of the Royal Asiatic Society, July 1922, p. 351.
H. Nelson Wright : The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi (Delhi 1936), pp. 168—170 and plate VI.

(٤) Arnold : The caliphate, p. 104. S. Lane-Poole : Mediaeval India under Muhammadan Rule, pp. 137—138.

الباب التاسع

الحكومة المصرية

طبيعة الحكومة المصرية :

كانت الحكومة المصرية فى سلطنة المماليك بوجه عام وسلطنة الناصر بوجه خاص حكومة بيروقراطية بمعنى أن السلطان كان يعتمد فى إدارة شئون الدولة على كبار الموظفين الاداريين ويمنح كلا منهم حرية التصرف فى الأمور التى يباشرها ، على رغم مراقبته له ومحاسبته إياه على أعماله . وكان أهم هؤلاء الموظفين : نائب السلطنة والوزير والمحتسب ووالى القاهرة وولاة الأقاليم .

وكان السلطان هو الرئيس الأعلى للدولة ، يختار كبار الموظفين من أقرب الناس إليه وأخلصهم له وممن يثق فى كفايتهم ومقدرتهم الادارية . وعرف عن الناصر محمد أنه كان يبادر إلى عزل من ينحرف منهم عن جادة الصواب أو تثبت عليه الرشوة والخروج على قوانين البلاد المرعية . ولم يقتصر فى عقاب الموظفين على عزلهم من مناصبهم بل كان يأمر بمصادرة أملاكهم وأموالهم (١) إذا اتضح له أنهم جمعوها بطرق غير مشروعة .

وكان هناك بمصر فى ذلك العصر عدة دواوين حكومية يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحى الادارة العامة . وأهم هذه الدواوين ديوان الانشاء ومن بين اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة ، وديوان الأحباس ويشبه وزارة المالية ، وديوان الخاص ويدير الشئون المالية التى تتعلق بالسلطان . وقد سارت تلك الدواوين على نسق واحد من حيث التنظيم الادارى ، فكان على رأس كل ديوان منها ناظر ، ووكيل يطلق عليه مستوفى الصحبة ، ويليه فى المرتبة مستوفى الدولة ثم عدد من المستوفين .

وعلى الجملة فان النظام النظام الادارى فى السلطنة المملوكية قد بلغ شأوا بعيدا من الدقة والاتقان ، إذ كانت هناك إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها كبار الموظفين الاداريين ونظار الدواوين ، وإدارة محلية ممثلة فى ولاة الأقاليم ، وإدارة بريد محكمة تابعة لديوان الانشاء ربطت أجزاء الدولة المصرية بعضها ببعض وساعدت على تسهيل الاتصال بينها وبين الولايات التابعة لها .

---

(١) راجع المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٦ . وأبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٢٥٠ واقرأ ما سنذكره فى هذا الباب عن الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطنة بدمشق ، وما ذكرناه عن شرف الدين النشو وكريم الله بن هبة الله وزيرى الناصر عند كلامنا على الوزراء القبط فى الباب الخامس .

أولا — كبار الموظفين الإداريين

وكانت المناصب الادارية الكبرى فى ذلك العصر هى : نيابة السلطنة والأتابكية والوزارة وولاية القاهرة ، وولاية الأقاليم .

١ — نائب السلطنة [١] :

أما نيابة السلطنة فهى وظيفة ابتدعها الأيوبيون وأحياها بيبرس مع ما أحياه من الوظائف الأيوبية[٢] . وكان نائب السلطنة فى ذلك العهد — كما يقول القلقشندى — « سلطاناً مختصراً بل هو السلطان الثانى » [٣] . فقد كان يشترك مع السلطان فى منح لقب الامارة وتوزيع الاقطاعات وتعيين الموظفين ويعرض عليه كشفاً بأسماء الأشخاص الذين كان يرى ترشيحهم لهذه المناصب فيقرها ولا يرفض تعيين أحد المرشحين الا فى القليل النادر [٤] . ومن أعمال النائب توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين[٥] ، والركوب على رأس فرق الجيش فى المواكب الرسمية يحف به الأمراء عند دخوله أو خروجه من قصر السلطان [٦] . ولم يكن هذا كل ما كان يتمع به نائب السلطنة من نفوذ ، بل كان سائر نواب الشام يكاتبونه فى مهام الأمور المتعلقة بنيابا تهم [٧] ، ويجتمع ديوان الجيش برياسته [٨] .

واذا مثل النائب فى حضرة السلطان وقف فى ركن الايوان بقلعة الجبل إلى أن ينتهى وقت العمل الرسمى فيخرج إلى دار النيابة يحيط به الأمراء . وهناك يعقد مجلساً يحضره كبار موظفى الدولة ويقف الحجاب بين يديه ثم تقدم اليه القصص [٩] بشكايات الناس ، إذ كان من اختصاصه الجلوس لكشف المظالم [١٠] وعلى هذا فانه كان ينوب عن السلطان

---

(١) راجع ما كتبه Van Berchem عن نائب السلطنة فى Corpus, Egypte I. pp. 20 et seq. حيث أتى بأمثلة عديدة لتطور هذا اللقب ومدى استعمال بعض الأقاليم وغيرهم له .

(٢) انظر نص تقليد نيابة السلطنة فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٣٥ — ١٣٨ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٦ ، ١٧ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ . تاج الدين السبكى : معيد النعم ص ٣٤ .

(٥) العمرى : التعريف ص ٦٥ — ٢٦ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص١٧ . Lane-Poole : The Art of the saracens. p. 29.

(٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٦ . المقريزى نفس المصدر والجزء ص ٢١٤ .

(٩) القصص جمع قصة وهى الطلب أو الالتماس Dozy : Supp. Dict. Ar.

(١٠) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٤ .

فى تصريف مهام الدولة التى تدخل فى دائرة نفوذه وأحياناً يصدر القرارات باسم السلطان وأحياناً أخرى يصدرها باسمه هو (١) .

ونستطيع أن نتبين مبلغ أهمية نائب السلطنة فى مصر إذ ذاك ومدى اختصاصاته ، من هذه العبارة التى ننقلها عن المقريزى : «كان يستخدم الجند ، ويخرج الاقطاعات من غير مشاورة السلطان . وكان النائب هو المتصرف المطلق فى كل أمر فيراجع فى الجيش والمال والجند وفى البريد وكل ذى وظيفة لا يتصرف إلا بأمره ولا يفصل أمراً معضلا إلا بمراجعته وهو الذى يستخدم الجند ويرتب الوظائف» (٢) . وقد كتب Van Berchem أن نائب السلطنة كان على رأس الموظفين فى مصر وله كل الاختصاصات التى لنواب السلطنة فى الأقاليم الأخرى من دولة المماليك (٣) .

ويُعد نائب السلطنة أكبر أمراء المئين ويضعه صاحب «المقصد الرفيع المنشا» على رأس أرباب الوظائف بالعاصمة (٤) . ومن وصية نائب السلطنة التى أوردها العمرى نتبين مدى السلطة الواسعة التى وضعت فى يد هذا الموظف الخطير . واليك هذه الوصية :

«يوصى بتقوى الله وتنفيذ الأحكام الشرعية ومعاضدة حكامها واستخدام السيوف لمساعدة أقلامها ، وتفقد العساكر المنصورة وعرضها وإنهاضهم لنوافل الخدمة وفرضها والتخير للوظائف ، وإجراء الأوقاف على شرط كل واقف والملاحظة الحسنى للبلاد وعمارة أوطانها وإطابة قلوب سكانها ومعاضدة مباشرة الأموال مع عدم الخروج عما ألف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها وتحصين كل ما أمره اليه واستطلاع الأخبار والمطالعة بها والعمل بما يرد عليه من المراسم المطاعة والتمسك بسببها ، وأنه مهما أشكل عليه يستضىء فيه بنور آرائنا العالية فهو يكفيه ومن قتل من الجند أو مات وخلف ولداً يصلح لاقطاعه يعين له ليقوم بمخالفيه ، ويقال من هذا مايقوم بتمام الفرصة ويوفيه» (٥) .

ومن هذا نتبين مدى سلطة النائب وما كان يحاط به من عظمة وسلطان . على أن ذلك كان ظاهريا بسبب استبداد السلاطين الأقوياء واستئثاره بالنفوذ ، ثم لتدخل كل من الوزير وكاتب السر فى أعمال نائب السلطنة والحد من نفوذه .

وكان نائب السلطنة يلقب «كافل المملكة الشريفة الاسلامية» لأنه كان يتكفل بتصريف

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ — ١٧ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte I. p. 226

(٤) الخالدى ص ١٢٤ .

(٥) التعريف بالمصطلح الشريف ص ٩٢—٩٣ . ونقله عنه القلقشندى فى «صبح الأعشى» ج ١٠ ص ١٤٨ .

أمور الدولة العامة سواء أكان السلطان في القاهرة أم كان متغيباً عنها . كما كان يطلق عليه لقب « ملك الأمراء » (١) . وقد ذكر صاحب « التعريف بالمصطلح الشريف » عن ألقاب نائب السلطنة هذه العبارة وهي « نائب السلطنة المعظمة وكافل الممالك الشريفة الاسلامية ، الأميري الآمري » . أما تعليل تلقيب نائب السلطنة « الأميري الآمري » وجمعه بين النيابة والكفالة فقد كفانا العمري مئونة البحث في هذه المسألة حيث يقول : « فأما كتابته في ألقابه الآمري فليست بشيء إنما حمله عليها إفراط الملق . وأما جمعه في تعريفه بين ذكر النيابة والكفالة فمقبول منه فيه . والذي أراه أن يجمعا في تقليده فيقال فيه أن يقلد نيابة السلطنة المعظمة وكفالة الممالك الشريفة مصرا وشاما وسائر الممالك الاسلامية » (٢) .

وهناك نوع آخر من النيابة هو « نيابة الغَيْبة » . فنائب الغيبة هو « الذي يترك إذا غاب السلطان والنائب الكافل . وليس إلا لاخماد الثوائر وخلاص الحقوق وحكم في رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء » (٣) . ويقوم نائب الغيبة بمهام الدولة إذا خرج السلطان للصيد أو سار على رأس الجيش في حرب خارجية (٤) ، ويتمتع بالسلطة والنفوذ اللذين يتمتع بهما السلطان نفسه (٥) . والملاحظ أن النائب الكافل أو نائب الحضرة هو الذي ينوب عن السلطان حال وجوده في مصر . أما إذا غاب عنها فيقوم مقامه نائب الغيبة ويلوح أنه أقل مقاما من نائب الحضرة فقد جاء في Corpus « أنه الذي يتخلف بالأبواب الشريفة إذا غاب السلطان والكافل ، ولا يعبر عن الكافل بمصر إلا إذا ناب بحضرة السلطان ، فاذا ناب في الغيبة فلا يعبر عنه بالكافل » (٦) .

ومن أشهر نوّاب السلطنة في القاهرة في دولة المماليك البحرية الأمير سيف الدين قطز الذي تولاها في سنة ٦٥٦ هـ في عهد عليّ بن المعز أيبك ، والأمير فارس الدين اقطاي المستعرب الذي تولى هذا المنصب في عهد المظفر قطز ثم عين أتابكا للعساكر في عهد الظاهر بيبرس . وولى بيبرس بدلا منه الأمير بدر الدين بيليك الخازندار « الذي استقر به نائب السلطنة وفوّض اليه جميع أحوال المملكة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية وصار ينفذ الأمور

---

(١) Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 29. Van Berchem : Corpus, I. p. 216.

(٢) العمري ص ٦٥ — ٦٦ . ويلاحظ أنه لا يستحق لقب « كافل » إلا من كان كافلا أو نائبا على إحدى الممالك التي كانت تتكون منها امبراطورية المماليك . أما النواب على الحصون والقلاع فلم يستحقوا لقب « كافل » . أما النيابة العظمى فهي نيابة الحضرة ويسمى هذا النائب « كافل المملك » .
Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 215.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٧ — ١٨ ج ٧ ص ١٥٧ .

(٤) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٤٠ .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٤٣ .

(٦) Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 211. Demombynes : La Syrie, p. LVI.

من غير مشورة السلطان»(١). وقد توفى بدر الدين الخازندار فى ٦ ربيع الآخر سنة ٨٧٦ هـ بعد وفاة بيبرس بقليل.

ولما جلس قلاوون على العرش سنة ٦٧٩هـ عيّن الأمير عز الدين الأفرم الصالحى نائباً للسلطنة، فتولى أمورها مدة، ثم طلب الاقالة منها فأجيب إلى طلبه، وعيّن بدلا منه الأمير حسام الدين طرُنطاى، الذى عرف بالشهامة والكفاية وعُلوّ الهمة ولكنه على رغم ذلك كان لا يتقن القراءة والكتابة، بل كان يستعين «بذكائه وثقوب فطنته وقوة سعادته، فأحسن التدبير وحفظ النظام ومكن الله مهابته من قلوب الخاصة والعوام وقام بأمر نيابة السلطنة أحسن قيام ونزل الجيوش منازلهم على طبقاتهم ونظر فيما يجب النظر فيه من إقطاعاتهم» (٢).

ولما تولى السلطان خليل أقر الأمير حسام الدين طرُنطاى نائباً للسلطنة وأتابكا للعساكر ولكنه ما لبث أن قبض عليه، وسجنه فى القلعة ثلاثة أيام، ثم أمر بقتله. وفيما رواه ابن إياس عن معاملة السلطان لأسرة نائبه طرنطاى بعد قتله ومصادرته لأمواله، ما يدلنا على مدى الاضطهاد الذى كان يستهدف له النائب إذا غضب السلطان عليه: «رسم [السلطان] الشجاعى بأن يحتاط على موجود الأمير طرنطاى، ورسم على مباشريه وقبض على جميع من كان فى حاشيته وقبض على نسائه وسراريه وقررهم على الأموال والذخائر، فظهر له من الأموال والتحف مالم يسمع بمثله فطلعوا بذلك جميعه الى الخزائن الشريفة» (٣).

وفى سنة ٥٨٩ هـ فوض السلطان خليل نيابة السلطنة إلى الأمير بدر الدين بَيْدَرا المنصورى. ونجد فيما حدث بين بيدرا والسلطان خليل مثلا حياً لما كان يقع أحياناً بين السلاطين ونوابهم من نفور شديد وعداء مستحكم، يرجع السبب فى إثارته إلى عظم سلطان النائب وحسد الوزير القائم فى الحكم له على ما يتمتع من ثروة واسعة ونفوذ وجاه. ويفسر لنا ذلك، الدور الذى قام به الوزير الصاحب شمس الدين بن السلعوس بين السلطان خليل ونائبه بيدرا، إذ أنه انتهز فرصة سفره إلى الاسكندرية — لما اعتزم خليل القيام برحلة اليها — ليعد العدة لاستقباله فيها، فوجد للامير بيدرا فيها كثيراً من الأموال والغلات، فكتب إلى السلطان يبلغه ماسمع. فغضب السلطان على بيدرا وأضمر له الشر. ولما اعتذر بيدرا عن السفر مع السلطان إلى الاسكندرية، انتهز ابن السلعوس هذه الفرصة وأوغر صدر السلطان عليه بقوله: «هذا بيدرا، قد أكل البلاد واستولى عليها. وما ترك للسلطان شيئاً» (٤). ولما اتصل بعلم بيدرا نية الأشرف خليل نحوه، دبر له مؤامرة انتهت بقتله على مابينا.

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٩٩.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٧.

(٣) ابن اياس: نفس المصدر ج ١ ص ١٢٢.

(٤) ابن أبى الفضائل: النهج السديد ج ١ ص ٥٦٢.

ومن الذين تولوا منصب نائب السلطنة فى دولة المماليك البحرية ، وكان لهم أثر ظاهر فى سير الحوادث التى وقعت بمصر فى عهد السلطان الناصر محمد ، الأمير زين الدين كتبغا المنصورى الذى تولى منصب نائب السلطنة وأتابك العساكر سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) فى عهد سلطنة الناصر الأولى . ومنهم أيضاً الأمير حسام الدين لاچين المنصورى الذى شغل هذا المنصب فى عهد السلطان كتبغا حين اغتصب العرش من الناصر سنة ٦٩٤ هـ والأمير شمس الدين قراسنقر ثم الأمير منكوتمر ، وقد تولى هذا المنصب فى عهد السلطان لاچين والأمير سيف الدين سلاّر الذى تولاه فى عهد سلطنة الناصر الثانية سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦م)[١] وفى عهد الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) . وكانت دار النيابة التى بناها السلطان قلاوون سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٧ م) بقلعة الجبل مركزاً لنيابة السلطنة فى القاهرة .

وقد ظهر نفوذ نائب السلطنة بجلاء فى عهد السلطان شعبان بن حسين أى فى أواخر دولة المماليك البحرية ، إذ تولى هذا المنصب سنة ٧٧٥ هـ الأمير منجك الذى قلده السلطان معظم مهام الدولة . وفى ذلك يقول أبو المحاسن[٢] : « خلع السلطان على منجك باستقراره نائب السلطنة بالديار المصرية ، وفوض اليه النظر فى الأحداث والأوقاف والنظر فى الوزارة والنظر على ناظر الخاص . وقرىء تقليده بالايوان ، وأن السلطان أقامه مقام نفسه فى كل شىء وفوض إليه سائر أمور المملكة وأنه يخرج الاقطاعات التى عبرتها سبعمائة دينار إلى مادونها ، وأنه يعزل من شاء من أرباب الدولة وأنه يخرج الطبلخانات والعشرات بسائر الممالك الشامية ، ورسم للوزير أن يجلس قدامه فى الدركاه مع الموقعين » .

* * *

أما نواب السلطنة فى نيابات الشام فقد كان كل منهم ينوب عن السلطان ويمثله فى حدود اقليمه فحسب . وكانت بلاد الشام أهم الولايات التابعة لمصر فى دولة المماليك البحرية . وقد انقسمت تحت الحكم المصرى ستة أقسام إدارية كبرى عرفت باسم « النيابات » وهى : دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك . وكانت دمشق أكبر هذه النيابات وأعظمها شأناً .

---

(١) توجد كتابة باسم الأمير سلار نائب السلطنة تشير إلى انشاء بناء كان الفراغ منه فى رجب سنة ٧٠١ هـ وقد لقب فيها بالمقر العالى السيفى سلار نائب السلطنة المعظمة .

J. David Weill : Catalogue Général du Musée Arabe. Objets en Cuivre, tome II. pp. 112—114.

وأورد Mayer : Saracenic Heraldry, p. 196. ألقاب سلار كما يلى :

المقر العالى السيفى سيف الدين سلار بن عبد الله الناصرى نائب السلطنة المعظمة وكفيل الممالك الشريفة بالديار المصرية والشامية .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ٢٢٢ — ٢٢٣

وقد أتى لنا مؤرخو مصر الاسلامية الذين عنوا بتدوين أخبار دولة المماليك بوصف نيابات الشام والأقسام الادارية التى اشتملت عليها كل نيابة منها وتعيين موضعها بالضبط . ومن هؤلاء المؤرخين الأقدمين ابن فضل الله العمرى(١) والقلقشندى(٢) والخالدى(٣) وابن شـــاهين الظاهرى(٤) ومن المحدثين ديمومبين(٥) وجاستون فييت(٦) .

وكان نظام الحكم فى كل من هذه النيابات يماثل نظام الحكم فى مصر . فكل نيابة منها عبارة عن مملكة مستقلة تنتظم الدواوين الحكومية والموظفين الذين يتولون شؤنها ولكن بصورة مصغرة . ويرأس كلا من هذه النيابات نائب السلطنة كمصر نفسها ، وللنائب حاشية ومماليك وأتباع . وبذلك كان كل حاكم سلطانا صغيرا فى منطقة حكمه مع تبعيته لسلطان مصر بدليل هذه النقود المضروبة باسم السلطان الناصر محمد فى حماه ودمشق وطرابلس(٧) .

وكان المماليك يقسمون امبراطوريتهم إلى جملة أقاليم أو مديريات ، كل منها يسمى مملكة وتسمى الأمبراطورية كلها « الممالك الاسلامية » . ولعل أصل هذه التسمية يرجع إلى تقسيم صلاح الدين دولته بين أبنائه ، وكان كل منهم يحمل لقب «ملك» وكان إقليمه يسمى «مملكة» وقد ظلت هذه التسمية قائمة فى عصر المماليك على الرغم من أن هذه الممالك الصغيرة أصبحت أقاليم إدارية . (٨)

وكان نائب دمشق أهم نواب الأقاليم وأعظمهم شأناً حتى إن رتبته لم تكن تقل عن رتبة نائب السلطنة بالقاهرة ، فقد كان أوسع نواب الأقاليم الشامية نفوذا بل كان الوحيد الذى يستحق لقب نائب السلطنة غير النائب بمصر(٩) ويطلق عليه «اسم النائب الكافل» أو «كافل الممالك الاسلامية (أو الشامية)» (١٠) ويصدر بتعيينه فى وظيفته تقليد خاص . وينوب عن سلطان مصر فى إدارة شؤن نيابته ويتمتع بالسلطة الكاملة والنفوذ المطلق اللذين يتمتع بهما السلطان نفسه .

---

(١) التعريف ص ١٧٦ — ١٨١ .

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها .

(٣) المقصد ص ٨٧ و ٩٠ — ٩٣ .

(٤) زبدة كشف الممالك ص ٤١ — ٤٥ و ١٣١ — ١٣٥ .

(٥) Demombynes : La syrie, pp. XIII—XVIII.

(٦) G. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV. (L'Egype Arabe), pp. 396—398.

(٧) Henri Lavoix : Catalogues des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie, pp 323—336.

(٨) Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 213—214.

(٩) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٩ .. Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 212.

(١٠) Demombynes : La Syrie, p. 141, note 2. Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 212,note 4.

ونتبين مدى نفوذ ذلك النائب من هذه العبارة التى أمدنا بها القلقشندى حيث يقول إنه « قائم بدمشق مقام السلطان فى أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ويكتب عنه التواقيع الكريمة ويكتب عنه المربعات (١) بتعيين إقطاعات الجند وتجهز الى الأبواب الشريفة فيشملها الخط الشريف السلطانى »(٢).

وكان نواب السلطنة فى الأقاليم يختارون من أصحاب الوظائف الحربية الذين كانت لهم الكلمة العليا فى الدولة . وكان نائب السلطنة فى دمشق يعمل على السيطرة على كل أصحاب الوظائف فى هذا الاقليم . وكان السلطان يراقب ذلك بعين ساهرة ويشعر النائب بوجود السلطة المركزية بالتدخل أحياناً فى ملء وظائف شاغرة ليست من اختصاص السلطان أو بإصدار الأوامر مباشرة الى مرءوسى النائب ، ومن أجل ذلك أيضاً كان السلطان يولى صاحب ديوان الانشا فى الأقاليم ليكون عيناً للسلطان على النائب فيبلغ الحكومة المركزية مايريد النائب اخفاءه عنها من الأمور(٣).

وقد أورد الأمير بيبرس الدوادار الذى تولى نيابة السلطنة فى دولة المماليك البحرية أسماء نواب الشام فى عهد السلطان خليل بن قلاوون وبين مدى نفوذ هؤلاء النواب فى هذه العبارة وهى « وهم آخذون من مهامها ، ضابطون لنظامها » . ومن هذا البيان يتضح لنا أن تعيين النواب لم يكن مقصوراً على النيابات الست التى ذكرناها ، بل كان يعين فى بعض أعمال الشام التى تقل أهمية عن هذه النيابات نواب للسلطنة تختلف سلطتهم ونفوذهم باختلاف الأعمال التى يتولون شئونها :

الأمير حسام الدين لاجين السلحدار	نائب السلطنة فى دمشق
« شمس الدين قراسنقر الجوكندار	« « « حلب
« سيف الدين بلبان الجوكندار	« « « صفد
« بيبرس الدوادار	« « « الكرك
« علم الدين سنجر أراجوس	« « « قلعة دمشق
« شمس الدين آقسنقر	« « « غزة
« بدر الدين كيملدى المنصورى	« « « حمص
« علاء الدين كشتغدى المنصورى	« « « الشوبك
« شمس الدين بلبان السلحدار	« « « الحصون الساحلية(٤)

(١) عن « المربعات » راجع ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٦٥ و ٣١٩ .
Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 724.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨٤ .

(٣) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 56

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٣ .

ومن التقليد الذى منحه السلطان كتبغا للأمير سيف الدين أغرلو العادلى بتعيينه فى نيابة السلطنة بدمشق والذى رواه القلقشندى ، يتبين مدى النفوذ الذى كان يتمتع به هؤلاء النواب والشروط التى يجب أن تتوفر فيمن يرشح لهذا المنصب السامى : « وأن نشر أمرها إلى من ينشر بها على الأمة لواء عدلنا ويبسط فيها بالرأفة والرحمة رداء فضلنا ويحيى بها سنن الاحسان التى مبدأ أيامها غاية من سلف من قبلنا ، ويقيم منار الملك من بأسه على أرفع عماد ، وينيم من عدله فى أوطأ مهاد ، ويكف أكف الظلم الى من يتجاسر إلى إعادة يده اليها عاد ومن عاد ، ويجرد إلى العدا من خياله وخيله سرابا تطرد عن موارد جفوفهم بقوائمها الرقاد وتستعيد عوارى أرواحهم من مستودعات أجسادهم ، فهى بحكم العارية غير مستقرة فى الأجساد ، ويصون الرتب عن تطرق من يفسد حولها لعـــدم أهليته . . . وينظر فى أمور الممالك الشامية نظراً عاماً ويعمل فى سداد ثغورها وسداد أمورها رأياً ثاقباً وفكراً تاماً ويلاحظ أموال ما بعد من البلاد كملاحظته أموال مادنا » (١) .

ومن أشهر نواب دمشق الأمير سيف الدين تنكز (٢) الذى نال حظوة كبيرة لدى السلطان الناصر محمد منذ تعيينه فى هذا المنصب فى شهر ربيع الأول سنة ٧١٢ هـ حتى أنه زوج ابنى تنكز من ابنتى السلطان نفسه . ولما عاد تنكز الى الشام بعد تمام مراسم الزواج كتب له الناصر تقليداً « بتفويض الحاكم فى جميع الممالك الشامية بأسرها وان جميع نوابها تكماتبه وأن تكون مكاتبته : أعز الله أنصار المقر الشريف بعد ما كانت : أعز الله أنصار الجناب ، وأن

---

(١) اقرأ نص تقليد الامير سيف الدين أغرلو نيـابة السلطنة بدمشق فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٨ — ١٢ .

(٢) أورد المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٥٤) تاريخ حياة تنكز فقال : « سيف الدين أبو سعيد خليل جلبه إلى مصر وهو صغير الخواجا علاءالدين السوسى . فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون فلما ملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمره إمرة عشرة قبل توجهه إلى الكرك وسافر معه إلى الكرك وترسل عنه منها إلى الافرم فاتهمه أن معه كتبا إلى الأمراء بالشام وعرض عليه العقوبة ، فأرجف منه وعاد إلى الناصر فقال إن عدت الى الملك فأنت نائب دمشق . فلما عاد إلى الملك جهزه إلى دمشق فباشر النيابة وتمكن فيها . . . وعظم شأنه وأمن الرعايا حتى لم يكن أحد من الأمراء يظلم ذميا فضلا عن مسلم خوفا من بطشه وشدة عقوبته . وكان السلطان لا يفعل شيء بمصر الا ويشاوره فيه وهو بالشام وقدم غير مرة على السلطان فأكرمه وأجله . . . وكان الناس فى أيامه قد أمنوا كل سوء الا أنه كان يتخيل خيالا فيحقد خلقه ويشتد غضبه فهلك بذلك كثير من الناس . . . ولم يزل إلى أن أشيع بدمشق أنه يريد العبور إلى بلاد التتر فبلغ ذلك السلطان فتنكر له وجهز اليه من قبض عليه فى ثالث عشر ذى الحجة سنة أربعين [وسبعمائة] وأحيط بماله . فلما وصل تنكز الى قلعة الجبل جهز الى الاسكندرية واعتقل فيها نحو الشهر وقتل فى مجلسه ودفن بها فى حادى عشر المحرم سنة احدى وأربعين وسبعمائة » . راجع ترجمة حياة تنكز أيضا فى ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢ .

يزاد فى ألقابه الزاهدى العابدى العالمى كافل الاسلام أتابك العساكر » (١) .

ويلى نائب دمشق فى المرتبة نائب كل من حلب وطرابلس وصفد والكرك . ويطلق على كل منهم اسم « نائب السلطنة الشريفة » ولم يكن لهؤلاء من السلطنة والنفوذ ما كان لنائب دمشق ، كما يقول المقريزى : « وبالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة بعد النائب بمصر سوى نائب الشام بدمشق فقط وانما كانت النيابة تطلق أحياناً على أكابر نواب الشام وليس لأحد منهم من التصرف ما كان لنائب دمشق . (٢) وكان يطلق على كل من نواب السلطنة ببلاد الشام اسم « ملك الأمراء » لقيامه مقام الملك فى التصرف والتنفيذ وقيام الأمراء على خدمته كخدمة السلطان (٣) .

ومن أشهر نواب الشام الأمير قَرَاسُنْقُر نائب حلب والأمير اسْنْدَمُر نائب طرابلس والأمير قَبْجَق المنصورى نائب حماه . وقد عرفوا بمناصرتهم للناصر وتأييدهم له حتى عاد بفضلهم الى السلطنة بعد أن اغتصبها منه لاچين ثم كتبغا على ما تقدم . على أن هؤلاء النواب لم يسيروا جميعاً فى حكم أهل الشام بالعدل والقسطاس المستقيم بل حكم بعضهم البلاد حكما جائرا . فقد ذكر العينى عند كلامه على حوادث سنة ٧١٠ هـ عن اسندمر نائب طرابلس فى عهد سلطنة الناصر الثالثة أنه أثار سخط الأهالى حتى حاصروه فى دار النيابة وقبضوا عليه وأرسلوه إلى الاسكندرية فسجن بها حتى مات . ثم كتب أهل الشام إلى السلطان الناصر « يشكون من نظام قراسنقر ، حتى قيل إن نهاراً واحداً عرضت على السلطان خمسون مطالعة بل أكثر منها كلها فى قراسنقر (٤) واسندمر » . فلما نظر السلطان الناصر فى هذه المظالم قال « واحسرتى قد خربت والله الشام ودعت الناس علينا بعد أن كانوا يدعون لنا . وهؤلاء الأمراء الذين فى الشام لو بعثت وراءهم بالطلب ما يجيئون وربما يفسدون على الأمر وإن خليتهم أخربوا البلاد وأهلكوا العباد » (٥) . ومن قول الناصر « لو بعثت وراءهم ما يجيئون » نستدل على سطوة نواب الشام حتى فى عهد سلطنته الحقيقية . وليس أدل على صحة هذا القول من هذه العبارة التى أوردها أبو المحاسن على لسان السلطان كتبغا الذى قال بعد أن علم

---

(١) راجع ابن أياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢ حيث تجد تفصيلا لتاريخ حياة تنكز وعلاقته بالسلطان الناصر وما تمتع به من ألقاب .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٥ Demombynes : La Syrie, p. 141

(٤) أورد Mayer : Saracenic Heraldry, p.183—184 ألقاب قراسنقر كما يلى : « المولى الأمير الكبير المجاهد المرابط الخاضع لربه المنان المفتقر الى عفو الله والرضوان شمس الدنيا والدين قراسنقر » .

(٥) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ القسم الأول ص ٢١٢ و ٢١٤ .

بأن نواب الشام قد حلفوا له يمين الطاعة والولاء بعد امتناعهم وإبائهم «الآن تم لى الملك»(١).

ومن أشهر الذين تولوا منصب نيابة السلطنة المملوكية: سيف الدين قُطلُشاه وعز الدين الأشرم، وحسام الدين طرنطاى وبدر الدين بَيْدَرا، وزين الدين كتبغا، وسيف الدين سلار، وركن الدين بيبرس الدوادار، وبكتمر الجوكندار الكبير، وسيف الدين أرغون الدوادار، ولم يتول النيابة أحد بعده فى عصر الناصر محمد، وآخر من تولاها فى مصر فى عهد الناصر الأمير طُقْطُز دمر الحموى الساقى (٢). وتولى منصب نيابة السلطنة فى دمشق: الأمير عز الدين أيبك الحموى وجمال آقوش الأفرم، وشمس الدين قراسنقر، وسيف الدين كراى، وجمال الدين آقوش نائب الكرك، وسيف الدين تمكز. وعلاء الدين الطنبغا (٣) وسيف الدين منجك.

وقد ضعفت نيابة السلطنة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثم الغيت مع الوزارة سنة ٧٢٧ هـ ولكنها أعيدت ثانية سنة ٧٤٢ فى عهد ابنه أبى بكر وذلك سنة ٧٤٢ هـ (٤). ثم زالت نهائيا أثناء حكم السلطان الظاهر برقوق (٥). ويظهر أن وظيفة النيابة قد انحطت فى عهد دولة المماليك البرجية، بدليل ما ذكره المقريزى من أنه قد «اختلت الآن الرسوم واتضعت الرتب وتلاشت الأحوال وعادت أسماء لا معنى لها وخيالات حاصلها عدم» (٦)

وكان آخر من تولى نيابة السلطنة الأمير سودون الشيخى. ولم يل أحد هذه الوظيفة فى عهد السلطان برقوق حتى جاء السلطان الناصر فرج فأقام الأمير تمراز فى النيابة ولكنه لم يقم فى دار النيابة فى القلعة ولم يتعد نفوذه نفوذ حاجب الحجاب ولم يتولها أحد من بعده (٧).

٢ — الأتابك: (٨)

والأتابك هو القائد العام لجيوش الدولة. وأتابك لفظ تركى مركب من كلمة «أطا» بمعنى أب، وكلمة «بك» بمعنى السيد أو الأمير، فيكون الأتابك هو السيد الأب أو الأمير

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٤٣.

(٢) أورد Mayer: Saracenic Heraldry, p.235

(٣) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٥١ ب.

(٤) اقرأ نص تولية نيابة السلطنة للامير طقزدمر فى عهد السلطان أبى بكر محمد الناصر سنة ٧٤٢ هـ فى القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٨ ص ١٤٣ — ١٤٨. انظر أيضا المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣١٤

(٥) القلقشندى: نفس المصدر جـ ٤ ص ١٧.

(٦) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص ٢١٥.

(٧) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٢١٥. وأشار ابن شاهين (زبدة كشف الممالك ص ١١٢) الى أن آخر من ولى وظيفة نائب السلطنة هو الأمير الطنبغا العثمانى.

(٨) رأيت أنه من الأفضل تقديم وظيفة نائب السلطنة على وظيفة الأتابك، بغض النظر عن أن الأتابك كان فى بعض الأحيان تطغى سلطته على سلطة نائب السلطنة.

الأب أى أب الأمراء . (١) وقد أطلق السلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقى (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) لفظ أتابك على وزيره نظام الملك حين فوض اليه تدبير أمور المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقبه بعدة ألقاب من بينها هذا اللقب . وبذلك كان نظام الملك هو أول من تلقب بلقب أتابك (٢) وكان السلاجقة يطلقون هذا اللفظ على كبير من أمرائهم يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير . وكثيراً ماتزوج الأتابك من أم الموصى عليه ، فتصبح العلاقة بين السلطان وبين وصيه شبه أبويه .

وقد أطلق هذا اللقب فى عهد المماليك على مقدم العساكر أو القائد العام ، لأنه كان يعتبر أبا العساكر والأمراء جميعا ، وكان يسمى أتابك العساكر . ويعد الأتابك أكبر أمراء المئين ويليه فى المرتبة نائب السلطنة . ولم تكن له وظيفة « ترجع إلى حكم وأمر ونهى وغايته رفعة المحل وعلو المقام » . (٣)

وكثيرا ما اغتصب الأتابكة عروش أبناء سادتهم . وباعتلاء الناصر العرش ، نرى أن عهد استئثار الأتابكة بالسلطة ووقوع السلطان تحت نفوذهم الفعلى قد سار سيرته الأولى وأن الناصر أصبح فى ذلك العهد ألعوبة فى يد أتابكه الأميرزين الدين كتبغا المنصورى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) الذى استحوذ على السلطة والنفوذ وانتهى الأمر باعتلائه العرش سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ م) .

٣ — الوزير

ويلى نائب السلطنة فى المرتبة الوزير (٤) . والوزارة ليست من مستحدثات الحكم فى دولة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ . الخالدى : المقصد ص ١٣٤ .

وكان هذا اللقب يطلق فى البداية على المؤدب والوصى على الأمراء الترك فى الأسرة السلجوقية . وقد كان هؤلاء الأمراء يعهد بهم منذ صغرهم إلى أمير كبير يقوم بتربيتهم ويكون لهم بمثابة الأب . ثم أصبح هذا اللفظ لقباً دائماً منح لبعض الأمراء الأقوياء (راجع مادة « أتا » فى دائرة المعارف الاسلامية)

وفى بعض المصادر أن هذا اللقب كان لا يمنح إلا عند ما لا يكون هناك نائب للسلطنة . ويستنتج من ذلك أن مرتبة الأتابك كانت تلى مرتبة نائب السلطنة . انظر :

Van Berchem : Corpus, Egypte I , 276, 290

(٢) القلقشندى : نفس المصدر والجزء والصفحة . Demombynes : La syrie, p. LV.

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٨ .

(٤) « الوزير » كلمة مشتقة من الوَزَر وهو الثقل لأن الوزير يحمل أعباء المملكة أو من الوَزْر الملجأ والمعتصم ، بمعنى أنه يلجأ اليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره . ابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٧ . وقيل إنها مشتقة من الأوزار وهى الأمتعة لأنه يتكفل بأمتعة الملك وما فى خزانته . وقيل أيضا من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى به تقوى البدن بالظهر . الخالدى : المقصد ص ١٢٥ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٣ — ٩٤ .

المماليك ، فهى فارسية الأصل . أخذها العباسيون عن الفرس ضمن ما اقتبسوه من نظم الحكم (١) . ولم تعرف الوزارة فى مصر قبل عهد الاخشيديين (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) ، حيث وليها الوزير جعفر بن الفرات . وكانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٦٢ — ٤٦٥ هـ) « وزارة تنفيذ » (٢) . وأصبحت فى العصر الفاطمى الثانى (٤٦٥ — ٥٦٧ هـ) « وزارة تفويض » فتمتع الوزراء بسلطة مطلقة . واعتلى الوزارة فى أواخر أيام العاضد الفاطمى (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) أسد الدين شيركوه ثم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية فيما بعد . واتخذ سلاطين الأيوبيين فى مصر وزراء لم تعد سلطتهم سلطة وزراء التنفيذ ، بمعنى أن هؤلاء السلاطين قد عملوا على الحد من نفوذهم باستحداث نظام نيابة السلطنة فأصبح النائب تبعاً لهذا النظام يلى السلطان فى المرتبة ويتمتع بكل ما كان يتمتع به الوزير من قبل ، على أن سلطة الوزير فى عهد الأيوبيين — رغم هذا — لم تضعف إلى حد كبير ، بدليل ما ذكره بعض المؤرخين من أمثال العمرى والقلقشندى والمقريزى ، فالوزارة فى نظرهم « أعلى الوظائف وأسناها بعد السلطنة وصاحبها هو باب الملك المقصود ولسانه الناطق ويده الباسطة » (٣) . و « أجل الوظائف وأرفعها رتبة فى الحقيقة » (٤) و « أجل رتب أرباب الأقلام لأن متوليها ثانى السلطان إذا أنصف وعرف حقه » (٥)

ولننتقل الآن إلى الكلام على نظام الوزارة فى ذلك العصر ، لنرى الى أى حد قد تطور هذا النظام فى ذلك العصر . وقد هدانا البحث إلى أن وزراء هذا العصر لم يتمتعوا بنفوذ مطلق لاستمرار نظام نيابة السلطنة الذى استحدث فى مصر وسار عليه المماليك ، ولأن الذين شغلوا هذا المنصب الأخير احتفظوا بسلطانه وكانوا ذوى شخصية عظيمة . وقد ذكر العمرى أن الوزارة تضاءلت وتأخرت بسبب ذلك « وقعدها مكانها حتى صار المتحدث فيها كمناظر

---

(١) كانت الوزارة فى عهد العباسيين نوعين : وزارة التنفيذ وتكون فيها مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقاء نفسه . ووزارة التفويض وهى أن يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل يفوض اليه النظر فى أمور الدولة والتصرف فى شئونها دون الرجوع اليه . ابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٦ — ١٣٧ . الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢١ — ٢٨ . مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٢) كان أول وزراء الفاطميين فى مصر يعقوب بن كلس . وبوفاته تحولت الوزارة إلى مايسمونه « الوساطة » . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ) ثم عادت الوزارة فى عهد الخليفة الفاطمى الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ هـ) . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٤٩ . المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار ج ٥ ص ٤٣٩ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٨ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣ .

المال لا يتعدى الحديث فيه ولا يتسع له فى التصرف مجال ولا تمتد يده فى الولاية والعزل لتطلع السلطان الى الاحاطة بجزئيات الأحوال » (١) .

على أن الحد من سلطة الوزير لم يجعل هذا الموظف كمية مهملة . فقد حرص الظاهر بيبرس على اختيار وزرائه من أرباب الأقلام والسيوف (٢) فاذا كان الوزير من أرباب الأقلام أطلق عليه اسم « الصاحب » (٣) ، ثم أضيف الى هذا اللقب لقب آخر هو « الوزير » وغدا يطلق عليه « الصاحب الوزير » (٤) أو « وزير الصحبة » ، وهو وزير متنقل يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف شئون الوزاره . واذا كان الوزير من أرباب السيوف اكتفى بتلقيبه بالوزير دون الصاحب ، وهو بهذا الاعتبار الوزير الأصلى الذى يحضر مجلس السلطان مع أمراء المئين ويتصرف فى جميع أمور المملكة (٥)، ويتميز عن غيره بدق الطبلخاناه على بابه (٦) .

ومن ذلك نرى أن سلاطين المماليك كانوا يعينون وزيرين فى وقت واحد : أحدهما وزير الصحبة ويعين من أرباب الأقلام ، والثانى الوزير ويعين من أرباب السيوف . على أن السلطان الناصر لم يعن بتمكين وزرائه من معاونته فى إدارة شئون الدولة — كما كانت الحال فى عهد الفاطميين والأيوبيين — بل أضعف نفوذهم حتى إن اختصاصهم لم يعد تنفيذ أوامر السلطان والنائب والنظر فى أمور الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة الذى يشبه وزير المالية اليوم بعد أن كانت سلطته تتناول كافة شئون الدولة . ويقول ابن خلدون عن مركز الوزير فى عهد المماليك : « ثم جاءت دولة الترك آخراً بمصر ، فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها

---

(١) مسالك الأبصار حـ ٥ ص ٤٣٩ .

(٢) عن « ارباب الاقلام والسيوف » راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I. , p. 243.

(٣) راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I. , pp. 403 - 404.

(٤) لم يكن اطلاق لقب الصاحب على الوزير من مستحدثات المماليك وانما يرجع إلى ايام بنى بويه الذين استبدوا بالسلطة فى بغداد (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) فقد اطلق لقب الصاحب على الوزير اسماعيل بن عباد الذى كان يصحب مؤيد الدولة ابا منصور بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمى صاحب بلاد الرى فسماه الصاحب لأنه كان يخصه بعطفه ومحبته . ومن ثم تلقب الوزراء من بعده بالصاحب (الخالدى : المقصد ص ١٢٦) . ولم يطلق لقب الصاحب على أحد من وزراء الخلفاء العباسيين فى بغداد او الفاطميين فى مصر إلى ان جاء الأيوبيون . فلقب السلطان العادل والسلطان الكامل الوزير صفى الدين عبدالله بن شكر بلقب « الصاحب » الذى اصبح يطلق على وزراء مصر من ارباب الأقلام (المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٢٣) . وقد علل الخالدى سبب تلقيب الوزراء بهذا اللقب بقوله إن « الوزير صاحب رأى الملك وتدبير أمره » (المقصد ص ١٢٦) .

(٥) انظر وصية وزير فى العمرى : التعريف ص ٩٣ — ٩٤

(٦) الخالدى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور . ونظرُه مع ذلك متعقَّب بنظر الأمير، فصارت مرءوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية فى الدولة من اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد . وبقى اسم الحاجب فى مدلوله ، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية » (١) .

على أن ذلك لم يكن حال جميع الوزراء الذين تولوا منصب الوزارة فى ذلك فقد تولاها رجال عرفوا بالكفاءة وحسن تصريف الأمور . وكان بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم المعروف بابن حِنا أول من تقلد الوزارة فى دولة المماليك البحرية وقد وزر للسلطان الظاهر بيبرس . فكان بيبرس يرجع إليه فى أمور الدولة ويعتمد عليه فى تنفيذ رغباته وأوامره . على أنه لم يتمتع بما كان يتمتع به وزراء التفويض مثلا فى الدولة العباسية من نفوذ وجاه ، لاستبداد بيبرس بالسلطة وقيام نائب السلطنة مقامه فى أثناء غيابه ، وتدخله فى تعيين كبار موظفى الدولة . ومع ذلك فان هذا الوزير كان ينعم — على رغم هذا — فى ظل بيبرس بمنزلة سامية ومقام رفيع . ويتبين لنا ذلك واضحاً جلياً من تلك الرسالة التى خاطبه بها محيى الدين ابن عبد الظاهر فى أثناء وجوده مع السلطان بيبرس فى قيسارية سنة ٦٧٥ هـ ، تلك الرسالة التى عبر فيها ابن عبد الظاهر عما كان يتمتع به هذا الوزير من منزلة لم يصل اليها غيره إلا القليل من وزراء مصر ، على ما نراه مبسوطا كل البسط فى كتاب صبح الأعشى للقلقشندى (٢) . ولما توفى بيبرس وتولى سلطنة مصر الملك السعيد أقر ابن حنا فى الوزارة وكتب له تقليداً أشاد فيه بمواهبه وكفايته وأطنب فى صفاته العالية وما امتاز به من سمة العلم والتفقه فى الدين والتحلى بآدابه والتمسك بأهدابه . وتوفى هذا الوزير سنة ٦٦٧ هـ

ومن أشهر وزراء مصر أيضاً الأمير علم الدين سنجر الشجاعى فى عهد السلطان قلاوون . وهو أول من ولى الوزارة من الأمراء ، وأول من ضرب على بابه الطبلخاناه ، كما كانت الحال بالنسبة إلى وزراء الخلفاء العباسيين فى بغداد . (٣)

على أن الوزراء لم يتمتعوا طوال هذا العهد بقسط وافر من النفوذ . وظل الحال على ذلك حتى تولى الأمير شمس الدين محمد بن عثمان المعروف بابن السَّلْعُوس ، وهو الذى عهد إليه السلطان خليل بن قلاوون تصريف شئون البلاد ، فكان هو الحاكم بأمره ، يخشاه كبار رجال الدولة ويأتمرون بأمره ويضعون أنفسهم رهن إشارته . وفى ذلك يقول بيبرس الدوادار

---

(١) مقدمة ص ٢٠٨ .

(٢) جـ ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥ .

(٣) انظر نص تقليد الوزارة للصاحب بهاء الدين بن حنا فى عهد السلطان سعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٢٧٠ — ٢٧٤ .

إنه لما تسلطن الأشرف فى ذى القعدة سنة ٦٨٩ هـ أرسل فى طلب ابن السلعوس من الحجاز وحثه على الحضور برسله وكتبه حتى لقد قيل إنه كتب اليه بخطه فى أثناء كتابه : « ياشقير ياوجه الخير تعجل بحضورك لتسلم وزارة الديار المصرية والشامية . فساعة وصوله أفاض عليه خلعة الوزارة وقدمت له الدواة والبغلة من غير مهلة . فبسط يده و لسانه وقوى جنابه وجنانه وأظهر من العظمة والكبرياء والعجب والخيلاء أمراً كبيراً وتجرد فى خدمته بعض المماليك السلطانية فكانوا يركبون فى خدمته ويقفون إذا جلس فى مجلسه وصار يركب فى موكب كبير من الجند وأصحاب الدواوين وغيرهم من المتعممين ووسع له السلطان فى الجامكية والرواتب وألقى مقاليد الدولة إليه وأحال الأمراء والكبراء فى أشغالهم عليه فكان منهم من يقبل يديه إذا عرضت له حاجة الى غير ذلك من أمور تعاطاها وأحوال من الكبر والزهو أتاها »[1] . وأضاف المقريزى الى ما ذكره بيبرس الدوادار عن عظمة هذا الوزير واتساع نفوذه أنه « تمكن تمكناً لم يتمكنه وزير قبله فى الدولة التركية ، وصار اذا أراد الركوب الى القلعة اجتمع ببابه نظار الدولة ومشدّ الدواوين ووالى القاهرة ومصر ومستوفو الدولة ونظار الجهات ومشدو المعاملات ونحوهم من الأعيان ثم يحضر قضاة القضاة الأربعة وأتباعهم ، فاذا تكامل الجميع ببابه دخل اليه حاجبه وقال : أعز الله مولانا الصاحب ، قد تكمل الموكب »[2] . وقد عظم أمر الوزير ابن السلعوس حتى صارت تقرأ عليه الظلامات ويبت فى أمرها دون عرضها على السلطان ، وأصبح صاحب الكلمة العليا فى مصر والشام[3] . وانتهت حياته بالقتل .

وفى عهد السلطان لاچين تولى الوزارة الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعسر (جمادى الأولى سنة ٦٩٦ هـ) ، وهو من أظهر وزراء دولة المماليك . وقد أراد التشبه بابن السلعوس ، فقبض على زمام الأمور بنفسه ، وتعاظم على الأمراء وكبار رجال الدولة . وتعدى ذلك الأمر إلى السلطان نفسه ، حتى إنه كان إذا أراد أن يستشيره فى أمر من أمور الدولة أجابه إجابة مقتضبة تنم عن عدم الاكتراث لمقام مولاه ، حتى انه اضطر الى عزله عن منصبه ، وعبر عن استيائه منه وسخطه عليه بقوله : « ماله عندى ذنب غير كبره فانى كنت إذا دخل علىّ أحسب أنه هو السلطان وأنا الأعسر ، فصدره منقام وحديثى معه كأنى أحدث أستاذى[4] » .

وفى سلطنة الناصر الثانية تولى الوزارة الأمير عز الدين أيبك البغدادى (١٠ المحرم سنة ٧٠١ هـ) . وفى عهده ظهرت عظمة الوزارة حتى صارت فى مرتبة نيابة السلطنة . يدل على ذلك ما ذكره Zetterstéen من أنه فى يوم توليه « جلس بالقلعة وحكم وطلع إليه جميع أرباب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ورقة ١٤٥ .
(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٦١ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٢٣ .
(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٨٤ .

المناصب والأعيان والأمراء والمقدمين وهنوه وقبّلوا أياديه ، وفى ثانى يوم قعد حكم وأمر ونهى وطلب من المستخدمين ما ينبغى طلبه من الحساب » (١) . والأمير عز الدين أيبك هو رابع الوزراء الذين سمح لهم بدق الطبلخاناه على أبوابهم (٢) .

وألغيت الوزارة مع نيابة السلطنة سنة ٧٢٧ هـ ، وأعيدت سنة ٧٤٤ هـ كما تقدم . فكان أول من تولاها الأمير سيف الدين بكتمر فى عهد السلطان أبى بكر بن الناصر . وقد أورد لنا القلقشندى نص تقليد هذا الأمير الوزارة (٣) . ومنه نتبين العوامل التى أدت إلى إعادة هذا المنصب بعد أن ظل شاغراً سبع عشرة سنة ، وظن الناس أن الوزارة قد زالت زوالا لا رجوع بعده .

ومن أشهر وزراء مصر فى عهد أولاد الناصر محمد الأمير سيف الدين منجك الذى تقلد هذا المنصب سنة ٧٤٨ هـ فى عهد السلطان الناصر حسن ، والذى أمر على أثر اضطلاعه بأعباء الحكم « أن لا يستقر فى المعاملات سوى شاهد واحد وعامل وشاد بغير معلوم ، حتى إن كتاب الدواوين خشوا عاقبة إهمالهم واتفقوا على أن يجمعوا مبلغ من المال يسلمونه إلى منجك سراً فعدل منجك عن رأيه وصار الكتاب وأرباب الدواوين من أقرب الناس وأحبهم إليه . على أن هؤلاء لم يكتفوا بذلك بل زينوا له الاستيلاء على أموال الناس بغير حق وسمع بذلك الولاة وأصحاب الحاجات . فهرع الناس إليه من مصر والشام وقصدوا واتخذ الوزير لنفسه وسطاء لجمع الرشوة ، وأخذ يولى من يشاء ويعزل من يشاء ويستحوذ على أموال الناس بالباطل ، وأصبح بقاء العمال فى ولاياتهم متوقفاً على ما يقدمونه اليه من المال (٤) » ، وظل الحال على ذلك حتى عزل عن الوزارة . فكان أسوأ مثال للوزير فى ذلك العصر .

وكان لكل من نيابات الشام وزير يتمتع فى نيابته بما يتمتع به الوزير فى مصر ، بمعنى أنه كان يتمتع بكثير من النفوذ تارة ويضعف شأنه تارة أخرى وكان لا يسمح له بأن يلقب بالوزير بل يطلق عليه اسم « ناظر المملكة الشريفة » وإن كانت العامة مع ذلك تجرى على عادتها فى إطلاق لفظ الوزير عليه على حين كان يطلق عليه فى مصر « ناظر النظار »(٥) حتى أنه لا يوجد فى القلقشندى سوى تعريف بصاحب وظيفة ناظر النظار بدمشق فقط ونصه :

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٩٧ .

(٢) الثلاثة الأول هم الأمير علم الدين سنجر الشجاعى المنصورى ، والأمير بدر الدين بيدرا ، والأمير شمس الدين سنقر الأعسر .

(٣) انظر نص تقليد الوزارة للامير سيف الدين بكتمر فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ١٤٩ — ١٥٣ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ٣١٩ .

« وهو الذى يقوم بها بالديار المصرية »(١) . ويستنتج من هذا التعريف أن ناظر النظار بالديار المصرية يسمى أيضاً ناظر الدواوين أو ناظر الدولة ، ويعبر عنه فى مصطلح الدواوين باسم صاحب « الصحبة الشريفة » أى أنه يتحدث مع الوزير فى كل ما يتحدث فيه ويشاركه فى الكتابة فى كل ما يكتب ويوقع فى كل ما يوقع فيه . وإذا كان الوزير صاحب سيف تولى « الناظر » الإشراف على شئون الدولة المالية واقتصرت مهام الوزير على التنفيذ(٢) . وكان الوزير يعين من قبل السلطان مباشرة ، ويصدر بتعيينه تقليد سلطانى ، وإن تقلد الوزارة أحد من أرباب السيوف عين معه « ناظر مملكة »(٣) .

وفى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) ألغى السلطان الناصر كلا من منصبى الوزارة ونيابة السلطنة فى وقت واحد « وعطل جيد المملكة من عقودها »(٤) . ومن ثم لم يتخذ الناصر وزيراً بل اعتمد على « ناظر الدولة » ، ثم استحدث وظيفة « ناظر الخاص » ليستعين به على إدارة شئون البلاد . على أن المصادر التى بين أيدينا لم تبين لنا سبب عدول السلطان الناصر عن هذا النظام الذى كان قائماً فى عهده وفى عهد من سبقه من سلاطين مصر ، بيد أن هذا لا يمنع من أن ندلى بالرأى الذى نراه وهو أنه إنما ألغى نظام الوزارة لينفرد بالسلطة ويستبد بالنفوذ والسلطان ويحول بذلك دون تدخل بعض الوزراء فى أمور الدولة تدخلا قد يؤدى إلى الحد من نفوذه أو ينتهى بعزله . ومن أظهر الأدلة على صحة هذا الرأى الوزير الشجاعى الذى كان له ضلع كبير فى إثارة الفتنة التى انتهت بخلعه عن سلطنته الأولى سنة ٦٩٤ كما ذكرنا .

على أن الوزارة لم تلبث أن أعيدت بعد وفاة الناصر بقليل . ومر هذا النظام بعد إعادته بأدوار يكتنفها التقلقل والاضطراب إذ سرعان ما كانت توأد عقب احيائها ثم لا تلبث أن تعود حتى تموت . ذلك أن الوزارة قد أعيدت فى سنة ٧٤٤ هـ ثم ألغيت سنة ٧٤٦ هـ وعادت بعد قليل . ثم ألغيت فى سنة ٧٤٧ هـ حيث استمرت إلى آخر دوله المماليك البحرية .

وفى عهد السلطان الناصر برقوق أول سلاطين دولة المماليك البرجية ألغيت الوزارة وتناوبتها الاعادة تارة والالغاء أخرى واضمحل شأنها وضعف نفوذ شاغلها و « تقاصرت حتى لم يبق منها إلا الاسم دون الرسم »(٥) .

وكان أشهر وزراء عصر دولة المماليك البحرية هم علم الدين الشجاعى وتاج الدين بن حنا ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٥ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦٥ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ١٢ ص ٣٣ . الخالدى : المقصد ص ١٤٥ .
Demombynes : La Syrie, p. 140, note 4.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٨ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٥) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ١٢٤ .

وفخر الدين الخليلي (مرتين) وشمس الدين سنقر الأعسر، وسيف الدين البغدادي، وناصر الدين الشيخي، وأيبك الأشقر وسمي المدبر، وابن عطايا، وابن الشابي، وابن التركماني، وسنمشك، والصاحب أمين الدين (عدة مرات)، والأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، والأمير علم الدين مغلطاي الجمال وغيرهم[١].

وكان الوزير يتناول راتباً شهرياً قدره مائتان وخمسون ديناراً، عدا ما خصص له في كل يوم من مقادير وفيرة من الغلال واللحوم والخبز والشمع والزيت وعليق دوابه، ومقادير اللحم التي ترسل إلى داره في شهر رمضان والعيدين والكسوة التي تخلع عليه في كل سنة[٢].

٤ — والي القاهرة :

غير أن شئون الادارة والحكم استلزمت تعيين موظف كبير عرف باسم «والي القاهرة» ويُعدّ في الواقع من أهم الموظفين الإداريين، فقد كان — على ماذكره القلقشندي — «الذي يستعلم عن متجددات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك في كل يوم من نوابه ثم تكون مطالعة جامعة بذلك وتحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها»[٣]. وهو الذي ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر، يعاقب كلاً من هؤلاء على حسب جريمته. ومن اختصاصه أيضاً مراقبة أبواب القاهرة والطواف بأحياء التجارة والمال. وكان «لا يمكنه النوم خارج المدينة إلا بمرسوم خوفاً من حريق أو مفسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك، وتدق له طبلخاناه وكان يكتب له مرسوم بالولاية»[٤].

ومما رواه المقريزي عن أعمال الأمير قدادار والي القاهرة في عهد السلطان الناصر نتبين مدى السلطة التي تمتع بها ذلك الموظف. ذلك أن السلطان الناصر كان قد عزل الأمير علم الدين سنجر الخازن والي القاهرة عن منصبه لأنه لم يتمكن من إعادة الأمن إلى نصابه حين «توقف الحال وطمع السوقة في الناس»، وعين الأمير قدادار والي البحيرة مكانة سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م)، فبدأ عهده بتعقب المفسدين ومثيري الفتن والقلاقل في البلاد واشتد في معاقبة اللصوص ومدمني الخمر حتى إنه «أخذ يتتبع من عصر الخمور وأحضر عريف الحمالين وألزمه إحضار من كان يحمل العنب. فلما حضروا عنده استملاهم أسماء من يشترى العنب ومواضع مساكنهم ثم أحضر خفراء الحارات والأخطاط ولم يزل بهم حتى دلوه على سائر من عصر الخمور فاشتهر ذلك بين الناس وخافوه... ثم ركب وكبس خط باب اللوق وأخذ منه شيئاً

---

(١) المنهل الصافي ج ٣ ص ٢٥١ أ.

(٢) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٣٢٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠

(٤) الخالدي: المقصد ص ١٢٨.

كثيراً من الحشيش وأحرقه » (١) . وعظم شأن الأمير قدادار فقسا فى معاملة الناس واشتد سفكه للدماء . وأمر ألا يفتح التجار حوانيتهم بعد العشاء ولا يمشى أحد بالليل فى الأسواق ولا يخرج الناس من بيوتهم فى المساء فامتنعوا عن الخروج حتى صارت الطرقات موحشة مقفرة ورتب الأمير قدادار الخفراء للسير ليلا فى جميع الحارات فضاق الناس به ذرعا وحنقوا عليه وكرهوه . ولكن السلطان الناصر لم يأبه لذلك وأصدر مرسوما لعماله وولاته يقضى بأن « أحداً منهم لا يقتص ممن وجب عليه القصاص فى النفس أو القطع إلا أن يشاور فيه ويطالع بأمره ماخلا قدادار متولى القاهرة » . فاشتد الكرب على الناس وكثرت الشكايات منه فعزله الناصر سنة ٧٢٩ هـ وعين بدلا منه الأمير ناصر الدين بن المحسنى فأقام فى ولايته إلى أن مات سنة ٧٣٠ هـ (٢) .

وكان والى القاهرة يطلق عليه أحياناً « صاحب العسس » (٣) أو والى الطوف (٤) وهو الاسم الذى عرف به عند العامة وكان يجلس بعد صلاة العشاء أحياناً بمحطة المطافىء التى اتخذها المماليك بسوق الجمالون الكبير بالقرب من حارة الجودرية بالغورية ويوضع أمامه مشعل يشعل طول الليل ومعه السقاءون والنجارون وغيرهم من العمال حتى إذا حدث الحريق بالليل بادروا إلى اطفائه . وكان والى الطوف يتولى محاكمة كل من يقبض عليه من اللصوص أو السكارى والحكم عليه بما يناسب الجريمة التى ارتكبها . على أن الطواف فى هذا السوق ليلا قد بطل بعد قليل (٥) .

ويعمل بجانب والى القاهرة الذى اقتصر نفوذه على العاصمة وضواحيها عدة ولاة آخرين لكل منهم عمل خاص به ، وأهمهم : والى الفسطاط ويحكم بمصر (أى فى الفسطاط والعسكر والقطائع) ، ويختار من أمراء العشرات . ووالى القرافة ومقره القاهرة ويشرف على إدارة الأمن فى جهات القرافة ويحكم نيابة عن والى الفسطاط ويعين من بين أمرات العشرات . ومن هؤلاء الولاة والى القلعة أو « نائب القلعة » ويختار من أمراء الطبلخانات ويشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير المخصص لخروج الجند ودخولهم (٦) كما يتفقد أسوار القلعة ومنافذها ويعمل على إصلاحها ثم أصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٣) العسس : الطواف بالليل لتتبع أهل الريب .

(٤) كان والى القاهرة يسمى بأسماء متعددة تختلف باختلاف الأقاليم التى يقيم فيها فيطلق عليه فى أفريقية (بلاد تونس الحالية) اسم « الحاكم » ، كما كان يسمى فى الأندلس « صاحب المدينة » .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٠٣ . السبكى : معيد النعم ص ٩٣ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢ — ٢٣ .

الخصومات [١] وكان لنائب القلعة نظير فى نيابات الشام حيث كان يصدر بتعيينه مرسوم سلطانى يكتب بديوان الانشاء ، كما كان يختار من أمراء الطبلخاناه . وقد أجمل القلقشندى اختصاصات نائب القلعة فى هذه العبارة فقال إنه كان يتولى « أمر حفظها وصونها ولا يسلم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه أو لمن يأمره السلطان بتسليمه له »[٢] . وكان من واجب نائب القلعة أو الحصن الموجود فى الاقليم أن يتجسس على النائب ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان [٣] .

وبذلك كان لكل قلعة أو حصن حاكم حربى أو نائب . وكان هـــذا النائب فى معظم الأحيان مستقلا عن نائب السلطنة فى الاقليم وتابعاً للحكومة المركزية رأساً . ومن هذه قلاع القاهرة ودمشق وحلب وصفد والكـرك [٤] .

وقد أورد العمرى نص اليمين التى كانت تؤخذ على نواب القلاع عند تعيينهم فى وظائفهم فقال : « وانى أجمع رجال هذه القلعة على طاعة مولانا السلطان وخدمته فى حفظ هذه القلعة وحمايتها وتحصينها والذبّ عنها والجهاد دونها والمدافعة عنها بكل أنواع ما فيها من الأقوات والأسلحة . وانى لا أخرج شيئاً منها إلا فى أوقات الحاجة والضرورة الداعية المتعين فيها تفريق الأقوات والسلاح على قدر ماتدعو الحاجة إليها . وانى أكون فى ذلك كواحد من رجال هذه القلعة ، وكل واحد ممن يتبعنى كواحد ممن يتبع أتباع رجال هذه القلعة لا أتخصص ولا أمكن التخصيص . وانى والله والله والله لاأفتح أبواب هذه القلعة إلا فى الأوقات الجارى بها عادة فتح أبواب الحصون وأغلقها فى الوقت الجارى به العادة ولا أفتحها إلا بشمس ولا أغلقها إلا بشمس . وانى أطلب الحراس والدراجة وأرباب النواب فى هذه القلعة بما جرت به العوائد اللازمة لكل منهم بما فى ذلك جميعه مصلحة مولانا السلطان[٥] .

٥ — ولاة الاقاليم : الادارة المحلية .

يمثل هؤلاء الموظفون الذين سبقت الاشارة إليهم الادارة المركزية فى القاهرة وضواحيها . أما فى الأقاليم فكانت الادارة المحلية ممثلة فى الوالى ، إذ كان يشرف على كل عمل من أعمال الوجهين البحرى والقبلى فئة من الموظفين على رأسهم والى الاقليم . وكانت مهمة الوالى — سواء فى القاهرة أم فى الأقاليم — العمل على استتباب الأمن والنظام وبث الطمأنينة فى النفوس والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم .

---

(١) الخالدى : المقصد ص ٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٥ .

(٣) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 56.

(٤) Van Berchem : Corpus, Egypte I, pp. 210—211

(٥) العمرى : التعريف ص ١٤٨ — ١٤٩ .

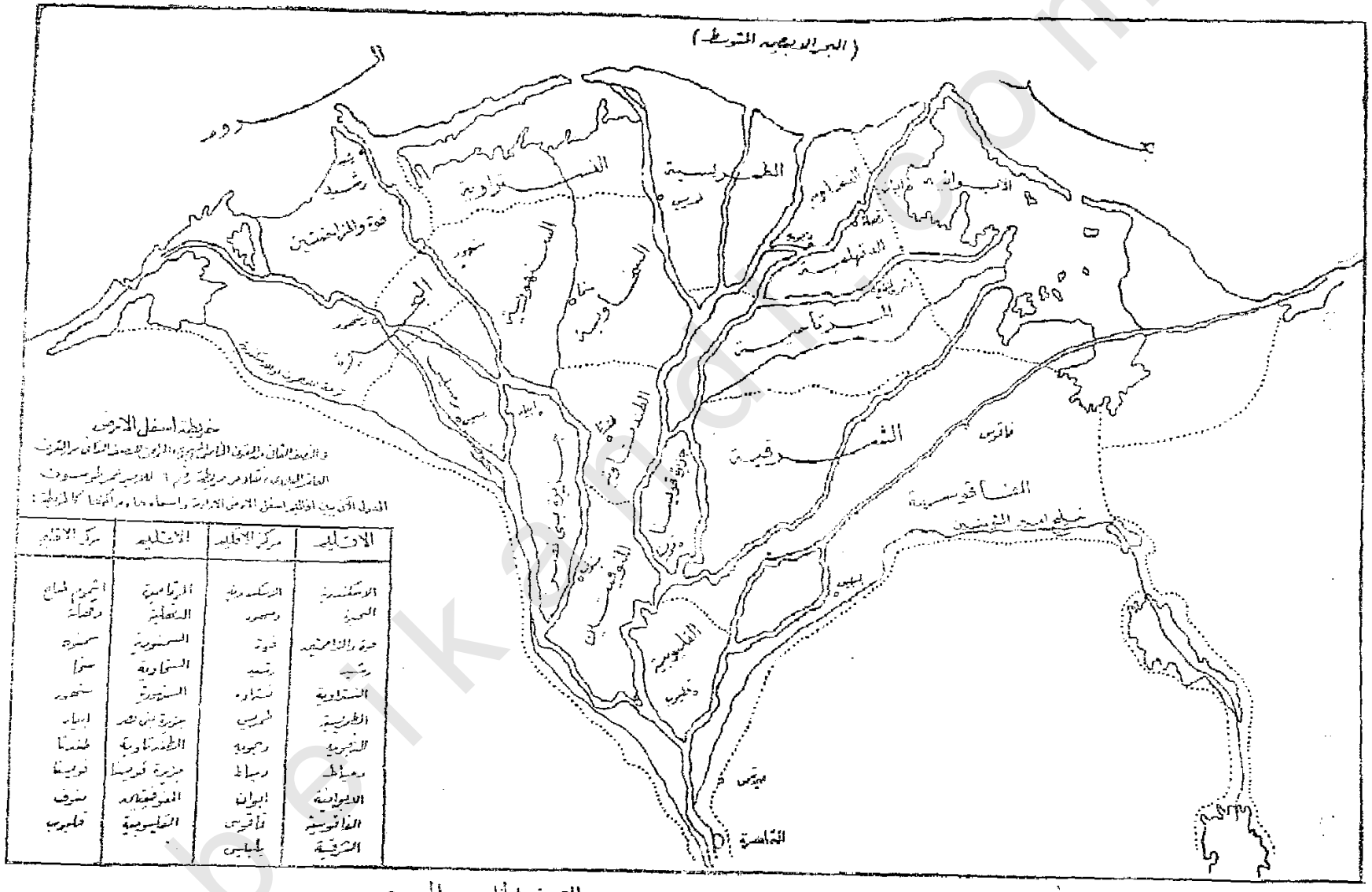

خريطة اسفل الارض

الاقليم	مركز الاقليم	الاقليم	مركز الاقليم
الاسكندرية	الاسكندرية	الاربامية	اشمون الشماع وقصلة
العبية	مصر	النطاليه	
حوف والفراعنتين	فوة	السمنودية	سمنود
رشيد	رشيد	السخاوية	سخا
السنادية	سنادة	السنورية	سنهور
الغربية	لمريس	جزيرة بني نصر	ابيار
البحيرة	رحيوة	الاطفناوية	طفنا
مريوط	ريالط	جزيرة لمريسا	لمريط
الاسوانية	اسوان	المرتفطاره	منوف
الفاقوسية	فاقوس	القليوبية	قليوب
الشرقية	بلبيس		

خريطة تقسيم مصر الادارى من منتصف القرن الخامس الهجرى

obeikandl.com

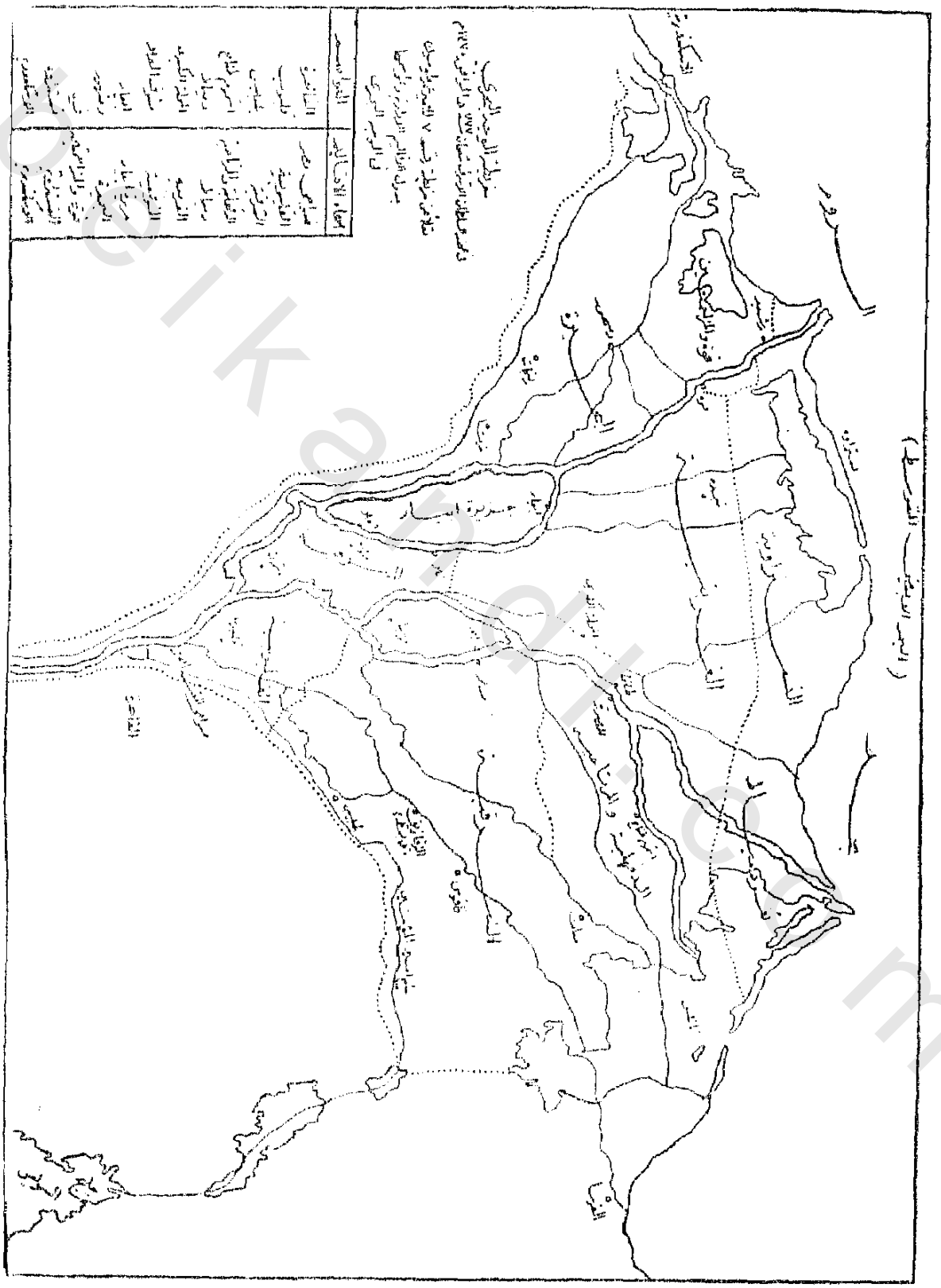

خريطة تقسيم مصر الإداري في عهد السلطان الأشرف شعبان (٧٧٨ هـ = ١٣٧٦م)

Obeikandl.com

وكان تقسيم الوجه البحرى إدارياً فى أوائل عصر المماليك جاريا على النحو الذى تمّ فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى (النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى) حين كانت مصر مقسمة الى اثنين وعشرين إقليما ، بيناها على المصور الذى نلقناه من الخريطة رقم ٦ للأمير عمر طوسون وهى :

اسم الاقليم	مركز الاقليم	اسم الاقليم	مركز الاقليم
الاسكندرية	الاسكندرية	المرتاحية	اشموم طناح
البحيرة	دمنهور	الدقهلية	دقهلية
فوة والمزاحميتين	فوة	السمنودية	سمنود
رشيد	رشيد	السخاوية	سخا
النستراوية	نستراوة	السنهورية	سنهور
الطمريسية	طمريس	حوف رمسيس	رمسيس
الدنجوية	دنجوية	جزيرة بنى نصر	ابيار
دمياط	دمياط	الطندتاوية	طندتا
الابوانية	ابوان	جزيرة قويسنا	قويسنا
الفاقوسية	فاقوس	المنوفيتان	منوف
الشرقية	بلبيس	القليوبية	قليوب

وفى سنة ١٧١٥ هـ (١٣١٥ م) مسحت أرض مصر فى عصر الناصر وعرف ذلك باسم « الروك الناصرى » وأصبح عدد الأقاليم الادارية بالوجه البحرى وفق هذا التقسيم اثنى عشر إقليما (١) كما يتضح من المصور الذى أفردناه لتوضيح هذا التقسيم وهذه الأقاليم هى :

أسماء الأقاليم	العواصم	عدد البلاد	أسماء الأقاليم	العواصم	عدد البلاد
ضواحى مصر	القاهرة	٢٦	المنوفية	منوف العلا	١٣٣
القليوبية	قليوب	٦١	ابيار وجزيرة بنى نصر	ابيار	٤٩
الشرقية	بلبيس	٣٩٩	البحيرة	دمنهور	٢٣١
الدقهلية والمرتاحية	اشموم طناح	٢١٤	فوة والمزاحميتين	فوة	١٦
دمياط	دمياط	١٤	النستراوية	نستراوة	٦
الغربية	المحلة الكبرى	٤٧٧	الاسكندرية	اسكندرية	١٤

(١) راجع ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ص ٣ — ٤ .

Tousson : La Géographie de l'Egypte, t. 1. pp. 1—4,217.

وفى عهد الفراعنة كانت مصر تنقسم إلى أقسام إدارية ، أقرب إلى المديريات فى حجمها ، يسمى

وكان ولاة الوجه البحرى موزعين على الوجه الآتى : والى الغربية (١) ومقره المحلة الكبرى، ووالى الشرقية(٢) ومقره بلبيس ، ووالى المنوفية ومقره منوف ، ووالى البحيرة ومقره دمنهور، وكانوا ينتخبون من أمراء الطبلخاناه ، ثم والى القليوبية ومقره قليوب ، ووالى الدقهلية والمرتاحية ومقره أشموم ، ووالى دمياط ومقره دمياط ، ووالى قطيا ومقره بلدة قطيا الواقعة بمنطقة الحدود بين شـــبه جزيرة طورسينا وفلسطين . وكان أولئك الولاة يعينون من أمراء العشرات . أما البحيرة فكان لا يعين لها فى بعض الأحيان والى بل يشرف عليها نائب (٣) . وكانت الاسكندرية تعد ولاية من ولايات الوجه البحرى يعين عليها وال من أمراء الطبلخاناه (٤) وذلك قبل أن تتحول إلى نيابة فى سنة ٧٦٧ هـ . ولا شك فى أن نائب الاسكندرية لم يكن فى مرتبة نائب السلطنة فى مصر أو نيابات الشام . ولسنا ندرى لماذا عين نائب للبحيرة دون سائر الولايات ، لأنه إذا كان قد روعى كثرة العرب فى اقليم البحيرة فان هؤلاء العرب كانوا كثيرين فى اقليم الشرقية كذلك .

وقد وصف القلقشندى أقسام الوجه القبلى أو أعلى الأرض ، فقال إنه كان يتكون من : عمل الجيزية وهو أقرب هذه الأعمال إلى الفسطاط والقاهرة ومقره مدينة الجيزة كما هى الحال الآن ، وعمل الاطفيحية ويمتد شرقى النيل من جنوب الفسطاط ومقره مدينة اطفيح التى تقع بين المقطم والنيل وهى الآن تابعة لمركز الصف بمديرية الجيزة ، وعمل البهنساوية ويلى عمل الجيزية جنوباً ومقره البهنسى وهى الآن احدى قرى مركز بنى مزار مديرية المنيا وتقع على الشاطىء الغربى للنيل، وعمل الفيومية ويلى البهنسى ومقره مدينة الفيوم . وكان من أعمال الصعيد أيضا عمل الأشمونين والطحاوية ويقع جنوبى البهنسى ومقره مدينة الأشمونين وموضعها الآن مدينه المنيا ، وعمل المنفلوطية ويلى الأشمونين جنوباً ومقره مدينة منفلوط ، وعمل الأسيوطية ويلى منفلوط جنوباً ومقره مدينة أسيوط ، وعمل الاخميمية ويلى أسيوط من ناحية الجنوب ويقع غربى النيل ومقره اخميم ، وعمل القوصية ويقع جنوبى أسيوط ويمتد

كل واحد منها Hesepu . وقد بقى هذا التقسيم الادارى كما هو فى مصر البطلموسية والرومانيـة ، وكان كل واحد من هـــذه الأقسام يسمى Nome . أنظر Bevan : The Ptolemaic Dynasty و Moret : Le Nil . وجاء فى استرابون Strabon (Vol. III, Chapter 17, p. 221) ذكر الاقسام الادارية فى مصر التى كان عددها فى رأيه ستة وثلاثون قسما .

(١) اقرأ صورة تقليد والى الغربية فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٤٥ — ٤٧ .

(٢) اقرأ صورة تقليد والى الشرقية فى القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤٣ — ٤٧ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٢٦ — ٢٧، ٦٦ . الخالدى : المقصد ص ١٤٣ .

(٤) اقرأ صورة تقليد والى الاسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٥٧ — ٥٩ .

إلى أسوان ومقره مدينة قوص ، وعمل أسوان وكان تابعاً لعمل قوص ، ثم صار بعد عصر الناصر مستقلا بنفسه لا حكم لوالى قوص عليه(١). وقد وردت أقسام الوجه القبلى فى كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية (٢) على النحو الآتى :

أسماء الأقاليم	العاصمة	أسماء الأقاليم	العاصمة
الجيزة	الجيزة	الاطفيحية	أطفيح
الفيومية	الفيوم	البهنساوية	البهنسا
الأشمونين	الاشمونين	الاسيوطية	أسيوط
الأخميمية	أخميم	القوصية	قوص

وكانت الواحات فى زمن الناصر محمد ثلاثا : واح الأولى وواح الوسطى وواح القصوى . ثم عرفت واح الأولى فى زمن القلقشندى بالواح الخاص وبواح البهنسى أيضاً لوقوعها قبالة الأعمال البهنساوية ، وعرفت الواح الواسطى بالواح الداخلة ، والقصوى بالواح الخارجة . وأصبحت هذه الواحات ضمن إقطاع الأمراء الذين كانوا يولون عليها ولاة من قبلهم بخلاف سائر ولايات مصر وأعمالها اذ كان ولاتها يعينون من قبل السلطان الناصر ، ومن ثم لم تعتبر هذه الولايات من ولايات مصر(٣) .

وعلى ذلك فان ولاة الوجه القبلى كانوا موزعين على النحو الآتى : والى البهنساوية ومقره البهنسى ، ووالى الأشمونين والطحاوية ومقره الأشمونين ، ووالى القوصية والاخميمية ومقره قوص . وكانوا يعينون من أمراء الطبلخاناه . ثم والى الجيزية ومقره الجيزة ، ووالى الاطفيحية ومقره اطفيح ، ووالى المنفلوطيه ومقره منفلوط ويعينون من أمراء العشرات . وكان والى قوص أعلى ولاة الوجه القبلى مكانة حتى انه كان يركب بالشبابة السلطانية (٤) فى المواكب أسوة بنواب السلطنة ببلاد الشام بل كان يفوق والى الغربية — وهى أعظم ولايات الوجه البحرى — مكانة ، وقد أضيفت ولاية أسوان إلى أعمال والى قوص . ولم يكن فى أسيوط وال ولكنها ما لبثت أن أصبحت فى عهد دولة المماليك البرجية مقراً لنائب الوجه القبلى . وقد عين وال لثغر عيذاب أحد ثغور مصر الواقعة على البحر الأحمر وكانت تمر منه تجارة الشرق وذلك فى عهد السلطان الناصر محمد . ولكن المعروف أن أهميتها قلت فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) اذ بدأت تجارة الشرق تتحول الى موانى البحر الأحمر الشمالية .

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٨ .

(٢) ابن الجيعان ص ٤ — ٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٣ — ٣٩٤ . المقريزى : كتاب السلوك ج ٢ ص ٩٢٠ — ٥٢١ حاشية للدكتور زيادة .

(٤) سبق شرح مدلول هذا اللفظ .

ويختار هذا الوالى من أمراء العشرات . على أنه كان تابعاً لوالى قوص فى الأعمال الخاصة بولايته ويختص بتصريف الشئون التى تتعلق بما يصدره التجار من ثغور سواكن وعيذاب والقصير (١).

وهناك طبقة أخرى من الموظفين الاداريين . ظهرت فى أواخر عهد دولة المماليك البحرية حين أصبحت الاسكندرية فى عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٧ هـ نيابة بعد أن كانت ولاية يعين لها والٍ من أمراء الطبلخاناه . وقد تحولت الاسكندرية إلى نيابة لأنها كانت أهم ثغور مصر التجارية على البحر الأبيض . وعين لها نائب اختير من أمراء المئين (٢). وتمتع بما كان يتمتع به نواب السلطنة المملوكية فى نيابات طرابلس وصفد وحماه من نفوذ وعظمة وأبهة ، ثم ما لبث أن أصبحت مرتبته تعادل مرتبة نائب السلطنة بالديار المصرية (٣).

ويتضح من الوصف الذى كتبه القلقشندى فى موكب نائب الاسكندرية وجلوسه بدار النيابة ونظره فى القصص بحضور كبار رجال الثغر . أن هذا الموظف كان يتمتع بسلطة واسعة فقد كان يجلس أيام المواكب بدار النيابة ، ثم يخرج منها فى موكبه عند طلوع الشمس يصحبه مماليكه وأجناد الحلقة والأمراء والشبابة السلطانية بين يديه . ويقول القلقشندى : « وإذا كان فى ذلك الموكب سماط ، وضع الكرسى فى صدر الايوان مغشى بالأطلس الأصفر ، ووضع عليه سيف نجاة (٤) سلطانية ومد السماط تحته ، وأكل مماليك النائب وأجناد المئين ، وجلس النائب بجنبة من الايوان ، والشباك مطل على صينا البلد . ويجلس القاضى المالكى عن يمينه ، والقاضى الحنفى عن يساره ، والناظر تحته ، والموقع بين يديه . ورءوس البلد على قدر منازلهم وترفع القصص فيقرؤها الموقع على النائب ، فيفصلها بحضرة القاضى ثم ينصرف الموكب » (٥).

وكان أول من تولى وظيفة نائب الاسكندرية الأمير بكتمر الشريف أحد أمراء المئين . وقد ظهرت عظمة هذه الوظيفة بعد أن تحولت إلى نيابة « وزال عنها أولئك النواب الأصاغر » على حد قول ابن اياس (٦).

ولم يكن فى مصر فى عهد دولة المماليك البحرية إلا نيابة واحدة ، هى نيابة الاسكندرية . كما لم يكن للوجه البحرى أو الوجه القبلى نواب . وإنما كان يشرف على كل من الوجهين

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦٦ Demombynes : La syrie, p. LXIV.

(٢) اقرأ صورة تقليد نائب ثغر الاسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٠٥ — ٤٠٧

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٠٤ وجـ ٤ ص ٢٤ .

Demombynes : La Syrie, p. LXIV

(٤) ورد ذكر النجاة عند كلام المؤرخين على الآلة التى قتل بها السلطان لاجين ، وهى عبارة عن خنجر مقوس شبه السيف الصغير . ويقال لها أيضاً النمجة أو النجا أو النمشاه . ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦١٢ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٦٤ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢١٥ .

موظف كبير يعرف باسم « الكاشف » ، ويطلق عليه اسم « والى الولاة » (١) وبذلك كان هناك كاشفان : أحدهما كاشف الوجه القبلى ويمتد نفوذه من الجيزة إلى جنادل النيل ، وكاشف الوجه البحرى ويمتد نفوذه إلى جميع أراضى الوجه البحرى عدا نيابة الاسكندرية . وقد تمتع كل من هذين الكاشفين بنفوذ كبير فى إقليمه . كما كانت الحال بالنسبة إلى ولاة الأقاليم ونائب الاسكندرية . ولما وجدت النيابة فى عهد الدولة البرجية فى الوجهين البحرى والقبلى وعين لكل منهما نائب كالحال فى الاسكندرية . تعدد الكشاف ، فأصبح هناك كاشف الجيزة وكاشف القليوبية والمنوفية ومقره منوف وقلبوب ، وكاشف الغربية ومقره المحلة الكبرى ، وكاشف الشرقية ومقره بلبيس . وهؤلاء جميعاً كانوا يعينون من أمراء الطبلخاناه (٢) .

ثانيا — دواوين الحكومة

كان أهم الدواوين (٣) : ديوان الانشاء ، وديوان الأحباس ، وديوان النظر ، وديوان الخاص وغيرها مما سيرد ذكره .

١ — ديوان الانشاء :

أما ديوان الانشاء فهو أول ما وضع فى الاسلام من الدواوين . ويمكن تقسيم تاريخ هذا الديوان بمصر الاسلامية خمسة أقسام : أولها من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية (٢٠ — ٢٥٤ هـ) . وهنا نلاحظ أن ولاة مصر فى هذا العصر لم يولوا هذا الديوان ما يستحقه من عناية واهتمام ، إذ لم يصدر عنهم ما يدون فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة ، ولعل ذلك راجع إلى أن مصر كانت فى هذا العصر ولاية من ولايات الخلافة الاسلامية ليس لها نصيب من الاستقلال . وثانيها عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية (٢٥٤ — ٣٥٨ هـ) . وفى ذلك العصر نرى تطوراً محسوساً فى نظام هذا الديوان ، لترتيب المكاتبات التى تصدر عنه أو ترد إليه (٤) . وثالثها عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ، وهنا يوجه الفاطميون كل اهتمامهم إلى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٤ Demombynes : La Syrie. p. LXIV.

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٥ و٦٥ ؛ ج ٧ ص ١٥٧ ، الخالدى : المقصد ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٣) الدواوين — جمع ديوان وهى كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر . وقد أطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذى يحفظ فيه الديوان . ويقول الماوردى (الأحكام السلطانية ص ١٩١) : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

(٤) راجع عن ديوان الانشاء فى العصر الطولونى :
Zaky M. Hassan: Les Tulunides, pp. 279—283.

تنظيم ديوان الانشاء الذى أصبح يعرف صاحبه باسم « كاتب الدست الشريف » ، وغدا يتولى شئونه جماعة من أكابر الكتاب وأرباب الأقلام فينهضون به ويعملون على بلوغه حد الكمال . ورابعها عهد الأيوبيين (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) وقد أسند صلاح الدين ديوان الانشاء إلى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، وكان آخر من ولى هذا الديوان فى عهد الدولة الأيوبية الصاحب فخر الدين بن لقمان الاسعردى . وخامسها عهد دولة المماليك البحرية (٦٤٨ — ٧٨٤ هـ = ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م) ، وفيها تم تنظيم هذا الديوان [١] . وكان مقره قاعة الصاحب بقلعة الجبل [٢] حيث ترد المكاتبات اليه من جميع أنحاء الولايات والممالك التى بينها وبين مصر علاقات سياسية ، كما كانت تحرر فيه الكتب التى يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء . وفى كتاب صبح الأعشى للقلقشندى وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى كثير من المكاتبات التى تبودلت بين سلاطين مصر فى عهد دولة المماليك البحرية وبين ايلخانات المغول فى فارس وخانات مغول القفجاق وملوك أوربا وأمرائها . وتعتبر هذه الوثائق على جانب عظيم من الأهمية من الناحية السياسية ، لأنها تمدنا بكثير من المعلومات الطريفة عن نظم الحكم فى مصر فى عهد سلطنة المماليك عامة وعهد الناصر خاصة .

كان صاحب ديوان الانشاء فى أوائل عهد المماليك يلقب تارة باسم « صاحب الدست الشريف » كما كانت الحال أيام الدولة الفاطمية . ويعبر عنه تارة باسم « كاتب الدرج » وتارة أخرى باسم « كاتب الدست » . وبقى الأمر على ذلك إلى أن تقلد هذا الديوان القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر فى أيام السلطان قلاوون ، فتلقب بلقب « كاتب السر » ، لأنه كان يكتم سر السلطان [٣] ، كما كان يلقب أيضاً بلقب صاحب ديوان الانشاء أو ناظر الانشاء الشريف [٤] .

وكانت مهام هذه الوظيفة قبل عهد قلاوون تدخل فى اختصاص الوزير . وظل الحال على ذلك حتى جاء السلطان السعيد بركة خان (٦٧٧ — ٦٧٨ هـ) بن الظاهر بيبرس ، إذ رأى هذا السلطان أنه ينبغى أن يكون للملك كاتب سر « يتلقى المرسوم منه شفاها » . وكان قلاوون وقت ذلك أكبر الأمراء ، فأيد رأى السلطان بركة خان . غير أن المشروع لم ينفذ إلا بعد أن صار قلاوون سلطاناً [٥] .

كان صاحب ديوان الانشاء معظماً فى كل زمان ، مقدماً على من عداه من أصحاب المنازل

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ٩٥ — ٩٧

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) الخالدى : المقصد ص ١٣ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٨ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٣ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣١ .

العالية . وكان السلاطين « يلقون إليه أسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ويطلعونه على ما لا يطلعون عليه أولادهم ولا أخص الأخصاء من الأمراء والوزراء وغيرهم » (١) . وكان ينظر فى معظم أمور الدولة حتى زاد نفوذه « واتسع له مجال التدبير والتصرف إلى أن صار أمير المملكة ورأس أعيانها لا يضع الملك فى أمر مملكته حرفا إلا على ما يخرج من مشورته بعد إطلاعه عليه » (٢) .

وكانت وظيفة كاتب السر فى عهد المماليك من أعظم الوظائف الديوانية وأجلها قدراً (٤)، ويلقب صاحبها باسم « الجناب الكريم » (٣). وليس أدل على صحة هذا القول مما ذكره الخالدى حيث يقول : « ناهيك بعلو شأنه إنه سالك سبل أجل الصحابة رضى الله عنهم لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكتب عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم فلا يولى صحابة دواوين الانشاء إلا خاصة خواص الناس ، ومن تكون القلوب على أهليته متكاتفة والألسن بكفايته ناطقة » (٤). ولا غرو فقد كان كاتب السر أول من يدخل على السلطان وآخر من يخرج من حضرته من كبار موظفى الدولة ، كما كان لا يستغنى عن مشورته والافضاء إليه بأسراره فى كل آن ولا يثق فى أحد من الموظفين ثقته به ولا يركن إلى أحد ركونه إليه ، ولعله يشبه رئيس الديوان فى بلاط الملك فى العصر الحديث .

وليس أدل على علو مركز كاتب السر إذ ذاك من أنه كان يحضر بحكم منصبه حلف اليمين التى يؤديها ولاة الأقاليم على أثر تعيينهم فى مناصبهم الجديدة ، ويقوم بكتابة مراسيم تولية الولاة وتزويدهم بنصائحه لرفع الظلم عن أهالى ولاياتهم . واذا انتهى إلى صاحب هذا الديوان خبر يتعلق بمصلحة السلطان أو الرعية بادر إلى إطلاع مولاه دون تردد أو إبطاء حتى لا تضيع الفرصة ويحدث مالا تحمد عقباه . وفى ذلك يقول ابن فضل الله العمرى الذى تقلد هذا الديوان فى عهد السلطان الناصر محمد : « وانى مهما أطلعت عليه من مصالح مولانا السلطان ... أوصله اليه واعرضه عليه ولا أخفيه شيئا منه ولو كان على ولا أكتمه ولو خفت وصول ضرره إلى » (٥). ومن ذلك يمكن القول أن كاتب السر كان ناصحاً أميناً للسلطان وأنه كان من واجبه أن يمده بصائب رأيه وسديد مشورته ، وأن يشيد بجميل أفعاله ويحمد خصاله ليتالف بذلك قلوب رعاياه فتلهج ألسنتهم بالدعاء له .

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢ .

(٢) الخالدى : نفس المصدر ص ١١ .

(٣) راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 507.

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٢ . وانظر القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص١٠١ .

(٥) العمرى : التعريف ص ١٥٠ .

وكان كاتب السر يوقع على الرّقاع والقصص ويشترك فى الفصل فى بعض المظالم ويقرأ الكتب الواردة على السلطان من مصر وغيرها ويتولى الرد عليها ويذيل هذه الرسائل بتوقيعه كما كان يفعل الوزير من قبله ، ويجلس فى مجلس السلطنة عند اجتماع الحكام للفصل فى شئون الدولة كما كان يتوسط بين السلطان والأمراء اذا اختلفوا فى أمر من الأمور ، ويتول الفصل فى شئون القضاة والعلماء (١) .

وكان كاتب السر يرد على الكتب الواردة إلى ديوان الانشاء بعد أن يستشير فيها السلطان ويأمر بارسال الرد فى يوم وصولها . ويجب أن يكون ملماً بقواعد البلاط وأصوله ورسوم التشريفات . فيتولى بنفسه تحديد الألقاب التى يرد بها على أصحاب الكتب المرسلة إلى السلطان ويشير بنوع الورق الذى يستعمل فى ذلك ، ويصلح أخطاءها حتى يكون « كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطاً ولفظاً ومعنىً وإعراباً حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً ، فربما زلّ الكاتب فى شىء فزل بسببه متولّى الديوان بل السلطان بل الدولة بأسرها » (٢) .

وكان كاتب السر يجيب عن الرسائل السلطانية وما يتفق مع مصلحة السلطان ومصلحة الدولة (٣).

ومن الصفات التى يجب أن تتوافر فى كاتب السر أن يكون — على ما رواه القلقشندى — « صبيح الوجه فصيح الألفاظ طلق اللسان أصيلا فى قومه رفيعاً فى حيه وقوراً حليما مؤثراً للجد على الهزل كثير الأناة والرفق قليل العجلة والخرق نزر الضحك مهيب المجلس . . . سريع الرضا بطىء الغضب . . . محباً لأهل العلم والأدب . . . وأن يكون محباً للشغل أكثر من محبته للفراغ » (٤) .

وكان كاتب السر فى نيابات الشام يماثل كاتب السر فى مصر فى علو منزلته ورفعة مكانته وسعة اختصاصاته ، ويولى بمرسوم سلطانى يصدر من القاهرة . ويختلف اللقب الذى يطلق على كتاب السر بدواوين الانشاء فى نيابات الشام . فقد كان لقب « صاحب ديوان الانشاء » يطلق على كاتب السر بدمشق وحلب ، اما فى حماه فقد كان يلقب « صاحب ديوان المكاتبات » ، وفى طرابلس وصفد يطلق عليه اسم « كاتب السر » ، وفى غزه وسيس والكرك يعرف باسم « كاتب الدرج » ، وربما أطلق على الثلاثة الآخرين لقب « كاتب الانشاء » ان كان اصلهم من موقعى الانشاء بمصر أو الشام (٥).

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢٥ ، Demombynes : La syrie, p. LXIX

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ١١٣ .

(٣) العمرى : التعريف ص ١٥١ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٠٤ — ١٠٥

(٥) الخالدى : المقصد ص ١٤٦ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣١ .

Demombynes : La Syrie, p, 152 n. 2

وكان كاتب السر فى نيابات الشام يختار ممن يثق السلطان فى إخلاصهم وتفانيهم فى خدمته « يطالعه بخفيات أمور المملكة ومايحدث بها مما قد يخفيه النائب عن السلطان » . ويرأس — كما هو الحال فى مصر — طبقة كتاب الدست وكتاب الدرج الذين كان تعيينهم بيد نائب السلطنة . ولا يحضر كاتب السر إلى دار العدل مع نائب السلطنة بالشام بل يحضر اليها كتاب الدست فقط ويقومون بتنفيذ مايصدر من القرارات ثم يبلغونها إلى كاتب السر . وكان بعض كتاب الدرج يتعمدون إخفاء القرارات التى يصدرها نائب السلطنة بحضورهم عن كاتب السر حتى انه لم يتعرف الروح الذى أوحى باصدارها ومايجب أن يتخذ فى شأنها . لذلك تكررت شكوى كتاب السر ورأوا ضرورة حضورهم مجلس النيابة بدار العدل بعد أن كان لا يسمح لهم بالدخول على النائب الا عند عرض المكاتبات الخاصة بديوانهم (١).

وتولى ديوان الانشاء فى عهد السلطان الناصر محمد القاضى شرف الدين بن عبد الوهاب ابن فضل الله الذى خلف ابن عبد الظاهر . وتقلد ديوان الانشاء بعد ذلك بعض أفذاذ الكتاب من أسرة ابن فضل الله العمرى بنوع خاص حتى إن رياسة هذا الديوان لم تكن تخرج عنهم الا فى القليل النادر(٢). ومن هؤلاء القاضى محيى الدين بن فضل الله وشرف الدين ابن الشهاب محمود ومحيى الدين (للمرة الثانية) وولده القاضى شهاب الدين (٣) الذى ظل فى منصبه حتى تغير عليه السلطان الناصر وعزله سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) ، ثم سأل القاضى محيى الدين ابن فضل الله السلطان فى العودة إلى دمشق ، فأجابه إلى ما طلب وقلده ديوان الانشاء فى الشام وفوض اليه الأشراف على أمور هذه البلاد حتى اتسع نفوذه وأصبح لا يقل فى الرتبة عن نفوذ « كافل المملكة الشريفة » . وقد نص المرسوم الذى يتضمن تقليد القاضى محيى الدين بن فضل الله أمور هذا الديوان ببلاد الشام أن « يكون جميع المباشرين بهذه الوظيفة بالباب الشريف فمن دونهم نوابه . وأنه حيث حل يقرأ القصص ويقرر الولايات والرواتب والعزل وغير ذلك ويوقع فيها بما يراه ويجهز ذلك إلى مصر ليشملها بالخط الشريف » . وممن تولى ديوان الانشاء من بيت ابن فضل الله العمرى القاضى علاء الدين بن فضل الله الذى اضطلع بمهام هذا الديوان بقية عهد الناصر وطوال عهد أولاده أبى بكر وكجك واحمد حتى سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) (٤) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨٩ . جـ ١٢ ص ٨٩

(٢) يذكرنا ذلك بنفوذ أسرة المادرائيين فى حكم مصر فى نهاية القرن التاسع والنصف الاول من القرن العاشر بعد الميلاد . راجع Zaky M. Hassan : Les Tulunides, p. 284—286 وما جاء فيها من مراجع .

(٣) انظر نص تقليد بكتابة السر للقاضى شهاب الدين بن فضل الله فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٢٩٨ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٥٦ — ٥٧ و ٧٧ — ٧٨ و ٢١٨ . أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٥٢ ا

وعلى الجملة فقد كان عصر المماليك زاهراً برجال العلم والأدب فازدان بكثير من أفذاذ الكتاب الذين ضربوا فى الأدب بسهم ، واتصل كثير منهم بديوان الانشاء فكان لهم القدح المعلى فى تحرير التفاويض والعهود . ومن هؤلاء القاضى شمس الدين ابراهيم بن القيسرانى الذى كتب تفويض الخليفة الحاكم بامر الله أمور البلاد للسلطان الناصر محمد سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) ، وشهاب الدين محمود الحلبى الذى كتب تفويض الخليفة الحاكم بأمر الله أمور البلاد للملك المنصور لاچين سنة ٦٩٦ هـ ، والقاضى علاء الدين بن عبد الظاهر الذى كتب نص تفويض الخليفة المستكفى بالله أمور البلاد للسلطان بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ .

كان كاتب السر يشرف على كتاب الدواوين الذين يستنيرون بآرائه ومشورته . ومن أعظم معاونيه « متولى ديوان الرسائل » ويعرف باسم « كاتب السر » . ويتولى الرد على الكتب التى ترد إلى ديوان الانشاء اذا اضطر كاتب السر الى التخلف لحضور مجلس السلطان ويشترط فيه أن يكون ملماً بأمور الديوان ، مطلعاً على خفاياه حتى لا يخفى عليه شىء منها . ويتصرف كما يتصرف كاتب السر ، فيقرأ الكتب ويرد عليها ويذيلها بامضائه ويشرف على كتاب الديوان ويوزع العمل عليهم . (١)

ويلى نائب كاتب السر فى المرتبة « كتّاب الدَّسْت » (٢) المتصلون بديوان الانشاء ، وكانوا يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى أيام المواكب ويطلق عليهم اسم « الموقعين » (٣) لتوقيعهم على جانب القصص (٤) .

وقد وزعت أعمال ديوان الانشاء على كتاب الدست (٥) ، فاضطلع كل منهم بعمل هام يقوم فى حدود اختصاصه ، على نحو ما نراه اليوم فى الدواوين الحكومية . فمن هؤلاء كاتب يقوم بتحرير البيعات والعهود وما إليها ويشترط فيه أن يكون واسع الاطلاع مبتكراً للعبارات البليغة والألفاظ الفصيحة . وهناك كاتب آخر يتولى كتابة الكتب التى ترسل إلى الملوك ويشترط فيه أن يكون ملماً بكتاب الله وسير الأنبياء والخلفاء والملوك ويراعى فى اختياره أن يكون من فحول الشعراء جيد الخط بليغ العبارة . وكاتب آخر يقوم بكتابة المراسيم ويشترط فيه أن يكون خبيراً بألقاب الملوك والأمراء وما يستعمل فى مخاطبتهم من صفات ونعوت

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٣٤

(٢) سموا كذلك إضافة إلى دست السلطان ، وهو مرتبة جلوسه ، لجلوسهم للكتابة بين يديه . القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٧ .

(٣) كان هؤلاء يتولون الاشراف على ديوان الانشاء قبل أن يستحدث السلطان فلاوون وظيفة كاتب السر . وكانوا يختارون من أعلام البيان وأفذاذ الكتاب . القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ١٣٨ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) انظر نص تقليد بكتابة الدست فى القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ٣٣٣ — ٣٣٥ .

منزهاً عن الأغراض حتى لا يبخس أحداً حقه أو يعطى أحداً فوق ما يستحقه . ومن بين كتاب الدست كاتب اشتهر بجودة الخطوط على اختلافها لأنه قل أن يجتمع الانشاء وحسن الخط فى شخص واحد . واختص لتحرير المنشورات (١) الخاصة بالاقطاعات التابعة لديوان الجيش كاتب يشترط فيه أن يكون حسن الخط عارفا بقدر كل من الأمراء وأولاد الملوك والسلاطين حتى يستطيع مخاطبتهم ، كل حسب رتبته وأهميته . أما المكاتبات التى تحرر إلى ملوك الفرنجة فقد كان لها من كتاب الدست كاتب خاص يتولى شئونها ، ويتعين أن يكون ملماً بكثير من اللغات الأجنبية . ومن بين كتاب الدست أيضاً موظف عهد اليه بتعريب المكتب الواردة من البلاد الأجنبية وتلخيصها قبل عرضها على السلطان (٢) .

وهناك نوع آخر من الكتاب المتصلين بديوان الانشاء ، يعرفون باسم « كتاب الدرج » (٣) ومهمتهم الاطلاع على الملاحظات التى يبديها كاتب السر أو أحد كتاب الدست أو نائب السلطنة أو الوزير على المكاتبات والمراسيم والمنشورات والرد عليها وفق ما جاء بهذه الملاحظات التى تعتبر أساسا لهذه الاجابة . ولا يجوز لهؤلاء أن يتخذوا لأنفسهم صفة « الموقعين » أسوة بكتاب الدست ، إذ أن « التوقيع » معناه التأشير على المكتب أى ابداء الرأى فيما تضمنته هذه المكتب ورسم الطريقة التى تحرر بمقتضاها الردود . وكان يطلق عليهم اسم كتاب الانشاء وهم الذين يصوغون هذه الردود ، مستعينين فى ذلك بآراء كتاب موظفى ديوان الانشاء ويضمنونها العبارات الشائعة التى تستعمل عادة عند الرد على هذه المكتب . ومن ثم لم يعد عمل هؤلاء عمل كتبة الدواوين العاديين الآن ، بدليل أن عدد هذا النوع من الكتاب المتصلين بديوان الانشاء فى عهد دولة المماليك البحرية قد بلغ أربعين ، بل تجاوز ذلك حتى بلغ مائة وثلاثين (٤) .

وعلى الرغم من أن القلقشندى يعتبر مصدراً أصلياً فى هذا الموضوع الذى نتكلم عليه ، فقد أمدنا الخالدى فى مخطوطه « المقصد الرفيع المنشا الهادى إلى صناعة الانشا » ، بمعلومات وافية عن كُتّاب الدست والمهام التى كانوا يضطلعون بها فى ذلك العصر . ويجب ألا نغفل أيضاً ما ذكره خليل بن شاهين الظاهرى فى كتابه « زبدة كشف الممالك » عن عمل كُتاب الدرج ، فقد أوضح لنا هذا المؤرخ أنهم كانوا يقومون بنسخ « العهود للخلفاء والسلاطين

(٢) المنشورات — جمع منشور وهو كل مايصدر عن سلطان أو ملك من المكاتبات مما لايحتاج إلى ختم . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٥٧ .

(٢) الخالدى : المقصد ص ١١٧ — ١١٨ و ١٣٤ .

(٣) سموا بذلك لتحريرهم كتبهم على دروج . والمراد بالدرج الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، وهو عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة . القلقشندى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٣٨ . الخالدى : نفس المصدر ص ١٣٥

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٣٨ . Demombynes : La Syrie. p. LXIX

على النهج الواضح والأسلوب المبين ، والتقاليد لقضاة أهل الحل والعقد بما يليق بكل منهم من براعة المطلع والختام الدالين على عظم القصد ، ولكفال الممالك الشريفة ذوى الرتب العوالى والمناصب المنيفة ، وللصاحب الوزير الذى وظيفته قوام الملك فى التصرف والتدبير ، وللسادة المباشرين أركان الدولة الشريفة أولى الأقلام الموضحة والأيدى العفيفة ، ومناشير الاقطاعات للأمراء والأجناد المؤيدين لنصرة الدين وحماية البلاد ، والتواقيع لأرباب المناصب الموصلة كل ذى حق حقه وقاطعة من كل ظالم سببه ، والمراسلات والمكاتبات المشتملة على طلب الحوائج وذكر الأشواق والمعاتبات والمربعات بالأرزاق والأمثلة المبلغة كل راج سؤاله وأمله »[1] .

وقد سبق أن أوضحنا الشروط التى يجب أن تتوافر فى كاتب السر على ما ورد فى القلقشندى والخالدى . على أن ابن مماتى قد تصدى لذكر الصفات التى يعرف بها كتاب الدواوين عامة. ولا بأس من أن نأتى بها هنا بعد أن انتهينا من الكلام على الكتاب المتصلين بديوان الانشاء على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم . قال هذا المؤرخ : « يجب أن يكون الكاتب حراً ، مسلماً ، عاقلا ، صادقاً ، أديباً ، فقيهاً ، عالماً بالله تعالى ، كافياً فيما يتولاه ، أميناً فيما يستكفاه ، حاد الذهن ، قوى النفس . . . جميل الذكر ، طويل الروح ، كثير الاحتمال ، حلو اللسان ، له جراءة يبت بها الأمور على حكم البديهة . . . ويعامل الناس بالحق من أقرب طرقه وأسهل وجوهه ، ولا يحتشم من الرجوع عن الغلط فالبقاء عليه غلط ثان ، ويفصح عما يشرع فيه من الأقوال والأفعال ، ولا يكون حوطته على اليسير بأيسر من حوطته على الكثير ، ويكون شديد الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق . . . لا يقبل هدية ولا يقبل من أحد عطية . . . ومما يجب عليه لمن يكون بين يديه أن لا يبتدىء بما لا يسأل عنه إلا بما يخشى فوات الأمر فيه ، وأن لا يجب عما يسأل عنه غيره ، وألا يقع فى أحد بغيبة ولا بنميمة ، ولا يظهر ما بينه وبين أحد من صداقة ولا عداوة . . . وإذا تكرر حضوره بين يدى السلطان فلا يسلم عليه ... ومما يجب لمن اجتمعت هذه الصفات فيه أن يقبل عليه ويوجه إليه ويبالغ فى إكرامه وينتهى إلى الغاية فى احترامه وأن يرفع عنه الحجاب ويوسع عليه الرزق فى كل باب وتقال له العثرة فيما لعله يخطىء فيه باجتهاده ويظهر للناس قبول قوله والرجوع إلى شهادته ولا يسمع فيه كلام حاسد له على ما رتبه فيه حسن حظه »[2] .

ومن أهم معاونى كاتب السر فى عمله موظف كبير اسمه « الدّوادار »[3] ، وكان يقوم

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٠ .

(٢) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٥ — ٧

(٣) الدوادار : اسم مركب من لفظين : أحدهما عربى وهو الدوا ، والثانى دار ومعناه ممسك . فيكون المعنى ممسك الدواة ، وحذفت الهاء من آخر كلمة استثقالا . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٢ . الخالدى : المقصد ص ١١٩ .

بتبليغ الرسائل عن السلطان وتقديم القصص اليه ، كما كان يقوم هو وأمير جاندار وكاتب السر بتقديم البريد . وكان البريد فى عصر المماليك البحرية تحت إشراف الدوادار ، ثم لوحظ أن الدوادار من الأمراء المماليك الذين قد يطمعون فى العرش ، فروعى أن وقوع الأسرار فى يده أمر غير مرغوب فيه . ولذا فان البريد نقل فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) إلى إشراف ديوان الانشاء حيث كان المشرف من رجال العلم الذين لا خطر منهم على السلطان ولا يمكن أن يطمعوا فى السلطنة(١) .

كان الدوادار يقدم إلى السلطان كل ما « تؤخذ عليه العلامة السلطانية من المناشير والتواقيع والكتب »(٢). وقد جرت العادة أن يكتب السلطان بخطه على كل ما يأمر به ، وأما المنشورات الخاصة بالأمراء وأصحاب الاقطاعات ، فقد كان يذيلها بما يسمى « العلامة » .

والعلامة السلطانية هى الاشارة التى كان يذيل بها السلطان الأوراق لاعطائها الصفة الرسمية . ويظهر أن المماليك قد اتخذوا العلامة عن الفاطميين ، فقد كان القضاعى الذى نبغ فى الكتابة حتى صار من كبار رجال البلاط فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى يعهد إليه فى أن يكتب العلامة نيابة عن الوزير أبى القاسم الجرجرائى الذى تقلد الوزارة سنة ٤١٨ هـ وتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وكانت العلامة فى ذلك العصر ، تشمل هذه الكلمات : « الحمد لله شكراً بنعمته »(٣). وفى عهد السلطان قلاوون عهد إلى أحد الدوادارية باستعمال علامة السلطان ، فقد ذكر المقريزى أنه : « فى ٦ جمادى الآخرة سنة ٦٧٩ هـ خلع على الأمير سيف الدين بلبان الرومى وجعله دوادار العلامة لاغير مع القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر » (٤) . وكان السلطان الأشرف خليل يكتب فى علامته على المراسيم حرف الخاء فقط إشارة الى الحرف الأول من إسمه . وقد أثر عن السلطان الناصر محمد أنه كان يستعمل « العلامة » فى الأمور التى تعرض عليه . أما تقاليد النواب وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب فانه يكتب عليها اسمه واسم أبيه ، وبذلك كان يوقع عليها « محمد بن قلاوون » (٥) .

ويلاحظ إن وظيفة الدوادار قديمة ، فقد اقتبسها العباسيون عن الفرس ، ثم أدخلت

---

(١) Wiet : Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II., pp. 246—247

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١١ . الخالدى : المقصد ص ١٢٥ .

(٣) ابن منجب الصيرفى : الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ و ٣٧ . الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٢ :

(٤) كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٨١ .

(٥) أما إذا لم يكن أبو السلطان الجالس على العرش سلطانا ، فان السلطان يكتب اسمه فقط ، وربما شمل المكتوب اليه بعطفه وكتب اليه « أخوه فلان » أو والده فلان .

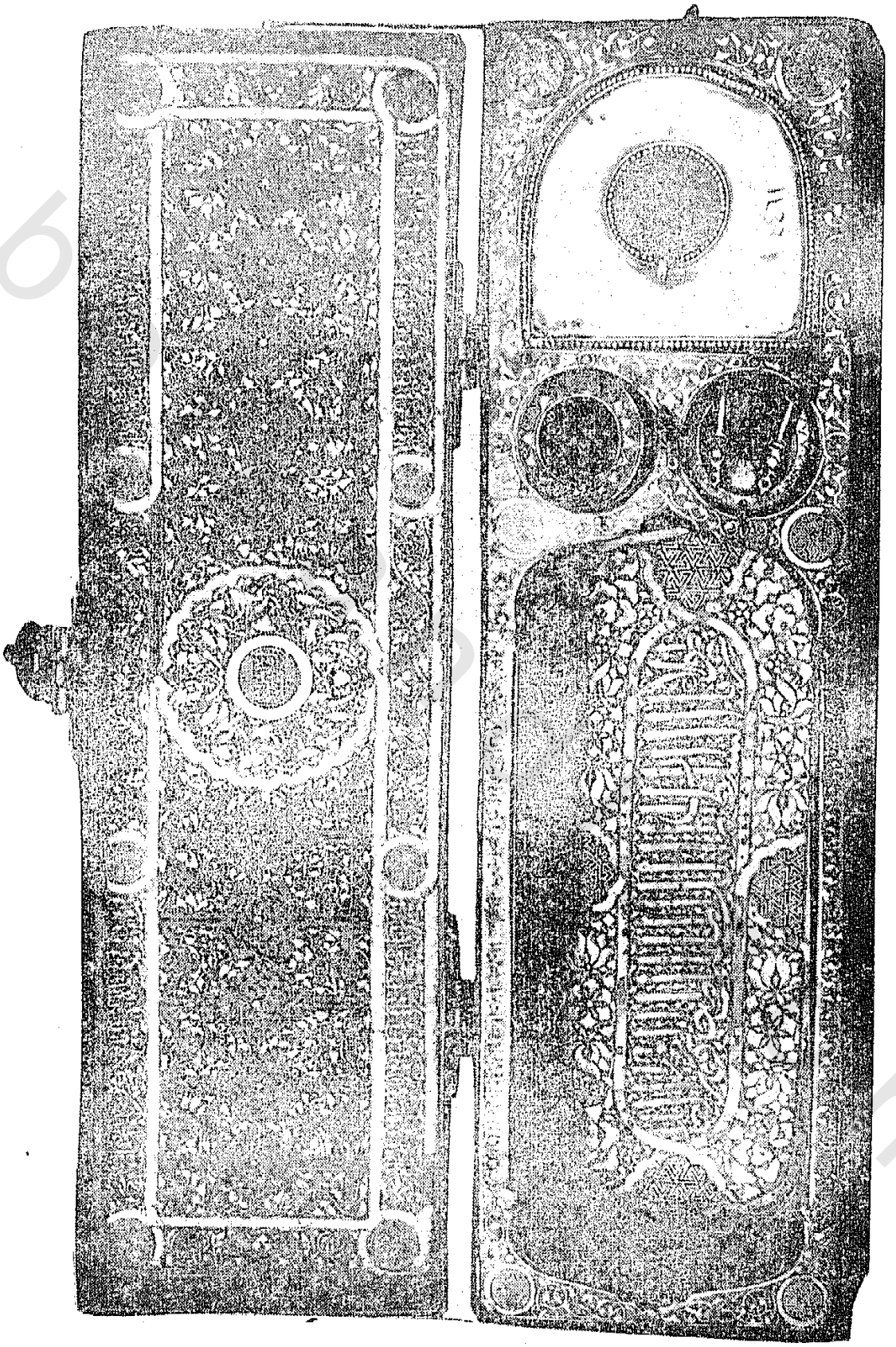

مقلمة ومحبرة من عصر المماليك من الفضة المكفتة

على نظام الحكم فى مصر ، وارتفع شأنها فى دولة الناصر (١) ، حتى أصبح الدوادار يعين من أمراء العشرات أو أمراء الطبلخاناه .

على أن إصدار الدوادار المراسيم كان يتم بعد استشارة السلطان ، بدليل ماذكره ابن فضل الله العمرى على لسان أحد الدوادارية فى عهد السلطان الناصر محمد حيث يقول : « إننى لا أؤدى عن مولانا السلطان رسالة فى إطلاق مال ولا استخدام مستخدم ولا إقطاع إقطاع ولا ترتيب مرتب ولا تجديد مستجد ولا سداد ثاغر ولا فصل منازعة ولا كتابة توقيع ولا مرسوم ولا كتاب صغيراً كان أو كبيراً إلا بعد عرضه على مولانا السلطان ومشاورته ومعاودة أمره الشريف ومراجعته » (٢) .

وكان الدوادار — بحكم وظيفته — يحيط بكل مايصدر من ديوان الانشاء ومايرد عليه من المكاتبات ، ويختمها بخاتم الدولة الذى كان يختلف فى حجمه باختلاف رتبة المرسل اليه بمعنى أن الدوادار كان يقوم فى دولة المماليك بأعمال صاحب ديوان الخاتم فى عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين ، فيحافظ على أوراق الديوان ، ويعد مايحتاج اليه الكتاب من الورق « وأقلام العلامة والمداد والرمل والدفاتر والمساطر والكتب الواردة من عظماء الملوك (٣) » .

وكان الدوادار يقوم بعمل بيان عن المكاتبات الهامة وتقييدها فى دفتر (٤) خاص وضم جميع ماورد منها إلى بعضه وجعلها فى سجلات عرف كل منها باسم «أضباره » (٥) مع بيان اسم اليوم والشهر الذى قيدت فيه . وإذا انتهى الشهر حفظت تلك الاضبارات فى مكان أمين وكتب عليها اسم الشهر الذى جمعت فيه ، وإذا انتهى العام ضمت أوراق شهور السنة بعضها إلى بعض مع بيان السنة ، ويبدأ بالكتابة فيه من أعلاه مع بيان اليوم إلى أن ينتهى الشهر ، فيترك ورقة بيضاء تفصل بين أوراقه وأوراق الشهر الذى يليه وهكذا إلى آخر السنة ، فيجعل فى الاضباره ويتخذ دفتر جديد . وظل الدفتر ضابطا لأعمال ديوان الانشاء من أوائل دولة المماليك البحرية إلى أيام الظاهر برقوق (٦) .

ومن أشهر الدوادارية الذين ظهروا فى سلطنة الناصر محمد : الأمير عز الدين أيدمر

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٢) العمرى : التعريف ص ١٥٠ .

(٣) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢١ .

(٤) يتخذ الدفتر من طومار جلد وقاية مخروم فى وسطه بخيط . الخالدى ; نفس المصدر ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٥) الاضبارة : عبارة عن ورقة تلف فيها الكتب التى تجمع بعضها إلى بعض وتلصق أطرافها بالنشا . القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٤٤٥ .

(٦) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢١ .

والأمير بهاء الدين أرسلان والأمير سيف الدين الجاري والأمير صلاح الدين يوسف والأمير سيف الدين بغا والأمير سيف الدين طاجار (١) .

ويلى الدوادار فى الرتبة حامل المزرة أو خادم المزرة وينوب عنه إذا غاب ، ويقوم بترتيب الأوراق بعد اعتمادها من السلطان . وطريقته فى ذلك أن يفرش فوطة ، يضع عليها أولا قطع الورق الكبير ثم القطع الأصغر منها وهكذا . ثم ترتب المناشير فى قطع الورق وتوضع فى الفوطة حتى لا يختلط بعضها مع بعض ، ثم توضع المراسيم المربعة والتذاكر ، ثم التواقيع الصغار ، وتلف كلها بعد ذلك وتوضع فى المزرة(٢) ، فتحمل الى القصر وتعرض على الترتيب الذى انتهت إليه . ولا يوضع فى الفوطة التى تحمل الأوراق التى تقدم إلى السلطان لاعتمادها ورق ملون حتى لا ينطمس مداد العلامة . وكان يشترط فى حامل المزرة أن يكون خبيراً بالألقاب والعلامات وحجم الورق ، وأن يقترح على الدوادار إحضار ما يلزم منها (٣) . وكان أول من اتخذ المزرة قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز قبل أن يلى القضاء والوزارة فى أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب . وكان يضم فيها كل صنف إلى صنفه فى ملف حاجز وهو عبارة عن منديل أو فوطة من الغزل ، ويوضع كل صنف مما حوته هذه المزرة فى كيس من الحرير الأصفر الأصلس (٤) .

وكان للدوادار غير حامل المزرة أعوان ويطلق على كل منهم اسم الدوادار أيضاً مع تمييز عددى ، فيُقال الدوادار الثانى والدوادار الثالث وهكذا إلى الدوادار العاشر . ولكل من هؤلاء عمل يتولاه باشراف الدوادار الكبير(٥) .

ويُعاون كاتب السر عدا من تقدم من الموظفين فئة أطلق عليها اسم المُدَرا (جمع مدير) . وهذه التسمية إنما استعملت — على ما ذكره الخالدى — « لدورانهم على بيوت الكُتّاب لاحصاء ما عندهم من الكتابة المتعلقة بالديوان »(٦) .

وكان يستعمل بديوان الانشاء من الورق ثلاثة أنواع : أولا — الورق البَغْدادى ، وكان أجود هذه الأنواع وأكثرها اتساعاً ، وقد خصص لكتابة المصاحف وعهود الخلفاء وبيعتهم ومكاتبة الملوك ، سمى بذلك لأنه كان يُجلب من مدينة بغداد . ثانياً — الورق الشامى وهو

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ص ١٢٥٢ .

(٢) جاء وصف المزرة فى الخالدى : المقصد ص ١٢١ ، فقال : « مزرة متخذة من القماش المخرز الصافى ببطانة فى صفه الكبير ، طولها ذراعان وثمن ، مثنية ، وعرضها ذراع وثلث ، بعلامة من الخيط المحفر تجتمع به فوهتها » .

(٣) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٠ .

(٤) الخالدى : نفس المصدر ص ٢٢١ .

(٥) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٥ .

(٦) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٠ .

على أنواع منها : الحوى وقد عرف بذلك لأنه كان يجلب من حماه ثم ينقل إلى دمشق . ومنها الورق الشامى المشهور الذى كان يستعمل بدواوين الانشاء واليمن والحجاز وبلاد الروم ، كما يستعمل أيضاً فى عمل الدفاتر التى تقدمت الاشارة إليها ، ولا يقدم كاتب السر على استعمال هذا النوع من الورق إلا بإذن السلطان وبعد أن يصدر بذلك مرسوم سلطانى يجيز له ذلك حتى لا يكون سبباً فى إهمال استعمال الورق المصرى . وآخر أنواع الورق الشامى هو ورق الطير ويقال له ورق البطائق وكان رقيقاً جداً بحيث يمكن وضعه تحت أجنحة الحمام الزاجل . ثالثاً — الورق المصرى ومنه الورق المنصورى ويُعتبر أوفى الورق قطعا وأعظمه حجما ويعمل منه الدرج(١)

البريد (٢)

كان البريد واسطة الاتصال بين الدولة المملوكية فى القاهرة وبين نيابتها فى الشام وغيرها من الأقاليم . وكان البريد إذ ذاك إدارة تابعـــة لديوان الانشاء . وقد تنبه المماليك إلى منفعة البريد وعظم شأنه فى سياسة الدولة وإصدار الأوامر للجيوش وحمل المكاتبات إلى الجهات النائية فى أسرع وقت . فرتبه السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٩ هـ ووضع له نظاماً ارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء مملكته بشبكة من خطوط البريد البرى والجوى. كما نظم البريد بواسطة الخيل فى أنحاء سلطنته المترامية الأطراف بين البحر الأبيض وصحراء العرب وبين أعالى النيـل وضفاف الفرات . وارتقى نظام البريد فى مصر فى عهد بيبرس وأصبحت قلعة الجبل مركزاً لخطوط البريد حتى كانت تخرج منها أربعه طرق بريدية يمتد أحدها إلى قوص ، والآخر إلى عيذاب ، والثالث إلى الاسكندرية ، والرابع إلى دمياط ومنهـا إلى غزة (٣) . ومن هذا المكان تتفرع سائر خطوط البريد فى بلاد الشام وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء السلطنة .

ويقع على طول خطوط البريد كثير من المحطات على مسافات لا تزيد إحداها على ثمانية وعشرين ميلا . وكانت هذه المحطات تزود بما يحتاج إليه الموظفون والخيل من ماء وطعام

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٦ . ج ٦ ص ١٩٠ . الخالدى : المقصد ص ١٧٧ — ١٧٨

(٢) بريد كلة فارسية معناها « مقطوع » ويقال إن الفرس استخدموا فى نقل البريد دواب مقطوعة الذنب تمييزاً لها عن غيرها ، فسميت « بريد ذنب » ، ثم حذف العرب كلمة ذنب واقتصروا على لفظ بريد (القلقشندى : نفس المصدر ج ١ ص ٨٥) . ويقال إن « بريد » مأخوذة من كلـة veredus اللاتينية (كتاب البريد فى مصر ص ٣٤) . والبريد فى الأصل اسم لمسافة مقدرة بأربعة فراسخ (الفرسخ ثلاثة أميال) . القلقشندى : نفس المصدر ج ١٤ ص ٣٦٦ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ١٤ ص ٣٧٣ . راجع مقال الاستاذ فييت عن « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » (فى كتاب « فى مصر الاسلامية » الذى أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكباشى عبد الرحمن زكى) ص ٤٤ وما بعدها .

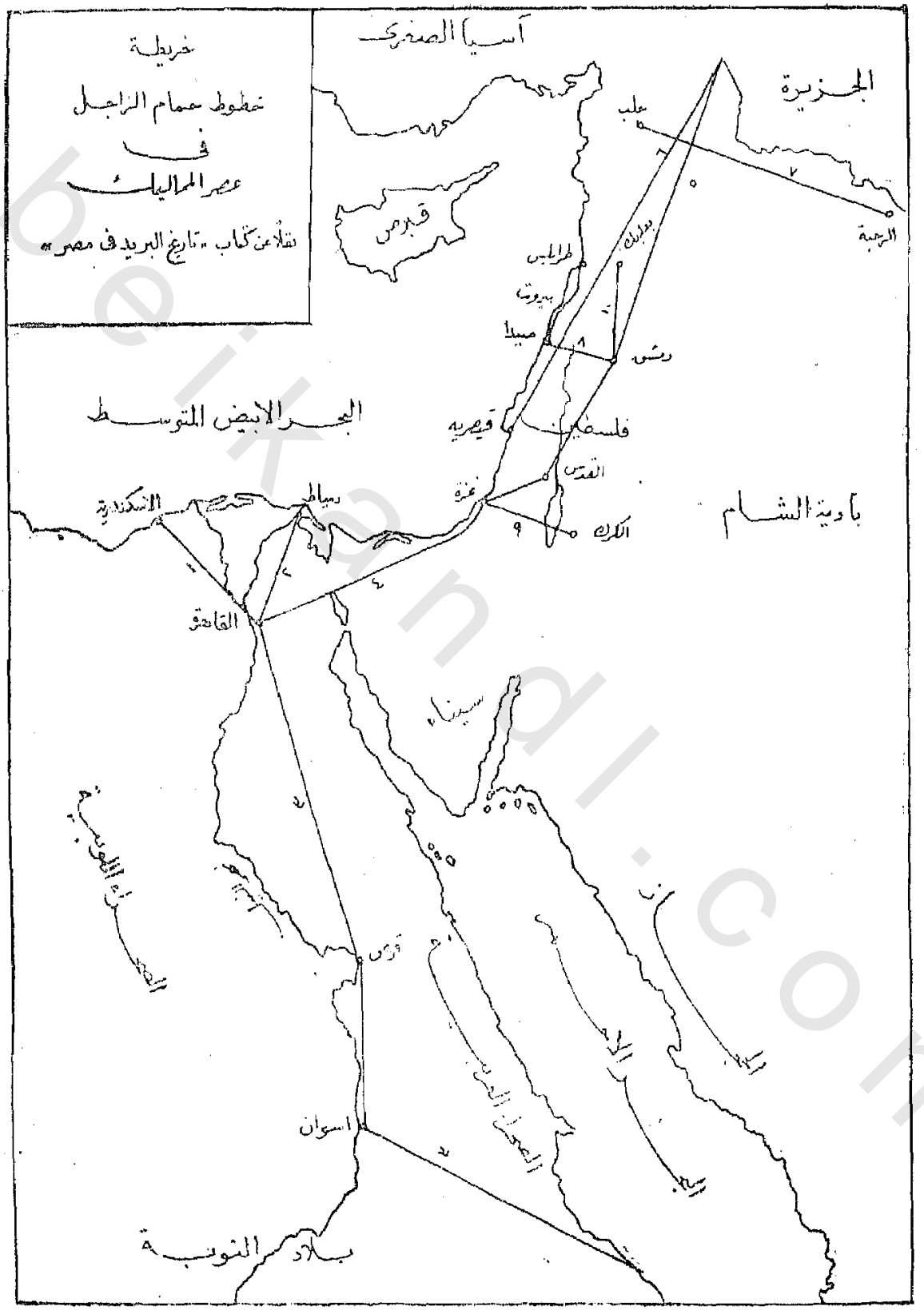

خطوط حمام الزاجل فى عصر المماليك

obeikandl.com

وعلف ومبان لسكنى الموظفين . وفى هذه المحطات يستطيع البريديون أن يغيروا جيادهم بجياد أخرى . وكان لقرب هذه المسافات بعضها من بعض أثر كبير فى تسهيل مهمة الرسل على اجتياز هذه المسافات بسرعة فائقة . ولكل محطة من محطات البريد عدد من الخيل تعرف باسم « خيل البريد » ، يُشرف عليهـــا ويهتم بأمورها عدد من الموظفين . ومن هؤلاء « البَريدىّ » وهو الذى يحمل معه البريد و « السَّواق » وقد عرف بذلك لأنه يسوق خيل البريد . ولكل محطة عدد من السواس يعنون بأمر الجياد لتكون صالحة لقطع المسافات المقررة على أكمل وجه وأسرعه(١) . ولم يكن يسمح بركوب خيل البريد إلا بمرسوم سلطانى(٢) .

وكان البريديون يختارون من الأشخاص الذين عرفوا باخلاصهم للعرش واتصفوا بالفطنة والذكاء لأنهم لم يكونوا مجرد رسل يحملون إلى الملوك رسائل مختومة بل كانوا يضطلعون أحياناً بمهمة توصيل أخبار السلطان مشافهة إلى بعض الملوك والأمراء(٣). وفيما يلى وصف القلقشندى للبريدى وما يجب أن يتحلى به من الصفات ، إذ يقول إن من صفات البريدى أن يكون « قديرا على تنميق الكلام وتحسين العبارة وسماع شبهة المرسل إليه ورد جوابه وإقامة الحجة عليه . . . صحيح الفكرة والمزاج ذا بيان وعارضة ولين واستحكام مَنعة وأن يكون بصيراً بمخارج الكلام وأجوبته مؤدياً للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صدوقا ، بريئاً من الطمع » (٤) .

على أن البريديين لم يكونوا فى هذا العصر طبقة واحدة : فمنهم من يحمل البريد العادى إلى الولاة والنواب ، فاذا أحسنوا القيام بأعمالهم وأصبحوا موضع ثقة السلطان ومحل سره عهد إليهم بحمل الرسائل الهامة إلى الملوك . لهذا لا نعجب إذا أصبح للبريديين فى عصر المماليك مكانة كبرى حتى كانوا يمنحون الأرزاق السنية والخلع الثمينة أسوة بكبار رجال الدولة (٥) .

وكان للبريد ألواح من الفضة حفظت بديوان الانشاء ، وكتب على أحد وجهى كل لوح : « (لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ضرب بالقاهرة المحروسة » وعلى الوجه الآخر : « عز لمولانا السلطان الملك . سلطان الاسلام والمسلمين » (٦) ، وبكل لوح من هذه الألواح ثقب به شرابة صفراء من الحرير

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧٢ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١١ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٨

(٣) كان رجال البريد تابعين للدوادار الذى كان من أمراء المماليك وربما يطمع فى العرش ويعادى السلطان . ولكنهم ألحقوا فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) بديوان الانشا . ومنذ ذلك الحين كانت الأسرار البريدية يقوم بها موظف من أرباب القلم لا مطمع له فى العرش .

Hautecœur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 56

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٢ ص ١١٥ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر جـ ١ ص ١١٤ . جـ ١٤ ص ٣٧١ .

تربط حول عنق البريدى ، على أن يظهر اللوح من الأمام والشرابة من الخلف ، وهذه الشارة تميز البريدى عن سائر موظفى الدولة ، فاذا سافر فى مهمة خاصة كان موضع الرعاية والتقدير وإذا عاد بعد أداء مهمته رد هذا اللوح إلى ديوان الانشاء .

وكان يشرف على البريد صاحب ديوان الانشاء أو كاتب السر كما كان يسمى منذ أيام السلطان قلاوون كما تقدم (١) . وقد عهد إلى صاحب ديوان الانشـــاء حفظ ألواح البريد بالديوان والحرص على ارسال بريد السلطان وإذاعة أوامره(٢). ومما يدل على ما كان للبريد من شأن وخطر فى ذلك العصر أنه اذا وصل البريدى إلى القاهرة تلقاه كاتب السر والدوادار على أثر وصوله وصحباه إلى السلطان ، فيسلم ما معه من البريد بحضور هؤلاء جميعا .

وقد ذكر الخالدى أنه كان للبريديين رئيس مباشر أطلق عليه اسم « مقدم البريدية » ، يضطلع بمهام البريد ويشرف على شئونه ويعمل على النهوض به ويرجع فى النهاية إلى كاتب السر للموافقة على ما يقدمه هذا الموظف من الاقتراحات . وكان مقدم البريدية يقوم بعمل صاحب البريد عند الأمويين والعباسيين . ويليه فى الرتبة سبعة من الموظفين ، أطلق عليهم اسم « المقدمين » يتولى كل منهم أعمال البريد يوماً فى كل أسبوع ، ويعرض أعماله فى نهاية كل يوم على مقدم البريدية (٣) .

وقد بلغ نظام البريد فى عهد المماليك عامة وعصر بيبرس والناصر خاصة مبلغاً عظيما من الدقة حتى إن السلطان كان يشرف بنفسه على سفر البريد فى مواعيده المحددة . وكان لهذا النظام وما وصل إليه من دقة وإحكام أثر كبير فى صد غارات التتار التى طالما هددت مصر وما وليها من البلاد ، كما ساعد على تفقد الأحوال فى مختلف أنحاء السلطنة والالمام بكل كبيرة وصغيرة من أعمال الولاة والنواب .

ولم يقتصر سلاطين المماليك على البريد العادى فى إرسال الرسائل ، بل استخدموا « حمام الزاجل » ، وكان له براجون يعنون به ويدربونه ، فيأخذونه بعيداً عن برجه ويتركونه حتى يعود إليه ثم يزيدون المسافة شيئاً فشيئا حتى يستطيع الحمام أن يقطع مسافات بعيدة (٤) .

وكانت القلعة مركز أبراج حمام الزاجل ، كما كانت له مراكز معينة فى جهات مختلفة كمراكز البريد الجوى ، لكنها تزيد عليها فى المسافة . وكانت له محطات أشبه بمحطات البريد البرى ، ولكن قد تصل المسافة بين كل محطة وأخرى من محطات البريد الجوى إلى ثلاثة أمثال محطات

---

(١) وذلك بعكس ما كانت عليه الحال فى عهد العباسيين فى بغداد حيث كان للبريد ديوان كبير أشبه بمصلحة البريد الآن .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١١٤ .

(٣) الخالدى : المقصد ص ١٢٩ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ١٤ ص ٣٩١ .

البريد البرى . وخصص لكل محطة عدد من الحمام يعنى بشئونه موظفون إخصائيون . وإذا أراد السلطان إرسال رسالة مع الحمام ، وضعت تحت جناحه ، فاذا وصل إلى المحطة التالية نزع البراج هذه الرسالة وعلقها فى جناح طائر آخر فيوصلها إلى المحطة التى تليها (١) ، فيكون أشبه بخيل البريد ولكنه أكثر سرعة وأعظم أمناً .

وفى كل محطة من محطات الحمام برج أو أكثر، يحفظ فيه الحمام الذى يستخدم فى حمل الرسائل إلى المحطة التالية . ولا شك أن تسلم الرسالة من الطائر وشدها إلى أخرى فى كل محطة يستغرق الكثير من الوقت . ولكن كان لهذه الطريقة ، بالاضافة إلى ذلك مزايا لايستهان بها ، فقد وجد بذلك بريد يربط حاضرة السلطنة بسائر الولايات . وكانت إدارة بريد الحمام تحت إشراف حكام الأقاليم . أما رواتب البراجين فلم تقل عن رواتب زملائهم فى البريد البرى(٢).

وكان الايجاز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام فيستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل فى ذلك العصر ، ويكتفى فيها بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة موجزة كصيغ البرقيات فى وقتنا هذا . ولا عجب فى هذا فقد كان يراعى فى استعمال الورق الذى يربط إلى جناح الطائر أن يكون رقيقاً حتى لاينوء بحمله أو يكون سببا فى تقليل سرعته التى هى من أخص مميزاته . وتشد الرسالة تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها(٣) . ويطلق على هذا الورق اسم « ورق بريد الحمام » .

وقد جرت العادة — لزيادة الاطمئنان والثقة — أن تكتب الرسالة من صورتين تُرسلان مع حمامتين ، يُطلق إحداهما بعد إطلاق الأخرى بساعتين ، حتى إذا تأخر أحد الطائرين ووصل الآخر أُخذت البطاقة من تحت جناحه وترك حتى يعثر على رفيقه لئلا يكون قد نزل فى برج من أبراج المدينة أو افترسته الجوارح أو وقع فى أيدى الأعداء (٤) .

ويميز حمام البريد السلطانى بعلامات خاصة كبصم منقاره أو قص ريشه بنظام معين . فاذا وصل الحمام إلى قلعة الجبل ببطاقة ، أخذه البراج (وفى جناحه البطاقة) وجاء به إلى الدوادار الكبير وعرضه عليه فيخرج هذا البطاقة من تحت جناحه . فاذا لم يكن هناك ما يدعو لعرض البطاقة على السلطان تصرف فيها الدوادار بنفسه ، وإلا عرضها على كاتب السر ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١ . — ٣٩٢ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١١
Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 25.

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣١ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ١ ص ١١٨ . المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٣١ — ٢٣٢ راجع مقالة « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » للاستاذ ڤييت ، وترجمة محمد وهبى افندى ص ٣٢ — ٥٤ .

فيعرضها بدوره على السلطان على نحو ما كان متبعاً فى البريد البرى تماماً(١) . وكانت للسلطان عناية شديدة بالرسائل التى يحملها الحمام ، حتى أنه كان يأمر بادخاله عليه حين وصوله ، بل لقد كان يترك طعامه أو يستيقظ من نومه فى الحال عند وصول رسائل الحمام الزاجل(٢) .

وقد نظّم نقل البريد بواسطة الحمام حسب الخطوط الآتية :

١ — بين القاهرة والاسكندرية .

٢ — بين القاهرة ودمياط .

٣ — بين القاهرة والوجه القبلى (قوص وأسوان وعيذاب) .

٤ — بين القاهرة ودمشق عن طريق غزة وأورشليم .

٥ — بين دمشق وبَرّ ثة(٣) على نهر الفرات .

٦ — بين برثة وقيصرية .

٧ — بين حلب والرحبة على نهر الفرات .

٨ — بين دمشق وصيدا وبيروت وطرابلس

٩ — بين غزة والكرك على البحر الميت .

١٠ — بين دمشق وبعلبك(٤) .

وكان الحمام يقطع المسافة بين المحطة والتى تليها — وهى سبعة أميال تقريباً — فى ثلث الوقت الذى يقطعها فيه الخيل . وبلغ عدد الحمام الزاجل من الكثرة بحيث أنه وصل فى بعض الأحيان إلى ألف وخمسمائة حمامة . وأدى هذا النوع من البريد خدمات جليلة لسلطنة المماليك واستطاع كل سلطان أن يتصل بولاته ونوابه بفضل هذا الحمام الذى كان يرافقهم أينما سار .

٢ — ديوان الأحباس :

ومن الدواوين الهامة فى عصر المماليك « ديوان الأحباس » ويشبه وزارة الأوقاف اليوم . ويتولى صاحبه الاشراف على الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس ، والأراضى والعقارات المحبوسة عليها ، والاحسان على الفقراء والمعوزين . وكان أول من أدخل ديوان الأحباس بمصر القاضى الليث بن سعد ، فقد أثر عنه أنه اشترى بعض الأراضى التابعة لبيت المال فى جهات عدة وحبّسها على وجوه البر ، فسميت « الأحباس » ثم أضيفت إلى هذه

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١١٨ — ١١٩ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣١ . Lane-Poole: Egypt in the Middle Ages, p. 246

(٣) برثة — موضع بنواحى الكوفة . انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٤) انظر خريطة خطوط حمام الزاجل فى عصر المماليك نقلا عن كتاب « تاريخ البريد فى مصر » .

الأراضى بعض الرباع والدور فى مدينة الفسطاط وغير ذلك من مصادر الاحسان (١) .
وقد ظل النظر فى شئون الأحباس من اختصاص القاضى فى عهد الدولة الأيوبية ، فلما جاء المماليك ، قسموا ديوان الأحباس ثلاثة أقسام أو إدارات رئيسية . الأولى هى : «الأحباس» ، ويشرف عليها الدوادار وناظر الخاص والمدير وعدد من الكتاب ، ويتولى صاحبها توزيع الصدقات التى تأتى من ريع الأراضى الموقوفة على المساجد والزوايا .

والثانية تسمى « الأوقاف الحكيمة » ويقصد بها الرباع الموقوفة على الحرمين وعلى الأسرى ويشرف عليها قاضى قضاة الشافعية ويعرف باسم « ناظر الأوقاف » وكان ينيب عنه رجلا يتولى شئون أوقاف القاهرة ومصر . وقد ينيب عنه رجلين : يتولى أحدهما الاشراف على أوقاف القاهرة والآخر على أوقاف مصر . ولكل من أوقاف القاهرة ومصر ديوان يعمل فيه عدد كبير من الكتاب والجباه . وكان هذا القسم يدر الأموال الوفيرة على طلبة العلم وعلى الفقراء والمعوزين (٢).

أما الادارة الثالثة وهى « الأوقاف الأهلية » فقد كان لها ناظر خاص يدير شئونها ويختار من أولاد الواقف وقد يوليه السلطان أو القاضى ، ويشرف ناظر الأوقاف الأهلية على الخوانق والمدارس والجوامع والمقابر . وكانت موارد هذا القسم وفيرة لاتساع الأراضى التى وقفها السلاطين واهتمام المماليك عامة ببناء المدارس والمساجد والخوانق ونحوها حتى إنهم وقفوا عليها كثيراً من أراضى مصر والشام ، لسد نفقات هذه المنشئات العلمية والخيرية . على أن كثيراً من هذه الأراضى لم يوقف على هذه الأعمال عن طريق مالكيها وإنما لجأ السلطان إلى طريقة لاتتفق وشروط الواقف ؛ ذلك أنه كان يوعز إلى بعض القضاة باثبات تحول هذه الأراضى إلى أراض موقوفة على هذه المنشئات (٣).

٣ — ديوان النظر

أما «ديوان النظر» فكان بلا شك أهم دواوين الحكومة إذ ذاك شأنا . وكان يشبه وزارة المالية اليوم ، ترجع اليه سائر الدواوين فى كل مايتعلق بالمسائل الخاصة بالمتحصل والمنصرف من أموال الدولة ، ولهذا الديوان فوق ذلك الاشراف على حسابات الدولة ، وعلى أرزاق (مرتبات) الموظفين الدائمين والمؤقتين ، وهم يعملون بالسنة أو بالشهر أو باليوم . وكانت

---

(١) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٣٧٢ . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٨
المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ . Zaky M. Hassan : Les Tulunides, p. 260.
Amedroz : The Office of Kadi (Journal of the Royal Asiatic Society, July 1910, p.785).

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٩٦ . الخالدى : المقصد ص ١٣٢ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٩٦ . Demombynes : La Syrie. p.LXXIX.

أرزاق أرباب الأقلام تدفع مشاهرة . وتدفع عيناً وغلة معاً . هذا عدا ما كان يصرف لكبار الموظفين من هذه الطبقة من أصناف معينة من الأطعمة والملابس ، إذ يمنحون فوق رواتبهم مقادير من اللحم والتوابل والخبز والسكر والزيت والشمع ، وتوزع عليهم الكسا فى كل سنة . وتمنح هذه الرواتب لكل موظف تبعا لمكانته وأهمية العمل الذى يضطلع بأعبائه(١) .

وكان مقر ديوان النظر فى القلعة . وأطلق عليه اسم « بيت المال » أو « ديوان نظر الدولة » . ويشرف عليه « ناظر المال » ، ويسمى أيضاً « ناظر النُّظار » و « الصَّاحب الشريف » و « ناظر الدواوين » . وكان هذا الموظف الكبير يساعد الوزير فى تصريف شئون الدولة المالية فى مصر والشام ، ويقوم مقامه إذا غاب . فلما ألغيت الوزارة فى عهد السلطان الناصر محمد سنة ٧٢٧ هـ انتقلت سلطة الوزير إلى ناظر المال . فكان يلقب بلقب « ناظر الدولة » . وصار « شادّ الدواوين » هو المتصرف فى الشئون الماليه باشراف ناظر الدولة . واستمر الحال على ذلك حتى توفى السلطان الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ وأعيدت الوزارة واقتصر نفوذ ناظر المال على ما كانت عليه قبل إلغائها .

وكانت وظيفة ناظر المال من أهم وظائف الدولة . ومما يدل على خطر متولى هذه الوظيفة ما رواه المقريزى من أنه « يصعد ومعه شهود بيت المال ، وصيرفى بيت المال ، وكاتب المال إلى قلعة الجبل . . . فيكون له أمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الحمول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة فى الرواتب لأهل الدولة وكانت أمراً عظيما(٢) » .

ويلى ناظر المال فى الرتبة موظف يعرف باسم « مستوفى الصحبة »(٣) ، وهو بمثابة وكيل ديوان النظر . ومهمته إعداد المراسيم الخاصة بتنظيم شئون الدولة المالية فى مصر والنيابات التابعة لها ، واقتراح تعيين الموظفين . ويساعد مستوفى الصحبة فى عمله موظف آخر يعرف باسم « مستوفى الدولة »(٤) ، وهو أشبه بمساعد لوكيل بيت المال . وقد يساعد مستوفى

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٢٤ .

ألغى ديوان النظر فى عهد دولة المماليك البرجية رغم ما كان يؤديه للبلاد من خدمات وما يضطلع به صاحبه من أعباء فى دولة المماليك البحرية . وقد أثر هذا الحادث فى نفس شيخ مؤرخى مصر الاسلامية وهو تقى الدين المقريزى الذى رثا بيت المال وناظر المال فى هذه الكلمات فقال : « تلاشى المال وبيت المال وذهب الاسم المسمى ولا يعرف اليوم بيت المال من القلعة ولا يدرى ناظر المال من هو (نفس المصدر والجزء والصفحة) .

(٣) اقرأ نص وصية « مستوفى الصحبة » فى ابن فضل الله العمرى . التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٥ .

(٤) اقرأ نص تعيين « مستوفى الدولة » فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٥٥ — ٣٥٦

الصحبة مستوفيان أو أكثر(١).

ويعاون مُستوفى الصحبة ومستوفى الدولة كثير من الموظفين ، يعرفون باسم «المستوفين». ويطلق ذلك اللقب على كبار الكتاب المتصلين بدواوين الحكومة عامة . وكانت مهمة المُستَوفى الاشراف على الديوان التابع له ، والسهر على تنفيذ القوانين التى تكفل ضبط أموره وزيادة موارده(٢) . وقد أورد ابن مماتى الأعمال التى كان يتولاها « المستوفى » فى هذه العبارة : « هذا كاتب يكون صاحب مجلس فى الديوان ، يطالب معامليه بما يجب عليهم ، من حساب يُعمل ومال يُحمل ، وينبه متولى الديوان على ما ينبغى تنبيهه عليه فى أوقاته من أمور خدمته ، ويستوفى الحسابات (فى الأصل الحسبانات) (٣) ويخرج ما يجب تخريجه فيها ، ويعمل المطالعات والتذاكر (٤) (فى الأصل التذاكير) ويخرج الأموال ويحقق الحسابات »(٥) . حقا إن هذه العبارة التى نقتبسها من ابن مماتى تشير إلى العصر الأيوبى ، ولكن أكبر الظن أنها تنصرف أيضاً إلى عصر المماليك لأنه لم يحدث فى هذا الميدان أى تغيير ملموس .

٤ — ديوان الخاص

أنشأ الناصر محمد فى سنة ٧٢٧ هـ ديواناً خاصا بشئون السلطان المالية ، عرف باسم « ديوان الخاص » . وتولى الاشراف عليه موظف كبير مسئول أطلق عليه اسم « ناظر الخاص »(٦). على أن السلطان الناصر محمد لم يكن أول من استحدث منصب « نظارة الخاص » فقد عرف بمصر فى عهد الفاطميين (٧) وفى عهد الأيوبيين من بعدهم (٨) . ولكن هذا المنصب لم يبلغ القدر الذى بلغه فى سلطنة الناصر ، حيث أصبح ناظر الخاص فى مرتبة « ناظر الدولة »

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٩ — ٣٠ . المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٢٤ . الخالدى : المقصد ص ١٣٥ Demombynes : La Syrie,LXVIII.

(٢) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٦٦ .

(٣) الحسبانات جمع حسبان — وهو نوع من دفاتر الحساب المستعملة عندهم . انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى .

(٤) التذاكر — جمع تذكرة وهى كل مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه بالأقاليم المصرية ونيابات الشام أو إلى قصاده الذين يرسلهم فى مهام الدولة لتذكيرهم بتفاصيل ما يوكل اليهم ولتكون بمثابة ورقة اعتماد وحجة عند الجهات التى يقصدونها . القلقشندى : نفس المصدر جـ ١٣ ص ٧٩ — ٨١ . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٨٠ حاشية للدكتور زيادة .

(٥) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٧ .

(٦) اقرأ نسخة تقليد ناظر الخاص فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٣١٧ — ٣١٩ . يقابل « ناظر الخاص » فى مصر الرومانية الموظف المعرف باسم Idiologos

(٧) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٧ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٦٥ — ٤٦٦ .

وغدا من اختصاصه تعيين موظفى هذا الديوان والبت فى مهام الأمور بعد استشارة السلطان وتلقى أوامره (١) كما كان ينوب عن السلطان فى كل ما يباع ويشترى من أملاك الخاصة السلطانية وازداد نفوذه لكثرة تقربه منه حتى أصبح يتدخل فى أموره الخاصة (٢) .

وكان يساعد ناظر الخاص فى ادارة شئون هذا الديوان موظفون مماثلون لموظفى ديوان بيت المال من حيث تسميتهم وعددهم ، وأهمهم « مستوفى الخاص » ، ويشرف على كل ما يرد إلى الديوان أو يصدر منه ويفصل فيه بما يراه .

ويتولى ناظر الخاص الاشراف على الخزانة السلطانية التى كان مقرها قلعة الجبل ويشرف على الخزانة فى البداية موظف كبير يسمى « ناظر الخزانة » (٣) يختار من القضاة وغيرهم من موظفى الدولة المشهود لهم بالعدالة والأمانة وحسن السمعة ، ويؤتمن على ما فى القصر من الأموال والجواهر والخلع والتحف ونحوها . فلما استحدث السلطان الناصر محمد نظام ديوان الخاص سنة ٧٢٧ هـ على ما ذكرنا ، انتقلت سلطة ناظر الخزانة إلى ناظر الخاص (٤) ، ولم يبق بالخزانة إلا الخلع التى تخلع على الأمراء وكبار رجال الدولة فى الأعياد والمواسم . وظلت الخزانة بقلعة الجبل حتى اتخذها الأمير نبطاش سجنا لمماليك السلطان الظاهر برقوق سنة ٨٠٩ هـ فأصبحت الخلع تودع بعد ذلك فى ديوان الخاص (٥) .

وكان ديوان الخاص يتولى الانفاق على شراء اللحوم والكسا لموظفى القصر السلطانى وكبار رجال الدولة ، ونواب السلطنة فى الشام . والأمراء والقضاة ، والمماليك السلطانية وغيرهم (٦) .

الدواوين الأخرى :

وهناك دواوين أخرى أقل شأنا من الدواوين التى تقدمت الاشارة اليها مثل « ديوان الأهراء » وهى شون الغلال السلطانية ، و « ديوان الطواحين » ويتولى صاحبه طحن الغلال ، و « ديوان المرتجعات » ويشرف صاحبه على الأمور الخاصة بتركات الأمراء . (٧) وهناك

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤ . الخالدى : المقصد ص ١٣٥ .

(٣) اقرأ صورة تقليد ناظر الخزانة فى القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ . وراجع أيضا صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١ .

(٤) اقرأ صورة تقليد ناظر خزانة الخاص فى القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣٤٠ — ٣٤٢

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣١ ؛ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ ؛ والخالدى : المقصد ص ١٣٧ ؛ Demombynes : La Syrie : p. LXXII. Van Berchem : Corpus, I, p. 347

(٦) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ . الخالدى : المقصد ص ١٣٥ .
Demombynes : La Syrie, p. LXXIV.

دواوين أخرى ذكرها القلقشندى على أنها مستقلة ، ولكنها لم تكن فى حقيقة الأمر سوى ادارات تتصل اتصالا مباشرا بالقصر السلطانى أو بالدواوين التى تكلمنا عنها ، ومن ذلك : ديوان الاصطبلات ، وديوان الخزانة ، وديوان العمائر ، وديوان المستأجرات ، وديوان المواريث الحشرية للاشراف على ميراث من يموت ولا وارث له أو من يموت وله وارث لايستغرق ميراثه(١) .

وكان يتولى شئون الأموال التى تجبى من الاسكندرية موظف يسمى « ناظر ثغر الاسكندرية »(٢) . وكانت تجارة البهار وغيرها من مستوردات الهند والبلاد الشرقية يتولى شئونها موظف كبير ولكنها كانت تضاف أحيانا إلى الوزارة وأحيانا إلى نظارة الخاص(٣).

ومن الموظفين البارزين فى ذلك العصر « شيخ الشيوخ » ويعد رئيس الخانقاه التى شيدها الناصر سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) فى سرياقوس من ضواحى القاهرة ، وأصبح لرئيس هذه الخانقاه الاشراف العام على خانكات مصر (٤) ، ومن الوظائف الدينية فى عصر المماليك وظيفة « ناظر الكسوة »(٥) وكان يتولاها القضاة ورجال القلم .

التنظيم الادارى :

كانت دواوين الحكومة فى عصر المماليك على نسق واحد من حيث التنظيم الادارى(٦)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٣ .

(٢) اقرأ صورة تقليد ناظر ثغر الاسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ وعن « ناظر ثغر الاسكندرية » راجع الخالدى : المقصد ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٧ — ٣٣ . الخالدى : نفس المصدر ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٤) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 104

(٥) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 346—347.

جاء وصف دوران المحمل واشتراك ناظر الكسوة فيه فى القلقشندى (نفس المصدر جـ ٤ ص ٥٧ ـ ٥٨) فقال : « ويكون دورانه فى يوم الأثنين أو الخميس لا يتعداها ويحمل المحمل على جمل وهو فى هيئة لطيفة من خركاة وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر ، وبأعلاه قبة من فضة مطلية ويبيت فى ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور ويسير الى تحت القلعة فيركب أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم » .

وقد شاهد ابن بطوطة أثناء زيارته القاهرة سنة ٧٢٦ هـ « موكب المحمل أو دوران الجمل » وأتى بتفصيل دقيق لسير هذا الموكب . راجع تحفة النظار لابن بطوطة جـ ١ ص ٣٦ .

(٦) كان موظفو الدواوين فى أوائل عهد الدولة الأيوبية — على ما ذكره ابن مماتى فى « كتاب قوانين الدواوين » الذى نشره الدكتور عزيز سوريال عطيه — « المستخدمين من حملة الأقلام لا يتجاوزون سبعة عشر رجلا بمن فيهم من يلزمه رفع الحساب وإن لم يدخل فى عداد الكتاب وهم : ناظر ، متولى ديوان ، مستوفى ، معين ، ناسخ ، مشارف ، عامل ، كاتب ، جهبذ ، شاهد ، نايب ، أمين ، ناسخ ، دليل ، حايز ، خازن ، حاشر » .

فكان على رأس كل ديوان موظف كبير هو « الناظر »[1] ويقوم بمهام الوزير اليوم. ويليه فى الرتبة « مستوفى الصحبة » و « مستوفى الدولة » ويشرفان على موظفى الديوان على اختلافهم. ويلى هؤلاء طبقة من الموظفين مثل الشاد والمستوفين والكتاب وغيرهم.

ويظهر أن بعض الموظفين كانت اختصاصاتهم مشتركة بالنظر فى بعض الأمور، كما كان يحدث بين والى القاهرة والمحتسب مثلا ولسنا ندرى ماذا كان يحدث فى مثل هذه الحالات. ولكن الباحث يصل إلى أن سلطة الوظائف كانت تتوقف إلى حد كبير على شخصية شاغليها، وأن بعضهم كان يقوى نفوذه وتبرز مواهبه فيطغى على اختصاص غيره، وأن الناصر محمد كان يعمل على إلغاء بعض الوظائف إذا لم يرض عن أصحابها أو يعمد إلى إيجاد وظائف أخرى تنازعها السلطة والاختصاص إذا أثبت أصحاب الوظائف الأولى عجزاً عن القيام بأعبائها من ناحية أو استقلالا فى الرأى من ناحية أخرى. ومثل هذا الاضطراب فى الوظائف واختصاصها أمر غير مستغرب فى بيئة كان باب الخلاف فى الرأى ممتوحا بين الفقهاء فيها ولم تكن النظم الادارية قدوضعت على أسس وقوانين لا تقبل التفسيرات المختلفة.

وإن الذى يدرس الكتابات التاريخية، يلاحظ أن الألقاب العديدة التى تشهد بتشعب الوظائف الادارية موجودة فى عصر دولتى المماليك وتبدأ فى الزيادة السريعة منذ سنة ٧٠٠ هـ حتى تختفى نحو سنة ٩٣٠ هـ وترتفع فى هذه الفترة مرتين: بين عامى ٧٠٠ و ٧٥٠ هـ وبين عامى ٨٥٠ و ٩٠٠ هـ أى فى حكم السلطان الناصر محمد والسلطان قايتباى. ويدل ذلك على أن عصر المماليك رغم عيوبه وبدء دلائل الاضمحلال فيه، كانت له إدارة قوية: فالسلطان قطز والسلطان الظاهر بيبرس يؤسسان الدولة على أنقاض هزيمة التتار والأيوبيين والصليبيين. والسلطان قلاوون والسلطان خليل يتمان القضاء على المملكة اللاتينية فى الشام. ومنذ ذلك الحين تستقر إدارة المماليك التى نستطيع أن نكشف كثيراً من أمورها المتشعبة بفضل ما جاء فى المصادر العربية وبفضل الألقاب التى جاءت فى الكتابات التاريخية وبفضل مراسلات المماليك مع الدول الأوربية فضلا عما جاء فى كتب الرحالة الغربيين فى الشرق[2].

وكان سلاطين المماليك فى البداية يعينون المماليك فى كل الوظائف أو معظمها. وقد احتفظوا بهذه القاعدة إلى نهاية حكمهم فيما يختص بالوظائف الكبيرة. ولكنهم اضطروا إلى أن يتخذوا فى وظائف كاتب السر وصاحب ديوان الانشا وما إلى ذلك موظفين من غير المماليك، بل

= ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم الوظائف الديوانية قد ظل فى دولة الناصر بالاضافة إلى ما استحدثه المماليك من الوظائف المختلفة.

(١) انظر صورة توقيع لناظر الديوان فى القلقشندى: صبح الأعشى ج ١١ ص ٦٦ — ٦٨

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 227–228

كانوا يلحقون بها المسيحيين واليهود من أهل الذمة لأن المماليك لم يكونوا يتقنون مثل هذه الأعمال .

ولم يكن العرب أو أولاد المماليك يستطيعون الوصول إلى المناصب العالية أو إلى مرتبة مقدم ألف فانهم لم يتعدوا مرتبة أمراء الطبلخاناه . ولسنا نعرف شواذ لهذه القاعدة فى عصر الناصر .

وكان معظم الموظفين الماليين من القبط ، فقد اشتهروا بالنشاط والكفاية فى تولى هذه الأعمال . ولكن فى عصر قلاوون اضطهد المسيحيون وأبعدوا عن الوظائف ، إذا صح ماذكره أبو المحاسن عن حوادث سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) : « ثم فى هذه السنة رسم السلطان ألا يستخدم أحد من الأمراء وغيرهم فى دواوينهم أحدا من النصارى واليهود وحرض على ذلك فامتثل ذلك الأمراء جميعهم »(١).

ومن العقوبات الخفيفة التى كانت توقع على الموظفين فى ذلك العصر الاحالة على الاستيداع ، وكان الموظف فى هذه الحالة خاضعاً لرقابة إدارية وملزما الاقامة فى القدس أو دمياط أو قوس أو مكة (٢) . وكانت الاحالة على التقاعد بعد الخدمة الطويلة أمراً طبيعياً بين صغار الموظفين ، ولكنها كانت نادرة جداً بين كبار رجال الدولة(٣) .

ولم تكن هناك قواعد محترمة أو حقوق لأصحاب الوظائف فى الترقى . ويلفت النظر فى نظام المماليك عامة عدم الاستقرار فى الوظائف : كثرة التولية والعزل والحبس والاعدام . وقد درس الاستاذ فيت (Wiet) تراجم ٢٢٠ موظفا كبيراً فى عصر المماليك ، فوجد أن ٨٤ منهم أعدموا و ٥ ماتوا فى السجن و ٨ قتلوا و ٢ ماتا فى الخارج بعد الخروج على السلطان الحاكم و ١٦ ماتوا فى قتال العدو و ٨٨ ماتوا موتاً طبيعيا أثناء توليهم الوظيفة و ٦ أحيلوا إلى التقاعد ، ولم يستطع أن يجمع البيانات الكافية عن ١٦ منهم(٤).

ودرس الأستاذ فيت تراجم ٧٤ نائبا للسلطنة فى دمشق فتبين له أن ٢٩ منهم أعلنوا الثورة على السلطان الحاكم ووصل منهم اثنان إلى مرتبة السلطان وهما لاچين وشيخ ونجح اثنان فى الهرب خارج الدولة وحصل خمسة على عفو السلطان وسجن خمسة ثم أفرج عنهم وأعدم خمسة عشر .(٥) ولم يكن عصر الناصر أكثر استقراراً من ذلك ،

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٤ .

(٢) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire. p. 57.

(٣) Ibid p. 57.

ويقول ابن اياس (بدائع الزهور ج ١ ص ١١٥) بصدد استعفاء كبار الموظفين إن « الأمير أيبك الأفرم عين نائباً للسلطنة [سنة ٦٧٨ هـ] وأقام مدة يسيرة ثم استعفى من ذلك فأعفاه السلطان ورتب له ما يكفيه ولزم بيته » . راجع فى هذا الصدد بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٧ .

(٤) Hautecoeur et Wiet : les Mosquées du Caire, p. 56

(٥) Ibid. p. 56.

كان الموظفون فى عصر المماليك عامة وفى عصر الناصر خاصة على نوعين : أرباب السيوف وهم رجال الجيش ، ولم يكونوا مصريين ، وهم الذين ينفذون أوامر السلطان وينصرونه ويعتمدون عليه فى أمورهم المعاشية ، وفى بعض الأحيان كانوا يسيئون استعمال النفوذ الذى يتمتعون به . ومن حسن حظ المصريين أن أولئك المماليك كانوا يقضون جزءاً كبيراً من وقتهم فى القتال ، فانهم حين كانوا يقيمون فى العاصمة فى أوقات السلم ، يعمدون إلى إثارة الفتن والدسائس وتدبير المؤامرات ويستهترون بأرواح المدنيين كاستهتارهم بأرواحهم أنفسهم فى ميادين القتال (١).

أما أرباب القلم فكان معظمهم من المصريين . ولكن لم يؤثر عنهم أنهم استطاعوا خلع سلطان أو تغيير أسرة حاكمة ، مع أن كل الأسرات الحاكمة كانت تعتمد عليهم فى إدارة شئون البلاد حتى ليمكن القول بأن السلاطين والأمراء كانوا يعتبرون وادى النيل ضيعة كبيرة يديرها الموظفون من أرباب القلم ورجال الادارة المالية (٢) .

وعلى الجملة فانه ظهر فى مصر اذ ذاك نظام إدارى على جانب عظيم من الدقة والاتقان . وساعد على ذلك أن الناصر حكم فى سلطنته الثالثة منفردا لمدة اثنتين وثلاثين عام وهو أطول حكم لسلطان فى دولتى المماليك فهدأت الأحوال فى عهده مما ساعد على استقرار النظم الادارية وخاصة بعد أن تخلصت دولته من المغول والصليبيين . وحسبنا دليلا على دقة النظام الادارى فى مصر فى ذلك العصر ماورواه المقريزى من أن السلطان الناصر « كان لا يرتشى ويمقت من يرتشى ويعاقبه أشد العقوبة » (٣).

---

(١) Ibid, p. 184.

(٢) Ibid, p. 184—185.

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ٢ القسم الرابع ص ٤٤٤ .

الباب العاشر

الجيش والبحرية

ديوان الجيش :

كان ديوان الجيش أحد دواوين الحكومة التى تكلمنا عليها فى الباب الذى أفردناه عند الكلام على الحكومة المصرية . ولكننا رأينا أن نفرد لنظام الجيش باباً خاصاً . لأن الدولة المملوكية نشأت وقامت وترعرعت وتوطدت أركانها فى ظل ذلك النظام الحربى الذى هو من أخص مميزاتها وأبرز صفاتها . ولا عجب فى ذلك فقد نشأ المماليك نشأة عسكرية ، واشتهروا بالفروسية ومهروا فى ركوب الخيل وفى رمى النشاب والرماح ، واتصفوا بالشجاعة والبسالة ، تلك الصفات التى ميزتهم عن غيرهم وساعدتهم على الاحتفاظ بدولتهم . لذلك لم يكن بد من أن نبحث نظام الجيش وديوان الجيش باعتباره المركز الرئيسى الذى يهيمن على شئون الجند فى مصر وفى الولايات التابعة لها .

كان ديوان الجيش أول ديوان وضع فى الاسلام ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب . ويشرف فى عصر المماليك على شئون الاقطاعات ، حتى إقطاعات السلاطين وأولادهم . وكان أضبط الدواوين وأكثرها نفعاً[1] ، وفيه تحفظ الأوراق الخاصة بأسماء الجنود والأمراء ، ومركزه قلعة الجبل . ويقول القلقشندى : « ومن قاعدة هذه المملكة أن أحفاد الأمراء كافة كانت تعرض بالديوان . أما الآن فقد ترك ما هنالك واكتفى بأوراق تكتب فى دواوين الأمراء بأسماء أحفادهم وتخلد بديوان الجيش . ثم كلما مات واحد منهم أو فصل من الخدمة عرض بديوان الجيش واحد مكانه يتناول ما كان يتناوله الأول من ديوان ذلك الأمير »[2] .

من ذلك نرى أن ديوان الجيش لم يكن يدون أسماء الجنود إلا بواسطة أمرائهم . ولم يكن الجندى يتمكن من الانتقال من خدمة الأمير التابع له إلى خدمة أمير آخر إلا باذن السلطان وبعد صدور مرسوم خاص منه أو من نائبه[3] . وكان الجندى فى سلطنة المماليك يتبع أميره فى كل شىء .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ . الخالدى : المقصد ص ٢٠٥ .

Demombynes : La Syrie, p. LXXII.

(٢) صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦٢ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة . عن نظام الجيش فى ذلك العصر راجع :

Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, pp. 48—51.

وكان يرأس هذا الديوان موظف كبير يعرف باسم « ناظر الجيش »[١] . ويتولى أمر الاقطاعات بمصر والشام ، ويصدر أوامره بتدوين كل ما يختص بهذه الاقطاعات فى سجل خاص ، ويستشير السلطان فى شئونها[٢]. وكان ناظر الجيش يشبه فى الوقت الحالى وزير الدفاع ، وتعد وظيفته من الوظائف العالية فى الدولة ، لأنه يشرف على الجيوش وما يتعلق بها فى ذلك العهد الذى كان للجندية فيه مكان رفيع . وليس أدل على صحة هذا القول مما رواه خليل ابن شاهين الظاهرى : « وقد اجتمع أهل الدراية بتدبير الممالك ، ومن انتصب لاصلاحها بايضاح الطرق والمسالك ، أن من فراسة المملكة وسياقة الدولة ضبط أمور الجيش وحفظ أحوال الجند ، فانه قطب مدارها وسبب استقرارها ، فيتعين الاعتناء به والنظر فى مصالح كتابه ، فان شأنه أرفع وديوانه أجمع وعلمه أوسع ، لا سيما فى دولة فسيحة الأطراف واسعة الأكناف قد دلت جريدة جيشها على الآلاف فتحتاج إلى ترتيب منازلها على قدر طبقاتهم وضبط مقادير إقطاعاتهم ورعاية مبادىء مددهم وأوقاتهم . ومعظم هذه الأمور مغدوقة بناظر الجيوش المنصورة المشار إليه الذى مداره جميع أحوال المملكة على ما يصدر عنه ويرد إليه »[٣].

وكان أشهر من تولوا وظيفة ناظر الجيش فى عهد السلطان الناصر هم : ابن الحلى والقاضى فخر الدين (مرتين) والقاضى قطب الدين بن الشيخ والقاضى شمس الدين موسى بن تاج الدين اسحق والقاضى مكين الدين بن قرونية والقاضى جمال الدين الكفاة[٤] .

وكان يعاون ناظر الجيش أربعة من كبار الموظفين : أولهم صاحب ديوان الجيش ، ويلى ناظر الجيش فى الرتبة وينوب عنه فى تصريف شئون هذا الديوان إذا غاب ، فهو بمثابة وكيل وزارة الدفاع الآن . وثانيهم مستوفى الجيش ومهمته تحديد مرتبات الجنود وتدوينها فى كشوف خاصة ، ويشرف على تنفيذ ماجاء بها بعد اعتمادها من السلطان ، وكان يقوم بهذا العمل شخصان : الأول يسمى مستوفى إقطاعات الديار المصرية ، ويطلق على الثانى مستوفى إقطاعات البلاد الشامية ، وقد وزع اختصاص هذين الشخصين على هذا النحو ، لأن ديوان الجيش كان منقسما إلى ديوانين : الأول يعرف باسم ديوان الجيش المصرى والثانى يعرف باسم ديوان الجيش الشامى . وكل منهما يتولى أمور الجيش فى مصر أو الشام حسب اختصاصه[٥] .

وثالث هؤلاء الأعوان يسمى مستوفى إقطاع العرب ، ويتصرف فى شئون إقطاعات العرب وربما ألغيت وظيفته وأضيف اختصاصها إلى مستوفى إقطاعات البلاد الشامية . أما

---

(١) اقرأ نص وصية « ناظر الجيش » فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٩ ص ٣٢٣ — ٣٢٤

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ .

(٤) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ص ١٢٥٢ .

(٥) الخالدى : المقصد ص ١٣٦ ؛ Poliak : Feudalism in the Near East, p. 20.

الموظف الرابع فهو مستوفى الرزق ويشرف على صرف مرتبات الجنود . ويشترط فى هؤلاء الموظفين أن يكونوا على جانب عظيم من الأمانة والدقة فى تصريف الأمور التى يكلفونها والدراية بدقائق أعمالهم (١) . ويعمل معهم عدد وافر من الكتاب والشهود ، إذ كان هذا الديوان يشرف على جميع جنود الدولة ، بما فيهم المماليك السلطانية الذين يؤلفون قسما هاماً من جيش المماليك(٢) .

ويساعد ناظر الجيش فى عمله موظف كبير يعرف باسم « نقيب الجيش » (٣). ويعهد اليه بأمر حراسة السلطان أثناء سفره أو حين خروجه فى المواكب . ويقوم باستدعاء من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ، ويشرف على الجند فى أثناء عرضهم كما يتكلم عنه وقت محاكمة الخصوم من المماليك فى طباق القلعة وينقل إجاباتهم إليه (٤) . ومن اختصاصه الحكم فى الأمور البسيطة ، وبذلك لم تعد وظيفته وظيفة أحد صغار الحجاب (٥) .

وكان نقيب الجيش يختار من أمراء العشرات . وتمتع صاحب هذه الوظيفة بنفوذ كبير حتى خافه الناس وخشوا بأسه وجبروته . وفى ذلك يقول المقريزى : « وأخذ أموالهم بالباطل على سبيل القهر عند طلب أحد إلى باب الحاجب ، ويضيفون إلى أكلهم أموال الناس بالباطل افتراءهم على الله تعالى بالكذب ، فيقولون على المال الذى يأخذونه باطلا : هذا حق الطريق ، والويل لمن نازعهم فى ذلك »(٦) .

ومن أبرز نقباء الجيوش من الأمراء : علاء الدين طَيْبَرْس الخزندارى وشهاب الدين احمد الهمندار وعزالدين أيدمر العلائى وشهاب الدين صاروجا وبكتوت الشيرازى وبدر الدين بكتاش الفاخرى(٧) . ويظهر أن وظيفة نقيب الجيش كانت تضم أحياناً إلى من يشغل وظيفة نقيب المماليك السلطانية ، بدليل أن كلا من أيدمر العلائى وبكتاش الفخرى قد شغل هاتين الوظيفتين فى وقت واحد (٨) .

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٣٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١ ؛ Demombynes : La Syrie, p. LXXII.

(٣) النقيب لغة هو الأمين أو العريف أو ضمين القوم . ويعبر عن نقيب الجيش باسم مقدم الجيوش أو أمير الجيوش أو نقيب نقباء الجيوش أو أتابك العساكر . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٦ ؛ Van Berchem : Corpus, I. p. 77,175.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢١ — ٢٢ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤ . Demombynes : Op. Cit. p. LIX.

(٦) المقريزى : الخطط : ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٧) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٩ — ١٥٠

(٨) عرف النقيب منذ عهد الرسول عليه السلام ، حين دعا أهل يثرب إلى الاسلام واختار منهم اثنى عشر نقيبا لنشر الاسلام فى هذه المدينة . وكذلك استعان العباسيون بالنقباء فى نشر الدعوة لهم =

فرق الجند :

أما الجيش الذى كان يقوم على شئون هذا الديوان ، فكان يتكون من ثلاث فرق نظامية كل أفرادها من الأرقاء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الأسود . وأول تلك الطوائف طائفة المماليك السلطانية : وقد سموا بذلك الاسم لأن السلطان القائم كان يجلبهم إلى مصر ، ولذا كانوا يعرفون باسم «الأجلاب» و باسم «الاحداث» . على أنه كان من بين المماليك السلطانية طائفة من المماليك القدماء ، أطلق عليهم اسم «القرانصة» أو «القرانيص» وهم مماليك السلاطين السابقين . وكانت تفرد لهم بديوان الجيش سجلات خاصة ، وتجرى عليهم الأرزاق ، ولم تبلغ منزلة هؤلاء منزلة المماليك السلطانية(١) .

ويلى القرانصة طائفة المماليك الخاصكية وهم مماليك السلطان القائم قبل اعتلائه العرش ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان يتولى أمر تربيتهم وعتقهم كما أنهم يلازمون السلطان فى خلواته و بذلك كانت لهم المنزلة الأولى حتى إنهم كانوا يرشحون قبل سواهم للامارة . ويظهر أنه كان هناك فرقا بين طوائف المماليك المختلفة . فقد كان بعضهم تصرف لهم مرتبات شهرية ، بينما كان البعض الآخر يعيش من دخل أرض اقطعت له مما يستلزم أن يكون حراً قادراً على التملك(٢) .

ويطلق على مماليك السلطان عامة اسم «مماليك الطباق» لأنهم كانوا يسكنون طباق القلعة وهناك تمييز بين المماليك الذين ينتسبون إلى السلطان الجالس على العرش أى الذين اشتراهم لنفسه ، وبين المماليك الذين ينتسبون إلى السلاطين السابقين ثم تركوهم . فقد كان يطلق على الطائفة الاولى اسم «المشتروات» وعلى الثانية اسم «السيفية»(٣) .

وكانت المماليك السلطانية عامة تعتبر طوال مدة التهذيب والتدريب مماليك مؤقتة يطلق عليها اسم «المماليك الكتابية» . وكان مركزهم الاجتماعى أرقى بكثير من مركز الأرقاء السود (العبيد والغلمان) ولو أنهم كانوا مساوين لهم من الناحية الشرعية(٤) . وهؤلاء المماليك الكتابية هم الذين كانوا يعرفون فى عهد الفاطميين باسم «صبيان الحجر» لأنهم كانوا يقيمون فى حجرات منفردة لكل حجرة منها اسم خاص وبلغ عددهم حينئذ خمسة آلاف (٥)

= وقد عرف النقيب فى الدولة الفاطمية . ولكن هؤلاء النقباء كانوا رؤساء وزعماء عامة ولم تكن لهم مسحة عسكرية . راجع « الفاطميون فى مصر » للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٤١ و ٤٢ و ١٤٢ .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ Demombynes : La Syrie, p. XXIII.

(٢) Wiet : Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II .p. 242.

(٣) Demombynes : La Syrie, p. XXX et seq.

(٤) Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٧ .

أما الطائفة الثانية من الجنود النظامية فهم أجناد الحلقة . وتتكون من محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم وهى أقرب الطوائف إلى نظام الجيش فى العصور الحديثة وهم على هذا الاعتبار جيش الدولة الذى لا يتغير بتغير السلطان ويشرف على كل ألف منهم أحد أمراء المئين ولكل مائة منهم «نقيب» و «باش» ولكل أربعين «مقدم» وكانت تصرف مرتباتهم من ديوان الجيش (١) .

والطائفة الثالثة هى مماليك الأمراء ، وتشبه طائفة المماليك السلطانية ، إلا أن أفرادها يتبعون أمراءهم مباشرة . فقد كان كل أمير يشترى عدداً من الاتباع بقدر ماتسمح به حالته المالية حتى أصبح لكل أمير جيش صغير . ومن هؤلاء تكونت الوحدات الحربية التى سار على رأسها الأمراء بصحبة السلطان فى حروبه (٢) . وليس أدل على أهمية هذه الطائفة من المماليك لأمرائهم من هذه العبارة التى رواها المقريزى وفيها يقول : «إن مقام الأمراء بمماليكهم» (٣) .

وفى عهد المماليك كانت جيوش المماليك فى مصر خليطاً من الأتراك والجركس والروم والأكراد والتركمان (٤) . ولم يكن فى هذه الجيوش من العناصر المصرية أو الشامية سوى ما الحق بالحملات الحربية عادة من الفقهاء والمقرئين والصناع والأتباع ، لأن همة هؤلاء ونشاطهم فى هذا العصر كان مقصوراً على الاشتغال بالزراعة والتجارة والصناعة وغيرها . وقد انصرفوا عن الأعمال الحربية إلى الاشتغال فى الوظائف الحكومية (٥) .

وكان هناك فرقة من فرق الجيش المملوكى تسمى فرقة «أولاد الناس» . وقد شملت هذه الفرقة أبناء أمراء المماليك فقط ، وهى نوع من الاحتياطى الحربى ، يدعى إلى السلاح فى حالة الحرب . وكان عليه أن يضع نفسه تحت تصرف السلطان فى حالة الحرب . وفى مقابل ذلك كان لكل منهم إقطاعات أو كان يعطى مبلغ الف دينار دفعة واحدة أو مرتباً سنوياً زادت قيمته تدريجياً حتى بلغ الف درهم فى عصر السلطان قايتباى ، وكانت أجورهم تدفع لهم فى أيام السلم . وكان والد ابن إياس من أولاد الناس فى القاهرة (٦) .

وقد ظلت فرق الأجناد من المماليك تقيم فى قلعة الروضة التى بناها السلطان الصالح نجم الدين

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار ج ٥ ص ١٦٦ . القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٦ .

(٢) Domombynes : La Syrie p. XXX.

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ٢ القسم الرابع (مخطوط) ص ٤٣٤ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٩ .

(٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ حاشية للدكتور زيادة . Enc. Isl. art. Ibn Iyas.

أيوب حتى أمر السلطان المعز أيبك بنقل جميع المماليك إلى قلعة الجبل . على أن السلطان الظاهر بيبرس لما اعتلى العرش اهتم بعمارة قلعة الروضة ثانية وأعادها إلى ما كانت عليه وأمر بتوزيع أبراجها على الأمراء الذين اتخذوا بيوتهم واصطبلاتهم فيها . ولما جلس السلطان المنصور قلاوون على العرش (٦٧٩ هـ) نقل المماليك إلى قلعة الجبل ثانية . وفى عهد السلطان الناصر محمد بنيت الطباق بساحة الإيوان بالقلعة واتخذها المماليك السلطانية مقراً لهم (١) . وكانت القلعة وقتئذ عبارة عن مدينة غاصة بطوائف الأجناد والأمراء من مختلف الأجناس التى ترد إلى البلاد المصرية رغبة فى الاندماج فى سلك الجندية (٢). ولم تكن الجيوش تقيم كلها فى القلعة ، بل كان منها ما يلحق بولاة الأقاليم ، إذ كان لكل وال أو كاشف نفر من المماليك يعاونونه فى عمله ، ويكونون على أهبة الاستعداد إذا دعاهم داعى القتال .

وكان مماليك الأمراء يقيمون مع أمرائهم فى مساكنهم فى المدينة أو فى الاقطاعات المقطعة لهم فى مصر وفى البلاد الشامية حيث كانوا يقيمون فى الحصون والقلاع ، فاذا لم يكن فيها قلاع اتخذوا لهم مكاناً بجوار مقر الوالى . وكانت القلاع التى يقيمون فيها ، على نسق قلعة الجبل ، تحوى كل ما يحتاج اليه الجندى من سلاح وعتاد وزاد استعداداً للطوارىء التى قد تهدد سلامة البلاد . أما فى زمن الحرب فقد كانوا يتخذون المعسكرات فينصبون الخيام بترتيب محكم : فى الوسط خيمة أمير الجيش وهو القائد للفرقة تحيط به خيام كبار رجال الأمراء ، ومن يليهم فى الرتبة وهكذا . وقد سمى المعسكر « الوطاق » ، واتخذ فى مكان بعيد عن ميدان القتال حتى يكون آخر ما يلحق به التخريب . وكان رجال الجند جميعاً من أدنى جندى إلى السلطان نفسه مماليك اشتروا بالمال ، اللهم إلا أولاد من حكم من السلاطين .

وقد أورد المقريزى عدد الجند على اختلاف طوائفهم ورتبهم فى مصر ، وهو إن لم يبين لنا اسم السلطان الذى وصل فى أيامه الجيش المملوكى إلى هذا العدد ، إلا أنه على العموم يعطينا فكرة عن عدد الجيش فى ذلك العصر بصفة عامة ، خصوصاً إذا علمنا أن عدد مماليك الأمراء لم يكن يتناوله التغيير عادة فى الزيادة أو النقصان . ونحن ننقل هذا البيان فيما يلى :

٢٤	أمير مائة مقدم ألف
٢٤٠٠	مماليكهم بمعدل ١٠٠ لكل أمير
٢٠٠	أمراء طبلخاناه

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٧ — ١٨٥

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

٨٠٠٠	مماليكهم بمعدل ٤٠ لكل أمير
١٤	كشاف وولاة بالأقاليم
٥٦٠	مماليكهم بمعدل ٤٠ لكل أمير
٢٠٠	أمراء عشرة
٢٠٠٠	مماليكهم بمعدل ١٠ لكل أمير
٧	ولاة عشرات الأقاليم
٧٠	مماليكهم بمعدل ١٠ لكل أمير
١٣٤٧٥	جنود أمراء
٣٠	مقدمو المماليك السلطانية
٢٠٠٠	المماليك السلطانية
١٨٠	مقدمو الحلقة
٨٩٣٢	أجناد الحلقة
٢٤	نقباء ألوف
١١١٥٦	المماليك السلطانية وأجناد الحلقة
١٣,٤٧٥	جنود أمراء
٢٤,٦٣١	مجموع الجند فى مصر (١)

أما نيابات الشام فلم يتعرض المقريزى لذكر عدد الجند فيها . ولكن خليل بن شاهين الظاهرى أوضح عدد الجند فى مصر والشام على النحو الآتى :

٤٢,٠٠٠	الجنود المصرية : مماليك سلطانية . أجناد حلقة . مماليك أمراء .
١٥,٠٠٠	أجناد الحلقة بدمشق ومماليك الكافل والأمراء .
٨,٠٠٠	حلقة حلب ومماليك الكافل والأمراء .
٥,٠٠٠	حلقة طرابلس ومماليك الكافل والأمراء .
٢,٠٠٠	حلقة صفد ومماليك الكافل والأمراء .
١,٠٠٠	حلقة غزة ومماليك .
٧٣,٠٠٠	حلقة ومماليك بمصر والشام .
٦٠,٠٠٠	أجناد النواب بمصر والشام .
١٣٣,٠٠٠	مجموع

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

obeikandl.com

أما العربان فى الأقاليم التابعة لمصر — عدا الشام — فقد ذكر خليل بن شاهين أن عددهم وصل إلى ٣١٤,٠٠٠ . وبذلك أحصى هذا المؤلف جند الجيش المملوكى فى مصر ونيابات الشام والأقاليم التابعة لمصر كما يلى :

٣١٤,٠٠٠ جنود العربان فى الأقاليم التابعة لمصر .

١٣٣,٠٠٠ حلقة ومماليك بمصر . أجناد النواب بمصر والشام

٤٤٧,٠٠٠ المجموع الكلى للجيش المملوكى(١) .

وكانت أرزاق الجند إذ ذاك تدفع من مستغلات الإقطاعات ، وفى شهر شعبان سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) عمل الناصر الروك الذى عرف فى التاريخ باسم « الروك الناصرى » نسبه اليه ، وبه زيدت أنصبة الأمراء والجند عما كانت عليه فى « الروك الحسامى » الذى عمله السلطان لاچين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . فأصبحت تلك الأنصبة أربعة عشر قيراطا ، بعد أن كانت أحد عشر قيرطاً . وبدأ الناصر فى توزيع أنصبة الأجناد فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٧١٥ هـ وتم ذلك فى قلعة الجبل (٢) .

أساليب الحرب :

هذا ما كان من أمر الجيش ، وديوانه ، وإقطاعات فرق الجيش فى عهد المماليك . أما أساليب المماليك فى الحرب فى ذلك العهد فقد كان المعتاد أن يعقد « مجلس الجيش » ، برياسة السلطان وعضوية أتابك العساكر والخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين الذين بلغ عددهم أربعة وعشرين أميراً . وكان الغرض من عقد هذه المجالس الاستنارة بآراء كبار الدولة قبل الاقدام على حرب من الحروب وجعل إعلان الحرب أمراً مشروعاً . وهنا يأمر السلطان باستدعاء الجنود من مختلف جهات مصر ، فيحلفون يمين الطاعة والولاء فى حضرته ، فيتسلمون مايلزمهم من عتاد الحرب من خزانة السلاح التى يطلق عليها إسم « السلاح خاناه » . ثم يعرضهم السلطان بنفسه وهو مرتد لباس الحرب . ويعرف ذلك فى مصطلح المماليك الحربى باسم « التفير » (٣) .

وإذا ماعرض السلطان الجند وتفقد أحوالهم وسلاحهم عين من كبار قواده قائدا يسير

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ — ١٠٦ . ويظهر أن فى مجموع الجند فى الجيش المملوكى حسب رواية هذا المؤرخ شيئا من المبالغة . على أنه لا يستبعد أن يصل عدد الجيش الى هذا الرقم فى عهد السلطان الناصر محمد ، إذ فى عهده تمت هزيمة التتار وقضى على البقية الباقية من الصليبيين .

(٢) اقرأ ماسيأتى ذكره عن الاقطاعات والروك الحسامى والروك الناصرى فى باب « الحالة المالية والاقتصادية » .

(٣) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢١٠ Demombynes : La Syrie,p. CIII.

على رأس الحملة الحربية . ويشترط فى هذا القائد أن يكون جنديا خبر الحروب وخاض غمارها غير مرة وظهرت كفايته الحربية فيها . وقد جرت العادة أن يتخذ القائد مركزه فى القلب حتى يراه جميع الجند وينفذون جميع أوامره . وقد يتخذ مركزه فى المقدمة ليثير الحماسة فى نفوس جنده ويلقى الرعب والفزع فى قلوب أعدائه .

وكان المماليك يتبعون فى حروبهم طريقة قتال الصفوف ، فيسير الجندى بجانب صاحبه حتى يكاد يلتصق به ، ثم تنظم الصفوف كما تنظم صفوف الصلاة ، ويسيرون على هذا النحو حتى يصلوا إلى حيث استقر العدو ، وهذه الطريقة التى كانوا يتبعونها فى حروبهم أصدق فى القتال وأرهب للعدو . ويصف ابن خلدون طريقة القتال عند المماليك بقوله : « وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد وقتالهم مناضلة بالسهام ، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف ، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف ، يضربون صفاً وراء صف ، ويترجلون عن خيولهم ، ويفرغون سهامهم بين أيديهم ، ثم يتناضلون جلوساً ، وكل رد للذى أمامه أن يكسبهم العدو إلى أن يتهيأ النصر لاحدى الطائفتين على الأخرى وهى تعبئة محكمة غريبة »(١) .

ومما يدلنا على أن المماليك قد عملوا فى كل الحروب التى خاضوا غمارها على أن يقاتلوا عدوهم وهم صفوف متراصة وتوعدوا كل من يخرج عن الصف بأقسى أنواع العقاب ، تلك العبارة التى ننقلها عن المقريزى عند كلامه على خروج السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٢ هـ فى عهد سلطنته الثانية لقتال التتار ، إذ نودى فى العسكر : «من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه »(٢) . ويقول نفس المؤلف فى موضع آخر بصدد الحرب نفسها إن الأمراء الأكابر ظلوا « طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يرصونهم ويرتبونهم ، ويكثرون من التأكيد عليهم فى التيقظ وأخذ الأهبة . فما طلع فجر يوم الأحد إلا وقد اجتمع شمل عساكر السلطان ووقف كل أحد مع مصافه مع أصحابه »(٣) .

وكان الخليفة يصحب الحملات الحربية أحياناً لحث الجند على الجهاد وبث الروح الدينى فى نفوسهم . يقول المقريزى عند كلامه على خروج السلطان الناصر محمد لقتال التتار : « مشى السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القواد يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة . وصار السلطان يقف ويقول الخليفة : « يامجاهدون ! لاتنظروا إلا لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم »(٤) .

وقد اعتمد المماليك على الخيل فى حروبهم . لذلك عنوا بأمرها كل العناية ، واتخذوا لها

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٦ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٣٣ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٥ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٣ .

الأدوات الفاخرة من اللجم والسروج والكنابيش ، التى صنعت من القماش الفاخر الموشّى بالذهب والمطرز والمزركش بالحرير . (١) وقد أوضح النويرى ، أهمية الخيل عند المماليك فى أثناء القتال ، فيما أورده بصدد واقعة مرج الصفر (سنة ٧٠٢ هـ) التى اشترك فيها والتى دارت بين السلطان الناصر وبين غازان زعيم المغول فى هذه العبارة « وأقمنا بالمرج يوم الخميس والجمعة ، فلما كان فى ليلة السبت المسفرة عن ثانى شهر رمضان دارت النقباء على العساكر ، وأخبروهم أن العدو قد قرب منهم ، وأن يكونوا على أهبة واستعداد فى تلك الليلة وأنه متى دهمهم العدو يركبوا خيولهم ... فبتنا فى تلك الليلة وليس منا الا من لبس لامة الحرب وأمسك عنان فرسه فى يده ، وتساوى فى ذلك الأمير والمأمور ، وكنت قد رافقت الأمير علاء الدين مغلطاى البيسرى أحد أمراء الطبلخانات بدمشق لصحبة كانت بينى وبينه فلم نزل على ذلك وأعنة خيلنا بأيدينا حتى طلع الفجر فصلينا وركبنا . واصطفت العساكر إلى أن طلعت الشمس وارتفع النهـــار فى يوم السبت المذكور . ثم أرسل الله مطراً شديداً نحو ساعتين ، ثم ظهرت الشمس ولم نزل على خيولنا إلى وقت الزوال ، وأقبل التتار كقطع الليل المظلم . وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية فى ساعة واحدة »(٢) .

وقد صارت الفروسية فى عهد المماليك فناً عظيم الشأن فى حروبهم أفردوا لدراسته الكتب والرسائل الكثيرة الموزعة بين خزائن المخطوطات الأوربية والتى لم يسترع أمر نشرها حتى الآن نظر المؤرخين والمستشرقين . ونورد من بينها على سبيل المثال كتاب « نهاية السؤل والأمنية فى تعليم الفروسية » تصنيف بكتوت الرماح خازندار الملك الظاهر (٣) الذى توفى عام ٧١١ هـ (١٣١٢ م) . وهنالك مخطوط آخر اسمه « كتاب الفروسية برسم الجهاد » تأليف محمد بن احمد بن لاچين الحسامى الطرابلسى (٤) المتوفى عام ٧٨٠ هـ (١٣٧٩ م) والباب الأول منه « فى ركوب الخيل والنزول بالرمح » والباب الثانى « فى المناصب الحربية » وتشمل « الطعن الحجازى والطعن الرومانى والكهرد الصغير والكبير والنارود الصغير والكبير والمقابلة والمقلوبة والمجادلة والمنصوبة والمفارقة والملازقة والمخارجة والمضايقة والكر والفر ، والهزل والجد والأخذ والرد والطلوع والنزول »(٥) ، وهى من صنوف الأوضـــاع والحركات المختلفة فى حومة القتال . والباب الثالث « فى الحروب وعلم الفروسية » إلى آخر

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٢٤ .

راجع البيانات عن كتاب البيطرة المعروف باسم « كامل الصناعتين » لأبى بكر بن بدر البيطار فى اصطبل الناصر فى كتاب « التصوير عند العرب » لأحمد تيمور باشا (نشره الدكتور زكى حسن) ص ٣٦

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٣٣٦ ب .

(٣) مخطوط بالمتحف البريطانى رقم Orient ٣٦٣١

(٤) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٥٨٨ .

(٥) مخطوط برلين السابق ذكره ورقة ١٤ .

ماجاء بالكتاب ، ومادته فى مجملها تشبه ماورد فى « كتاب الفروسية » الذى نجهل اسم مؤلفه والمحفوظ بالمكتبة الأهلية فى باريس(١) . ويضيق المقام عن الالمام بكل ما كتب فى هذا الباب من تلك الرسائل(٢) .

وكانت الموسيقى تصحب جيوش المماليك وقت القتال ، وتوزع الفرق الموسيقية فى أنحاء المعسكرات ، بحيث يكون كل أمير بطبله الخاص ، وكان لها أنغام متعددة ودقات اصطلاحية . وتحفظ الطبول فى أيام السلم فى الطبلخاناه التى تكلمنا عليها . ويشرف أمير علم على شئون الموسيقى فى السفر ، ولها مهتار يعرف باسم مهتار الطبلخاناه تحفظ فى عهدته جميع الآلات الموسيقية(٣). ويظهر أن الطبول كانت جزءاً أساسياً من معدات الجيش فى عهد المماليك ، بدليل هذه العبارة التى ننقلها عن المقريزى فى وصف جيش المماليك قبل التحامه بالتتار فى موقعة مرج الصفر : « بات السلطان وسائر العساكر على ظهور خيولها ، والطبول تضرب وتلاحق به من انهزم شيئاً بعد شىء ، وهم يقصدون ضرب الطبول السلطانية والكوسات (الصنوج) الحربية »(٤) . وكانت النقارات ، وهى من الآلات الخاصة بمواكب السلطنة منـــذ عهد الفاطميين ، تحمل فى ركاب السلاطين إلى ساحة الحرب ، فتستخدم فى إصدار الأوامر وفى الايذان ببدء القتال . وكانت تحمل على عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث منها مثنى مثنى(٥) .

واتخذت الجيوش المماوكية الأعلام فى الحروب شعاراً يلتف حولها الجند ويدافعون عنها . وكان للسلطان من الأعلام ثلاثة : أحدها من الحرير الأصفر المطرز بالذهب ، ينقش عليه ألقاب السلطان واسمه ويسمى « العصابة » . والثانى كبير أبيض ، تعلق فى أعلاه خصلة من الشعر ويسمى « الجاليش »(٦) ، وهو مقدمة القلب ، وسمى بذلك لأن ترتيب جاليش السلطان فى المواقع التى يحضرها يكون عادة فى ذلك الوضع من جميع الصفوف . والثالث راية صفراء صغيرة تسمى السنجق . ويظهر أن السلطان كان يركب فى المواكب فى زمن السلم

---

(١) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس عربى رقم ٢٨٢٩ ، راجع دى سلين ص ٥٠٩ .

(٢) A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 545—544 حيث يستعرض المؤلف عدداً من تلك الرسائل الموجودة بالمكتبات الأوربية والتى ذكر لنا من بينها ما سردناه فى هذا البند . راجع أيضا عن الفروسية وفن الحرب كتاب « التصوير عند العرب » لأحمد تيمور باشا (أخرجه الدكتور زكى حسن) ص ٤٣ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ — ١٣ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص٦٣ .
Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 25.

(٤) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٣٥ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٥ Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٧ ، ج ٥ ص ٤٥٨ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٢٣

بالسناجق فقط . أما فى زمن الحرب فكان يخرج بالأعلام الثلاثة معاً(١) .

وكان جنود المماليك يتدربون على إسعاف المرضى وتضميد الجراح . ومع ذلك فقد كان الأطباء يصطحبون الجيوش لمداواة الجند مما قد يحل بهم من أمراض أو يلحقهم من جراح فى أثناء القتال . وقد اقتبس المماليك ذلك عن الأيوبيين ، فقد أثر عن السلطان صلاح الدين الأيوبى أنه كان ملماً بمبادىء الاسعاف والتمريض ، حتى إنه سارع إلى مداواة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، الذى كان ينازل صلاح الدين فى الحروب الصليبية ، ولم يزل يعنى بأمره حتى شفى من مرضه(٢) .

ولم يكن القتال يدور بواسطة أجناد الحلقة أو مماليك الأمراء فقط ، بل إن المماليك السلطانية كانت تقوم بدور هام فى حروب المماليك . فقد ذكر المقريزى عند كلامه على قتال السلطان الناصر محمد للتتر أن قطاوشاه التترى « شرع فى ترتيب من معه ونزلوا مشاة وفرسانا وقاتلوا العساكر ، فبرزت المماليك السلطانية بمقدمها وعملوا فيهم عملا عظيما : تارة يرمونهم بالسهام وأخرى يهاجمونهم . واشتغل الأمراء أيضاً بقتال من فى جهتهم ، وصاروا يتناوبون القتال أميراً بعد أمير ، وألحت المماليك السلطانية فى القتال واستقتلوا »(٣) .

أسلحة الجيوش :

أما الأسلحة(٤) التى كان يستعملها المماليك فى حروبهم فى ذلك العهد . فمنها السيف ، ولقد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨ ، جـ ٥ ص ٤٥٦ — ٤٥٨ . عن الاعلام فى العصر الفاطمى ، راجع « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ٦٥ — ٦٦ وما جاء فيها من مراجع .

(٢) محمد بن منكلى : الأحكام المملوكية (مخطوط) ص ٨٧ر٩٥ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٣٥ .

(٤) لايفوتنا هنا أن نشيد بذكر المجموعة الكبيرة المسماة Description d'Egypte التى كتبها علماء الحملة الفرنسية على مصر وأحوالها سنة ١٧٩٨ م فى وقت كانت فلول المماليك لاتزال متحكمة بالبلاد محتفظة بتقاليدها وكثير من عاداتها القديمة والصور التى فيه تمثل إلى حد كثير الملابس والأسلحة التى كانت مستعملة فى أيام المماليك . وليس بدار الآثار العربية أية ملابس أو أسلحة مما ينسب إلى هذا العصر وكل ماهنالك سيفان أحدهما باسم السلطان طومان باى والآخر باسم السلطان الغورى وهما معاصران لأواخر دولة المماليك البرجية ، وقد عاشا قبيل الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ م . ونجد كذلك بدار الآثار العربية تحفاً مختلفة عليها رنوك تنسب إلى العصرين المملوكيين الأول والثانى وتمت إلى الناحية الحربية بصلة .

وفى كتابى « التاريخ الحربى لمحمد على وأبنائه للجنرال فيجان Weygand (جزءان) ، والمعارك البحرية لمحمد على وابراهيم للاميرال دوران فيل Durand Viel (جزءان) صور تمثل حالة المماليك الحربية فى مصر فى عصر محمد على وتوضح العدد الحربية من أسلحة وخيل وغيرها مما كان مستعملا =

استعمله المماليك كما استعملته الأمم الأخرى واتخذوا منه الطويل والقصير والعريض والدقيق وكانوا يعلقونه فى الجنب كما كان متبعاً فى عهد الدولة الأيوبية(١) . واستعمل المماليك الخنجر والطبر والبلطة والفأس فى حروبهم . فالخنجر آلة تشبه السكين الكبيرة المنحنية النصل أو المستقيمة ، ويوضع فى جانب والسيف فى الجانب الآخر . والطبر وهو لفظ فارسى معناه الفأس . وحملة الأطبار بمثابة الحرس الخاص للسلطان يلازمونه فى الاحتفالات والمواكب ويسمون الطبردارية ويرأسهم أحد أمراء العشرات ويسمى « أمير طبر »(٢). والبلطة وتختلف عن الفأس فى أن امتداد سلاح البلطة يستقيم مع يدها ، أما الفأس فامتداد سلاحها يتعارض مع يدها ، وكانت تستعمل فى قطع الأخشاب وتمهيد الطرق أمام الجيوش فى الغابات والحراج . والرُّمح وكانت تعقد على الرماح الألوية التى يقال لها السناجق . والدبوس وهو آلة من حديد ذات أضلاع(٣) .

وكان المماليك يستعملون فى حروبهم القوس والسهم والمقلاع أيضا . فالقوس(٤) عبارة عن قضيب من الخشب شد طرفاه بخيط أقصر من القضيب فيتقوس ، والسهم قطعة من الخشب تركب فيها من الأمام قطعة مدببة من الحديد . والمقلاع عبارة عن كفة من الجلد أو القماش إما بيضاوية أو مستديرة ، لها حبلان فى الأولى أو ثلاثة فى الثانية ، وطول هذه الحبال يتراوح بين خمسين وستين سنتيمترا ، وتربط من طرف فى الكفة ويترك الثانى مرسلا . وطريقة استعماله هى أن يجعل لكل حبل عروة عدا حبلا واحد يظل متروكا ويمسك بالأصابع ، فتصير الكفة معلقة ، ثم يوضع الحجر فى هذه الكفة وتلف فى الهواء بحركة روحية ، ثم يفلت طرف الحبل من الأصبع فينطلق الحجر (٥) . ولم يفت المماليك استعمال النبال والنشاب فى حروبهم .

= فى عصرهم . وهى على كل حال تعطينا فكرة لما كان عليه الجند فى العصر المملوكى عامة وعصر الناصر خاصة . راجع عن السلاح عند الفاطميين كتاب « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ٥٤ — ٥٨ وما جاء فيها من مراجع .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٢ . لاچين : كتاب الفروسية (مخطوط برلين رقم ٥٨٨) ورقة ١٣٦ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٨ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ٢ ص ١٢٨ . لاچين : نفس المصدر ورقة ٣٦ ب

(٤) من أمثلة الرسائل التى اختص فيها بعض مؤلفى المماليك الحربيين فى القوس والسهم واستعمالهما « كتاب غنية الطلاب فى معرفة الرمى والنشاب » تأليف طيبغا الأشرفى البلقميشى اليونانى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) (مخطوط بكمبردج رقم الصورة ١٧٨ ، ٢٤٠) . ومن هذه الرسائل أيضا « شرح ديوان النونية فى صناعة الرمى والقوسية » (مخطوط ليدن) . راجع دى يونج ودى جوية جزء ٣ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ . انظر أيضا ابن منكلى : الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية (مخطوط) ص ٢٥

(٥) عبد الرازق بركات : الرسالة الفنية ص ١٦٧ .

وهناك أدوات حربية استعان بها المماليك فى حروبهم ضد الصليبيين والتتر . ومنها المنجنيق وهو أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء ، ويتركب من ثمان وعشرين قطعة من الخشب يعمل منها القاعدة وفوقها القائمتان على الجانبين ، وتتصل هاتان القائمتان بعرضة ، ثم يركب على هذه العرضة سهم يراعى فى وضعه عليها أن يكون أحد طرفيه قصيرا والآخر طويلا ، وتثقل الجهة القصيرة حتى يصير وضع السهم رأسيا ، وفى الجهة الطويلة تركب الكفة التى يوضع فيها الحجر المعد للقذف بعد أن يجذب حتى يجعل عاليه أسفله ، وعندئذ يخلى السهم فينطلق الحجر نحو الهدف (١) ولم يكن يرمى من المنجنيق الأحجار فقط ، بل كان يقذف منه الحديد وقدور فخارية أو زجاجية تملأ بالنفط والزرنيخ والأفيون ، وترسل على الأعداء فتقوم مقام الغازات الخانقة فى يومنا هذا (٢) . ومن هذه القذائف مايرمى باليد كالقوارير المصنوعة من الزجاج التى تملأ بالنفط والصبر وبذر القرطم المقشور . فاذا أريد القاؤها أشعلت ثم رمى بها بواسطة سلسلة ، فاذا انكسرت على شىء أشعلت النار فيه (٣) . وكانت المجانيق تحمل على الابل بعد فصل أجزائها بعضها عن بعض ، ثم تركب عند الحصار (٤) .

وقد استعان المماليك فى هدم أسوار الحصون التى تعترضهم فى القتال بعدة الآت مثل الدبابات ذوات العجل والضبور والكبش . أما الدبابات فيدخل المحاربون فى جوفها ، ويدفعونها إلى جدار الحصن فينقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من مطاردة العدو . وقد عرف الضبور فى عهد المماليك وهى كالدبابة تقريبا تصنع من الخشب المغطى بالجلد ويكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن ، فيقاتلون أهله وهم فيها ، وتعرف بالسيارات المصفحة اليوم . أما الكبش فهو عبارة عن حجرة صغيرة مركبة على عجل مصنوعة من الخشب المحكم مغلفة بلبود أو جلود منقوعة فى الخل ، وبداخلها الجند الذين يحركونها بدفعها حيث لا أرض لها ، وقد يعلق فى سقفها سلاسل يربط فيها عمود أفقى له رأس كرأس الكبش وتقرب هذه الآلة إلى أسوار الحصن أو القلعة ، وتعمل الرجال فى الأسوار لنقبها إما بالآت عندهم أو بواسطة رأس الكبش بتحريكها حتى تصطدم بحائط السور (٥) .

---

(١) ابن ارنبغا الزردكاش : الأنيق فى المجانيق (مخطوط) ص ٣٧ و ٣٨ . عبد الفتاح عبادة : كتاب سفن الأسطول الاسلامى ص ٥ حاشية ٢ .

(٢) ابن ارنبغا : نفس المصدر ص ٩٠ و ٩١

(٣) ابن أرنبغا : نفس المصدر ص ١٠٣ . جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٦ ص ٢٥٦ . انظر رسالة « الجندية فى الاسلام » للاستاذ أمين الخولى (رسالة لم تطبع) ص ١٦ — ٣٩ .

(٥) جورجى زيدان : نفس المصدر ج ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، أمين خولى : الجندية فى الاسلام ص ٣٩ — ٤٠ .

ومن الأدوات الحربية التى استعان بها المماليك فى حروبهم «القلاع المتحركة» وهى أبراج من الخشب مرتفعة مغلقة باللبود والجلود مثل الكبش . وتدار حركتها بواسطة لوالب أو مشاقص[١] تدفع بها لتساعدها من أسفل ، وهى ضيقة فى أعلاها وفى أسفلها بكر مركب عليه يتصل بعضه ببعض بأضلاع من الخشب ، فيأتى الرجل بالمشاقص فيدخلها بين تلك الخشب ثم يقيمها بدفعة قوية فتندفع وتجرى بسهولة ، ويصعد الرجال إلى أعلاها وقد أديرت حولهم الستائر . ويحمل على هذه القلاع المجانيق الصغيرة حتى يشرف الرماة على أماكن المحصورين . وتستعمل هذه القلاع إذا لم يكن هناك أكمة أو مرتفع يمكن اعتلاؤه بالمجانيق فاذا وجد استغنى به عن هذه الآلة . ويساعد القلاع مجموعة من السلالم الخشبية ترمى على الأسوار عند الهجوم على أسوار الحصن من أعلاه[٢] . واستعمل المماليك النار اليونانية فى كثير من المواقع الحربية التى خاضوها . وكان يسمى القائمون على استعمالها النفطية كما عنوا بأمر المدافع واستكثروا من عددها .

وكانت هذه الأسلحة على اختلافها تحفظ فى دار أطلق عليها اسم « الزردخاناه » أو « السلاح خاناه » ومعناها بيت السلاح[٣]. وتحتوى هذه الدار على مختلف أنواع الأسلحة كالسيوف والقسى العربية والنشاب والدروع المتخذه من الزرد ، ويحمل إليها كل عام ما يصنع من الأسلحة فى مختلف الجهات . وقد أفرد لهذه الدار فى قلعة الجبل عدة قاعات ، خصص كل منها لنوع معين من هذه الأسلحة ويرأسها أمير من أمراء المئين يطلق عليه اسم « أمير سلاح » ، يعاونه جماعة من الموظفين عرفوا باسم « السلاح دارية » . ويشتغل فيها جماعة من الصناع يختص كل منهم بنوع من أنواع السلاح فيعهد إليه بأمر صنعه ومهمة إصلاحه إذا أصابه تلف ، ويطلق على كل منهم اسم الزردكاش وهو لفظ أعجمى معناه صانع الزرد ، وكانوا يعملون فى الزردخاناه باستمرار سواء أكانت البلاد فى حالة حرب أو فى حالة سلم[٤]. وكان لكل أمير من الأمراء زرد خاناه خاصة به وبجنوده ، ولكنها لم تكن مثل زرد خاناه القلعة ، بل كانت صورة مصغرة منها[٥] ولهذه الدار شادّ يعرف باسم « شاد الزردخاناه » وقد أوضح الخالدى اختصاصات هذا الموظف فقال إنه هو « المتحدث على استعمال الآت

---

(١) شقص الذبيحة فصل أعضاءها سهاما معتدلة بين الشركاء . والمشاقص سهام ترمى بها الوحوش فى الصيد .

(٢) ابن ارنبغا الزردكاش : الأنيق فى المجانيق (مخطوط) ص ٧٢ — ٨٨ .

(٣) عرفت تلك الدار فى عهد الفاطميين باسم « خزانة السلاح » . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٣ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١١ — ١٢ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦٢ .

Wiet ; Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV (L'Egypte Arabe), p. 396.

الحرب والمخاطب للملك عن المقصود ، ويستدعى الأصناف من جهاتها مصراً وشاماً ، وله الأمر على النفطية والباروديه وصناع الزردخاناه والفولاذية ونحوهم »(١).

وقد زاد نفوذ أمير سلاح فى عهد السلطان الناصر حتى أصبح يعين من أمراء المئين كما كان يقوم مقام رأس نوبة فى غيابه ويجلس على رأس الميسرة السلطانية(٢) . وغدت وظيفته من الوظائف الكبرى فى الدولة حتى أصبح يلى الأتابك فى المرتبة أحياناً . وكان السلطان يلقبه « الأخ » وهو نفس اللقب الذى كان يمنحه رأس نوبة الأمراء(٣) . ولفظ « أخ » — كما يظهر — يدل على التكريم والتعظيم فقد أثر عن السلطان الناصر أنه كان يخاطب المؤرخ المشهور أبا الفداء صاحب حماه بلقب « أخ » فى مكاتباته له . ومن هنا نتبين مبلغ تكريم سلاطين المماليك للأشخاص الذين شغلوا منصب أمير سلاح . وكانت تلك الوظيفة من الوظائف الكبرى فى عهد الخلفاء العباسيين الذين أخذوها عن الدولة الساسانية(٤).

ونتبين وصف الآلات الحربية التى كان يستعملها المماليك وأساليب الحروب فى ذلك العصر مما ذكره المؤرخ أبو الفداء عن فتح السلطان الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ لمدينة عكاء وقد رافق هذا المؤرخ قريبه المظفر صاحب حماه فى هذه الحملة . وإليك هذا الوصف بنصه : « فى هذه السنة فى جمادى الآخرة فتحت عكا وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا صحبتهم المجانيق فتوجه الملك المظفر صاحب حماه وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماه صحبته إلى حصن الأكراد وتسلمنا منه منجنيقاً عظيما يسمى المنصورى حمل مائة عجلة ففرقت فى العسكر الحموى وكان المسلم إلى منه عجلة واحدة لأنى كنت إذ ذاك أمير عشرة وكان سيرنا بالعجل فى أواخر الشتاء واتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة . وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة . وكذلك أمر السلطان بجر المجانيق وآلات الحصار من جميع الحصون إليها فاجتمع على عكا من المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها . وكان نزول العساكر الاسلامية عليها فى أوائل جمادى الأولى من هذه السنة واشتد عليها القتال . ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها . وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا . وكان يحضر إلينا مراكب مقببة بالخشب الملبسين

---

(١) المقصد ص ١٢٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 30.

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

جلود الجواميس وكانوا يرمونا منها بالنشاب . وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا على البحر وأحضروا بطسة[١] وفيها منجنيق يرمى علينا وعلى خيمتنا من جهة البحر فكنا منه فى شدة عظيمة حتى اتفق فى بعض الليالى هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذى فيه بحيث أنه انحطم ولم ينصب بعد ذلك . وخرج الفرنج فى أثناء هذا الحصار بالليل وكبسوا العساكر وهزموا التركية واتصلوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب وتكاثرت عليهم العسكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد وقتل عسكر حماه عدة من رؤوس الفرنج فى رقاب خيلهم التى كسبها العسكر منهم وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة بالسيف »[٢]. وهكذا ضاع حصن عكا آخر معقل للصليبيين فى الشام.

وفى سنة ٦٩١ هـ فتح السلطان الأشرف خليل قلعة الروم الواقعة غربى نهر الفرات وأرسل عقب فتحه لها كتاباً إلى شهاب الدين بن النحوى قاضى قضاة مصر إذ ذاك يقول فيه : « أنا ركبنا لغزوها من مصر وما زلنا نصل السرى بالسير ونرسل الأعنة إلى نحوها فتمد الجياد أعناقها إليها مداً ينقطع بين قوتها وقوته السير واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى وهو المنتقى شاهق لا يلقى به مسلك ولا يلتقى فما زالت العزائم الشريفة تسهل حزونه والشكائم تفجر بوقع السنابك على حجارته عيونه والجياد المطهمة ترتقى مع امتطاء متونها بدروع الحديد متونه فلما أشرف عليها منا أشرف سلطان جعل جبلها دكا . . . ونصب عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور وتفترس أبراجها بصقور صخور افتراس الأسد الهصور »[٣] .

ومن ذلك الكتاب نستدل على مبلغ قوة سلاطين مصر ورغبتهم فى مد نفوذها إلى ما حولها من البلاد ونتبين منه ما وصل إليه جيش مصر فى عهد المماليك من قوة عدته ومهارة جنده واستبسالهم فى الحروب . ولقد كانت هذه الروح الحربية العامل الأكبر فى دفع غارات التتار عن مصر ونجاة البلاد مما اعتادوا أن يحدثوه من أعمال التخريب والتدمير فى الأقاليم التى فتحوها .

* * *

وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها أحصيت الغنائم والأسرى ، فكان كل أمير يستولى على غنيمته . عدا الأسلحة فانها كانت كلها تؤول إلى السلطان ، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئاً منها إلا باذنه . أما الأسرى فكانوا من نصيب السلطان

---

(١) البطسه جمعها بطس وهى سفن حربية بحرية عظيمة الحجم كثيرة القلاع . عبد الفتاح عباده : سفن الاسطول المصرى ص ٦ .

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٣) اقرأ نص هذا الخطاب فى Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١١ — ١٢

الذى كان يأخذ منهم ما شاء لنفسه ويأمر بتوزيع ما بقى من النساء والغلمان على الأمراء[١]. أما الرجال فقد كان السلطان لا يتصرف فى أمرهم بشىء إلا بعد معرفة مراتبهم ومكانتهم بين أهلهم ، فمن كان منهم ذا مقام خاص طلبت منه الفدية ، وأخلى سبيله بعد أدائه المبلغ المقرر . أما من كان منهم من العامة ولا ينتظر منه فدية ، فكان يرسل إلى معتقلات خاصة بالأسرى أو يوزع على الأمراء .

ولسنا نعرف شيئاً عن نظم هذه المعتقلات . ولكن يظهر أن سلاطين المماليك قد أساءوا معاملة الأسرى ، حتى إن المقريزى عدّ معاملة السلطان الناصر محمد للأسرى بالحسنى أمراً شاذاً ، فقد قال إن السلطان الناصر لما عاد إلى السلطنة الثالثة : « صار يتحدث بنفسه فى الجليل من الأمور والحقير ، ويستجلب خاطر كل أحد صغير أو كبير ، ولا سيما حواشيه . فلذلك عظمت حاشية المملكة وأتباع السلطنة وتخولوا فى النعم الجزيلة حتى الخولة والكلابزة والأسرى من الأرمن والفرنج[٢] » .

وكانت تلك المعاملة الحسنة من جانب الناصر للأسرى غير مألوفة فى ذلك العصر ، إذ أن سلاطين مصر الذين اعتلوا العرش قبل الناصر قد درجوا على معاملتهم معاملة تشبه على وجه الاجمال معاملة المسجونين اليوم . فقد كان الأسرى يستخدمون أحياناً فى بناء العمائر والمساجد والمارستانات وغيرها . ويستدل على صحة هذا القول مما ذكره المقريزى فى مواضع متفرقة من كتابه « الخطط » فقد قال عند وصف بناء المارستان الذى شيده السلطان قلاوون : « وأخذ ثلثمائة أسير وجمع صناع القاهرة ومصر وتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم »[٣] . وقال عند كلامه على بناء فناء القلعة : « فحضر من عند كل أمير من الأمراء استاداره ، ومعه جنده ودوابه للعمل وأحضر الأسرى »[٤].

ومن الغريب أن السلطان الناصر الذى اعتزم عند عودته إلى ملكه سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) أن يحسن معاملة جميع سكان مصر ، ومن بينهم الأسرى على ما بيناه ، قد سار فى سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ م) على خطة من سلفه من سلاطين المماليك فى معاملة الأسرى وتكليفهم الاشتراك فى أعمال البناء . فقد ذكر المقريزى عند كلامه على بناء مسجد قوصون فى عهد السلطان الناصر

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٠٥ .
(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٠٦ .
(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ .

سنة ٧٣٠ هـ « وتولى بناءه شاد العمائر واستعمل فيه الأسرى »(١).

وقد أصبحت خزانة البنود(٢) منازل للأسرى من الفرنج الذين كانوا يؤسرون من بلاد الشام ، وذلك سنة ٧٠٩ هـ فى عهد السلطان الناصر محمد بعد عودته إلى ملكه فى سلطنته الثالثة ، وأبطل السجن بها ، فأقام فيها الأسرى هم وأسراتهم . ويظهر أن هؤلاء الأسرى لم يحسنوا السيرة فى أثناء إقامتهم فى خزانة البنود ، وأن الشكوى قد علت من سوء خلقهم حتى وصلت إلى مسامع السلطان ، ولكنه كان يخشى أن يشتد فى معاملتهم وقت الهدنة التى كانت قائمة بينه وبين ملوك الفرنج إذ ذاك . وفى ذلك يقول المقريزى « فصار لهم فيها أفعال قبيحة وأمور منكرة شنيعة من التجاهر ببيع الخمر . . . وحماية من يدخل إليها من أرباب الديون وأصحاب الجرائم وغيرهم ، فلا يقدر أحد ولو جلّ على أخذ من صار إليهم واحتمى بهم والسلطان يغضى عنهم لما يرى فى ذلك من مراعاة المصلحة والسياسة التى اقتضاها الحال من مهادنة ملوك الفرنج »(٣) . فكأن هؤلاء الأسرى كان لهم — بفضل الهدنة بين دولهم وبين المسلمين — نوع من الامتيازات أساءوا استعماله وكان السلطان فى بعض الأحيان لا حيلة له فى دفع ضررهم .

ملابس الجند :

نهض المماليك فى صناعة المنسوجات التى كانوا يصنعون منها ملابسهم ، حتى كان للمصريين شهرة عالمية فى ذلك المضمار . وكان المماليك يستعملون الفراء ولهم سوق عرفت بسوق الفرائين ، يسكن فيها صناع الفراء وتجاره ، فعرف بهم . وكان يوجد فى سوق الجمالون الصغير بالقاهرة كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان ، وأصناف ثياب القطن . وبه عدد من الخياطين والغزالين . وكانت سويقة أمير الجيوش فى عصر المماليك أكبر أسواق القاهرة ، بها عدة حوانيت فيها الرفاءون والحياكون والرسامون (أى حوانيت التطريز) والفراءون والخياطون ومعظمها لسكنى البزازين والخلعيين (الذين يصنعون الخلع) . ويباع فى هذا السوق سائر الثياب المخيطة (وهى أشبه بشركات الملابس)(٤) .

من ذلك نرى مبلغ اهتمام المماليك بالملابس الثمينة ، وكان الجند فى ذلك العصر يلبسون على

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٢) وصف المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٤٢٣) خزانة البنود بقوله : « كانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير . بناها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله . وقد اتخذت فى عهد الفاطميين مكانا تحفظ فيه البنود أى الأعلام » . عن خزانة البنود فى العصر الفاطمى راجع « كنوز الفاطميين » ص ٦٥ — ٦٦ وما جاء فيها من مراجع .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٢٥ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر جـ ٢ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

رءوسهم الكلّوتات[١] التى استحدثت فى مصر فى عهد الأيوبيين الذين اتخذوها من الجوخ الأصفر بغير عمائم ، وذوائب شعورهم مرخاة من تحتها . ولما انتقل الحكم إلى المماليك لبس جندهم الكلوتات الصفر بغير عمامة ، وظل ذلك متبعاً فى عهد السلطان الناصر[٢].

وفى عهد السلطان الناصر محمد استحدثت العمائم الناصرية ، وكانت عمائم صغيرة حتى لا تعوق الجندى فى أثناء القتال ، وأصبح لبس العمامة أمراً قومياً حتى صار نزعها أو تغييرها من العار ، ولكن بطل إرخاء ذوائب الشعر حين حلق السلطان الناصر رأسه بمناسبة رحيله إلى الحج فبادر الأمراء والجند إلى تقليده وحلقوا رءوسهم[٣] .

وكان الجند يلبسون أقبية[٤] بيضاء ضيقة الأكمام مصنوعة من القطن البعلبكى ، وهى زرق أو حمر . ومن فوق هذا القباء كمران[٥] بحلق وأبزيم[٦] كما كانوا يشدون على أوساطهم بنودا من القطن . ويلبسون فى أرجلهم خفا فوقه خف آخر يقال له السقمان[٧]. ويتخذ من الجلد البلغارى الأسود . ويثبت فى هذه الأخفاف المهاميز التى كانت تصنع من الحديد أولا . ولما زادت ثروة الجند عن طريق الاقطاعات اتخذوها من الفضة ، ثم من الفضة المكفتة بالذهب ، ثم اتخذت المهاميز أخيراً من الذهب الخالص[٨] .

ومما كان يستعمل فى عصر الناصر حقائب كبيرة من الجلد البلغارى تسمى الصوالق (واحدها صولق)[٩] تعلق بالمنطقة إلى الجانب الأيمن من الحزام . وكانت الواحدة منها

---

(١) الكلوتات — جمع كلوتة ، بتشديد اللام «هى كلمة فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠ ، حاشية Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٢) أخذت طريقة لبس الكلوتة أشكالا مختلفة كما كان لونها يتغير حسبما يراه كل سلطان . ففى عهد السلطان قلاوون أضيف لبس الشاش على الكلوتة ثم فى عهد ابنه السلطان خليل تغير لون الكلوتات من الصفرة الى الحمرة وأصبحت العمائم تلبس فوقها مع بقاء لبسها فوق ذوائب الشعر المرخاة فى أكياس من الحرير الأحمر والأصفر ، يطلق على كل منها اسم الدبوقة وتعلق فى الرأس الى الخلف وتوضع فيها جدائل الشعر بعد تصفيفها وضبطها على نحو ما كان سائداً فى عهد الأيوبيين . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٤ . راجع R. Dozy : Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes, pp. 387—388

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٧ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٢٠ .

(٤) الأقبية جمع قباء وهو ثوب يلبس فوق الثياب .

(٥) كمران هى جمع كمر وهى كلمة فارسية معناها الحزام المفرغ من وسطه لحشو النقود ونحوها . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠ .

(٦) الابزيم ، كما ورد فى اللسان ، حديدة تكون فى طرف الحزام يدخل فيها الطرف الآخر .

(٧) السقمان — خف ثان يلبس فوق خف آخر . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٨ .

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٤١ . المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٨ .

(٩) راجع المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٨٩ .
R. Dozy : Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes, pp. 248-249.

تسع نحو نصف ويبة ويعلق فيها منديل طوله نحو ثلاثة أذرع . ولعل الصوالق تشبه ما يستعمله الجندى الآن فى رحلاته من حمل حقيبة وراء ظهره يأخذ فيها زاده وذخيرته . ويظهر ان الدافع لهم على تكبير حجم هذه الصوالق إنما يرجع الى احتياجهم لها وقت جمع الأسلاب والغنائم (١) .

ويمكننا أن نقول إن زى الجندى فى عهد الناصر خاصة قد بلغ درجة كبيرة من حسن الرونق وبديع التنسيق ، حتى أصبح جمال هندامهم مضرب الأمثال فى غير مصر من الاقطار . ويستدل على ذلك مما ذكره أبو المحاسن عند كلامه على وصول رسل غازان محمود ايلخان المغول فى فارس الى القاهرة فى سنة ٧٠١ هـ لمقابلة السلطان الناصر محمد حيث يقول : (وكان الرسل قد سفروهم من القاهرة وأنزلوهم بالصالحية ، حتى إنهم يجتمعون بالسلطان عند حضوره من الصيد . فلما حضر الأمراء قدام السلطان بالخلع السنية وتلك الهيئة الجميلة الحسنة ، أذهل عقول الرسل مما رأوا من حسن زى عسكر الديار المصرية بخلاف زى التتار (٢) » .

البحرية

عظمت عناية المصريين بالأسطول منذ أيام الفاطميين ، الذين شعروا بالحاجة الملحة الى أسطول قوى يصد البيزنطيين عن بلاد الشام . ومن ثم أنشأ المعز داراً لصناعة السفن فى المقس (٣) بنى فيها ستمائة مركب . وعنيت حكومة الفاطميين بالغابات وزرع الشجر لاستخراج الخشب اللازم لمراكب الاسطول (٤) .

وكان على رأس الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى عشرة قواد ، على رأسهم رئيس يسمى « أمير الجيوش » واشتهرت الروضة والاسكندرية بصناعة السفن الحربية ، كما كانت هناك مرافىء لرسو السفن فى الاسكندرية ودمياط وحيفا وصيدا وعكا . وكان بجانب الاسطول الحربى اسطول تجارى تشق سفنه عباب البحرين الأبيض والأحمر ، ويحمل منسوجات مصر ومنتجاتها إلى بلاد المشرق عن طريق جدة وعدن . كما كان يسير إلى بلاد الغرب وبخاصة الى جزيرة صقلية .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٧ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠ .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر جـ ٨ ص ١٤٢ .

(٣) المقس — ضيعة كانت تعرف باسم أم دنين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المعز مرفأ صناعيا وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لاقامة صاحب المكس والعشار بها ثم قلبت فقيل المقس . والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٢١ . راجع أيضا كتاب « جوهر الصقلى » للدكتور على ابراهيم حسن ص ٩٢ .

(٤) راجع Aly Bey Bahgate : Les forêts en Egypte مجلة المعهد المصرى سنة ١٩٠٠ وكتاب « الفن الاسلامى فى مصر » للدكتور زكى محمد حسن جـ ١ ص ٩١ .

ولم يزل الأسطول المصرى محل عناية الخلفاء الفاطميين ، حتى قام النزاع بين الصليبيين ومصر فأمر شاور باحراق الفسطاط . ليحول دون وصول العدو ، كما أحرق مراكب الاسطول ولما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وانتقلت السلطة إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية ، أهتم بأمر الأسطول اهتماما كبيرا لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانى الاسلامية . فخصص له ديوانا كبيرا ، عرف باسم ديوان الأسطول وأقر له ميزانية خاصة وعهد بهذا الديوان الى أخيه العادل .

ولم تقتصر عناية المماليك على الجيوش البرية ، بل عنوا كذلك بأمر القوة البحرية ، فان السلطان الظاهر بيبرس عمل منذ سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٩ م) على إعداد قوة بحرية يستعين بها فى صد أعدائه الذين كانوا يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فاهتم بأمر الأسطول ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، كما أمر بانشاء الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط ، وكان يذهب بنفسه إلى « صناعة الجزيرة » ويشرف على تجهيز هذه الشوانى ، واستطاع بذلك أن يعد أسطولا مكوناً من أربعين قطعة حربية سيرها إلى جزيرة قبرص سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠) . ولكن هذا الأسطول قد تحطم قرب هذه الجزيرة . ولما علم بيبرس بذلك شرع فى انشاء أسطول آخر وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده (١).

وقد نسج على منوال بيبرس من حيث عنايته بالأسطول السلطان خليل بن قلاوون. فقد أنشأ أسطولا مكوناً من خمسين مركباً جهزها بالآلات الحربية والجند ثم سار إلى دار الصناعة بجزيرة الروضة لعرض الأسطول . وأقام لذلك احتفالا كبير أقبل عليه الناس من كل حدب وصوب قبل الاحتفال بثلاثة أيام ، وبنوا لهم أماكن من الخشب وأخصاصاً من القش على شاطىء النيل وعلى شاطىء جزيرة الروضة . وقد ازدحمت الطرق والميادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة الاحتفال ، ولما أقبل السلطان خرجت الشوانى والحراريق والطرائد واحدة بعد أخرى ، وعلى كل من الشوانى برج وقلعة . وتبارى الجند « وما منهم إلا من أظهر فى شونته عملا معجباً ، وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه » . ثم رجع السلطان فى عسكره إلى القلعة . وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم فى لهو ومرح (٢)

وسار السلطان الناصر محمد على منوال الظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون من حيث عناية كل منهما بالأسطول ، حتى صار لمصر فى عهده قوة بحرية هائلة .

وكانت أهم القطع التى يتألف منهـــا الأسطول المصرى إذ ذاك الشوانى والحراريق

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩٩٤ .

Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 272.

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٩٤ — ١٩٥ .

والطرادات والأغربة والبطس والقراقير(١) . وكانت الشوانى أكثرها استعمالا وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم ، وتجهز فى أيام الحرب بالسلاح والنفطية وتحشد بالمقاتلة والجنود البحرية(٢) . ويليها فى الأهمية الحراريق أو الحراقات ، وهى سفن حربية كبيرة ، تقل فى الحجم عن الشوانى وتستخدم فى حمل الأسلحة النارية كالنار الاغريقية ، وبها مواضع خاصة تلقى منها النيران . والظاهر أن معظم الحراريق كان يستخدم فى النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية(٣) . وفى المقريزى ما يدل على أن معظم هذه الحراريق كان يستعمل لتلك الأغراض المحلية . من ذلك أنه فى سنة ٧٠٢ هـ أعد السلطان الناصر محمد حملة بحرية لغزو جزيرة أرواد وجهزت الشوانى بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة ، و « زينت الشوانى أحسن زينة ففرج معظم الناس لرؤيتها وعدى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة »(٤) .

وهناك أنواع أخرى من السفن الحربية كانت شائعة فى عصر المماليك مثل الطرادات ، وهى سفن حربية صغيرة الحجم سريعة السير ، تستخدم فى حمل الخيول وتسع عدداً يتراوح بين أربعين وثمانين فرساً . ومن السفن الحربية القديمة التى أخذها المماليك عن الفرطاجنيين والرومان « الأغربة » ، وقد سميت بهذا الاسم لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر ، وتمثل فى الماء الطير فى الهواء . كذلك أخذ المماليك عن الصليبيين نوعاً من السفن الحربية الكبيرة ، عرف باسم « البطس » ، ويستعمل لحمل المجانيق والمقاتلة والسلاح وسائر آلات الحرب ، وقد بلغ عدد قلاعها الأربعين . ومن هذه السفن « القراقير » وتستعمل فى تموين الأسطول بالزاد والمتاع وأنواع السلاح . ومن سفن الأسطول المصرى فى عهد المماليك العشاريات وهى مراكب تسير فى النيل ، والشبّاك وتسير فى البحر الأبيض المتوسط عادة ، والفلائك ، والقوارب ، والحمّالات التى تحمل المؤونة والزاد لرجال الأسطول(٥) .

---

(١) خص ابن مماتى وزير صلاح الدين الأيوبى فى كتاب « قوانين الدواوين » الذى نشره الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطيه فصلا فى الأسطول المنصور أوضح فيه أنواع المراكب التى كانت تستعمل فيه وأسماءها وهى « طريدة ، شينى ، مسطح ، حراقة ، مركوس ، شلندى ، أعزارى » . ثم تكلم ابن مماتى عن ثلاثة من الدور التى كانت تصنع فيها تلك المراكب وتسمى « صناعة العمائر » أو « صناعة الانشاء » وكانت مراكز هذه الصناعة فى مصر والاسكندرية ودمياط وفى كل منها مستخدمون ومباشرون .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ . عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول المصرى ص ٤ . Dozy : Supp. Dict. Ar. . (٣) عبد الفتاح عباده : نفس المصدر ص ٥ — ٦ . محيط المحيط .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩٥ . انظر رسالة الاستاذ أمين الخولى عن « الجندية فى الاسلام » ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٥) ابن منكلى : الأحكام المملوكية (مخطوط) ص ١٩ . عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الاسلامى ص ٥ — ٧ . أمين الخولى : الجندية فى الاسلام ص ١٠٦ — ١٠٧

راجع بعض البيانات عن « أنواع المراكب المصرية » فى كتاب « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ١١٢ .

وقد استعملت هذه السفن فى أوائل عهد السلطان الناصر محمد فى غزو جزيرة رودس . ففى سنة ٧٠٢ هـ جهزت الشوانى بالسلاح والنفط وعين عليها أمير الأسطول سيف الدين كَهَرْدَاش المنصورى(١). وقد سار ذلك الأسطول إلى ميناء طرابلس ، حيث انضمت إليه السفن الحربية الراسية فيه ، وهاجم الأسطول المصرى جزيرة رودس واستولى عليها وهدم أسوارها(٢) . وليس أدل على مبلغ اهتمام مصر بالقوة البحرية من هذه العبارة التى ننقلها عن المقريزى يصف بها الاحتفال بانزال الشوانى إلى البحر استعداداً للسفر إلى طرابلس: « وفى محرم (سنة ٧٠٢ هـ) تنجزت عمارة الشوانى ، وجهزت بالمقاتلة والآلات مع الأمير جمال الدين أقوش القارى العلائى والى البهنسا . واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم فى البحر ، فركب أقوش فى الشينى الكبير وانحدر تجاه المقياس . . . وكان قد نزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك ، واجتمع من العالم ما لم يحصهم إلا الله تعالى ، وبلغ كراء المركب الذى يحمل عشرة أنفس إلى مائة درهم ، وامتلأ البرّان من بولاق إلى الصناعة بالناس ، حتى لم يوجد موضع قدم خال . ووقف العسكر على برّ بستان الخشب ، وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة . وبرزت الشوانى للعب كأنها فى الحرب : فلعب الأول والثانى والثالث ، وأعجب الناس بذلك إعجاباً زائداً ، لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب . ثم تقدم الرابع وفيه أقوش ، فما هو إلا أن خرج من منية الصناعة بمصر وتوسّط النيل ، إذا بالريح حرّكه ، فمال به ميلة واحدة انقلب وصار أعلاه أسفله . فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها ذات الأحمال ، وتكدّر ما كانوا فيه من الصفو ، وتلاحق الناس بالشينى وأخرجوا ما سقط منه فى الماء ، فلم يعدم منه سوى أقوش ، وسلم الجميع ، وعاد السلطان والأمراء إلى القلعة وانفض الجميع . وبعد ثلاثة أيام أخرج الشينى ... ووقع العمل فى إعادته حتى تنجز وندب الأمير سيف الدين كهرداش الرزّاق المنصورى للسفر عوضاً عن أقوش القارى ، فسافر إلى طرابلس بالشوانى ، واستجد منها ستين مقاتلا من المماليك سوى البحرية والمطوّعة »(٣) .

وقد ذكر النويرى صاحب « كتاب الإلمام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الأسكندرية »(٤) سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) من صنوف السفن التى كانت تجرى فى بحر

---

(١) راجع ترجمة سيف الدين كهرداش المنصورى فى المنهل الصافى لأبى المحاسن . واقرأ بعض أخباره فى خطط المقريزى جـ ٢ ص ٦٤ و ١٣٩ و ١٩٥ و ٣٠٦ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩٥ . كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٢٨ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩٢٨ .
قارن ذلك بالاحتفال الذى أقامه السلطان الأشرف خليل عقب انشائه الأسطول المصرى . راجع المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٤) مخطوط برلين . راجع اهلواردت Ahlwardt رقم ٩٨١٥ ورقة ١٢٤ أ وما يتلوها . قارن ذلك بما ورد فى H. Kindermann : «Schiff » im Arabischen. Untersuchung über Vorkommen und Bedeutung der Termini, Zwickau i, Sa, 1934.

الروم : « القراقر والزوارق والطرايد والغربان والشوانى والشـــياطى (واحدها شيطى) والسلالير (واحدها سلورة) والعشاريات (واحدها عشارى) لكل منها مكانته فى الحرب ونقل الجيوش والخيول ووسق البضائع ومستلزمات الجند . والقراقير لحمل البضائع ومنها ما هو بثلاثة ظهور ولها ثلاثة قلاع تسير بها فى الريح العاصف . وأما الطرايد فانها مفتوحة المواخير بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب . وأما الغربان فتحمل الغزاة وسيرها بالقلع . والمجاذيف منها ما له ماية وثمانين (كذا) مجذافاً وأقل من ذلك . والشيطى يجر بثمانين مجذافاً ووظيفته كشف المين ويرد بالخبر للقراقير والغربان وغيرها (وتشبه سفن الاستطلاع اليوم) . وأما العشارى فيجر بعشرين مجذافاً وهو الذى يعدى بالبضائع والرجال من الساحل لأن القراقر لا تقف إلا فى المكان الغزير الماء ، والسلورة بين الشيطى والعشارى . والقوارب نافعة لغزاة المسلمين وقت الحرب فى البحر يكون فى كل قارب أربعة أو خمسة من الرماة يعينوا غربان المسلمين على القتال لغربان الفرنج وقراقرها وذلك بسرعة دورانها وخفتها وتعزقها على مراكب الفرنج »(١) .

ومن هنا نتبين مبلغ ما وصلت إليه مصر الاسلامية فى عصر المماليك من التقدم فى ميدان الصناعة الحربية والبحرية ومقدار اهتمام السلاطين بأمر هذه الأساطيل ، حتى ظهرت هذه البلاد بالمظهر اللائق بها بين الدول الحربية فى ذلك الوقت ، أضف إلى ذلك ما كان من تعظيم الأهلين لرجال الأسطول حتى أطلقوا عليهم « المجاهدين فى سبيل الله » و « الغزاة فى أعداء الله » كما كانوا يتبركون بدعائهم . وليس أدل على ذلك من اشتراك الأهالى مع الحكومة عند استعراض الجيوش الحربية والأساطيل أو عند توديعها للغزو(٢) .

= وقد لفت نظرنا إلى هذه الرسالة الدكتور عزيز سوريال عطيه . وقرأنا الاشارة اليها فى كتاب « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ١١٢ حاشية ٧ .

(١) نقلا عن النويرى — راجع الحاشية السابقة .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩٥ . انظر كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن ص ٢٥٣ .

الباب الحادي عشر

الحالة المالية والاقتصادية

بينا أنه كان بمصر فى دولة المماليك ديوان يطلق عليه إسم « ديوان النظر » ويشبه وزارة المالية اليوم ، وعلى رأسه ناظر المال (أو ناظر الدولة أو ناظر النظار أو الصاحب الشريف أو ناظر الدواوين) ويُعاونه فى القيام بمهام هذه الوظيفة « مستوفى الصحبة » ويشبه وكيل المالية ، و « مستوفى الدولة » ويُشبه وكيل المالية المساعد ، و « المستوفون » ويقومون بأعمال مديرى الحسابات الذين يشرفون على الحسابات الخاصة بدواوين الحكومة والذين يتبعون وزارة المالية اليوم ، ويقومون بتنفيذ القوانين واللوائح المالية فى شتى الوزارات والمصالح الحكومية .

وكان الغرض من إنشاء هذا الديوان تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها ، وذلك بالقيام على صيانة المال وحفظه والتصرف فيه حسبما تقتضيه مصلحة البلاد العامة . وكان معظم موظفى هذا الديوان من القبط كما بينا ، وبفضل نشاطهم كان دخل الاقطاعات يصل إلى أصحابها ، وكانت الضرائب المباشرة تجمع بنظام .

موارد الدولة :

تعددت طرق جمع المال فى عهد المماليك : فان السلطان قطز غلا فى جبايته ليتمكن من صد التتر عن مصر ، ويقول المقريزى إنه فرض ديناراً على كل مصرى وأخذ ثلث التركات الأهلية . ولما اعتلى بيبرس عرش السلطنة من بعده أبطل هذه الضرائب (١) . وزاد السلطان قلاوون على مافعله بيبرس أن أبطل عدة ضرائب منها زكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ، وما كان يُؤخذ منهم إذا تم فتح أحد الحصون المنيعة ، وما كان يجبى من أهل الذمة وهو دينار فى كل سنة نظير حماية الجنود لهم ، وما كان يجبى من كل تاجر عند رحيل عسكر مصر فى حرب من الحروب ويطلق على ذلك « مقرر جباية الدينار » ، وزاد على ذلك أن أبطل ما كان يُجبى عند وفاء النيل لصرفه فى شى اللحوم وشراء الحلوى والفواكه وأمر بصرف مايختص بذلك من ديوان النظر (٢) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٥٠ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٦ .

وقد ذكر المقريزى أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون « أبطل من دمشق مكساً كان يؤخذ فى باب الجابية على كل جمل قمح خمسة دراهم »(١). وقال السلطان خليل فى هذه المناسبة : « لنكشف عن رعايانا هذه الظلامة ونستجلب الدعاء لنا من الخاصة والعامة »(٢). ومن عبارة المقريزى يتضح لنا أن هذه ضريبة كانت تفرض على الدواب التى تحمل إلى مدينة دمشق لتباع فى أسواقها . وقد كانت على باب الناصر بالقاهرة كتابة فيها إشارة إلى مثل هذه الضريبة ترجع إلى القرن التاسع الهجرى ونصها : « بحسب مارسم به نائب السلطنة المعظمة المقر العالى السيفى سودون من عرافة الجمال بأن يؤخذ على كل جمل خمسة وملعون من يأخذ أكثر من ذلك أو يحدث مظلمة فى أيام الدولة »(٣) . .

ولما اعتلى السلطان الناصر عرش مصر كانت موارد بيت المال تتكون من عدة أشياء :

أولها — ضريبة الأرض أو الخراج (٤) ، وتختلف باختلاف البلاد : فالوجه القبلى كان أكثر خراجه عيناً مما يؤخذ من غلة الأرض كالقمح والشعير والحمص والفول والعدس والبسلة أردبين إلى ثلاثة عن كل فدان ، أما الوجه البحرى فكان أغلب ضرائب أرضه نقداً . وكانت الضريبة تزيد وتنقص تبعاً لزيادة الغلة أو نقصانها (٥) .

---

(١) كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٩١ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp 59—60

(٤) الخراج هو مقدار معين من المال أو الحاصلات ، ويفرض على الأراضى التى صولح عليها المصركون . وكان يؤخذ الخراج : أولا عن الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد أن عوّض المحاربين عن نصيبهم فيها ، أواسترضاهم كما فعل عمر بن الخطاب . ثانيا عن الأرض التى أفاء الله بها على المسلمين (استحوذوا عليها دون قتال) ، فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت المال . ويقول المقريزى (الخطط جـ١ ص ١٠٣) : اعلم أن مال مصر فى زماننا ينقسم قسمين أحدهما — يقال له خراجى وهو مايؤخذ مشافهة من الأراضى التى تزرع حبوباً ونخلا وعنباً وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والسكشك وغيره من طرف الريف ، والآخر يقال له المال الهلالى عدة أبواب كلها أحدثوها ولاة السوء شيء بعد شيء » .

وكان الموكلون بأمور الخراج فى البلاد الاسلامية يقومون بتحويل السنة العربية بعد فترات معينة من السنين القمرية لما هنالك من التفاوت بين السنة القمرية المعتمد عليها فى استخراج الخراج ، والسنة الشمسية التى تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية ، إذ تنقص السنة القمرية عن السنين الشمسية سنة تقريبا كل ثلاث وثلاثين سنة ، فيقضى النظام الخراجى تقديم السنة الهلالية سنة ، كلما انقصت ثلاث وثلاثين سنة منها . وقد أفرد القلقشندى (صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٥٤) فصلا وافياً فى هذا الموضوع . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب : جـ ٢٩ ص ١٣١٨) والمقريزى (الخطط جـ ١ ص ٢٧٣) .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٥٢ — ٤٥٤ . انظر أيضاً Enc. Isl. art. Egypt.

أما المورد الثانى فمن المعادن وأهمها ثلاثة : الزمرد والشب والنطرون . أما الزمرد فقد هجرت مناجمه فى أواخر عصر السلطان الناصر لقلة ما كان يتحصل منه . وكان معدن الشب يستجلب من الوجه القبلى والواحات ويحمل إلى قوص أو إلى أسيوط وأخميم والبهنسا ، ومنها ينقل فى النيل الى الاسكندرية ، ويُباع للتجار الأوربيين خاصة ، ويتراوح ثمن القنطار بين خمسة دنانير وخمسة دنانير ونصف ، وقد خصصت الحكومة ثلث ثمنه لدفع رواتب الأمراء وبعض نفقات الجيش . أما النطرون (١) فكان يستخرج من ناحية الطرّانة بمديرية البحيرة وخصص ثلث ثمنه لنفقة الجيش (٢) .

وهناك موارد أخرى ، من بينها الزّكاة التى كان يدفعها أصحاب الأموال ، وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك ضريبة معروفة باسم « الجوالى »(٣) ، وهى ما يجبى من أهل الذمة بنسبة تتراوح بين عشرة دراهم وخمسة وعشرين درهما عن كل شخص قادر (٤) . ومن هذه الموارد التركات التى لا وارث لها وتعرف باسم « المواريث الحشرية(٥) » وما يتحصل من دار الضرب على النقود فى القاهرة ، وما كانت تجبيه الحكومة على عروض التجارة الواردة إلى الاسكندرية والصادرة منها (٦) .

ومن أهم موارد بيت المال المكوس (٧) أو الرسوم الجمركية . عن البضائع الواردة إلى الاسكندرية أو إلى دمياط ويتراوح مقدارها بين ١٠ ٪ و ٢٥ ٪ من قيمة البضائع الواردة .

---

(١) حدد المقريزى (الخطط جـ ١ ص ١٠٩) الجهات التى يوجد فيها النطرون فى القطر المصرى فقال : « أما النطرون فيوجد فى البر الغربى من أرض مصر بناحية الطرانة وهو أحمر وأخضر ويوجد منه بالفاقوسية شىء دون ما يوجد فى الطرانة وهو أيضا مما حظر عليه ابن مدبر من الأشياء التى كانت مباحة وجعله فى ديوان السلطان ، وكان من بعده على ذلك إلى اليوم ، وقد كان الرسم بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشر آلاف قنطار » .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٥ — ٤٥٧ . انظر أيضا Enc. Isl. art. Egypt.

(٣) الجالية — ما يفرضه العدو على بلد منهزم من المال والمحاصيل . والجالية أيضاً أهل الذمة ، سموا بذلك لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم عن شبه جزيرة العرب ، ثم أطلق هذا الاسم على كل من فرضت عليه الجزية من أهل الذمة والمجوس وإن يجلوا عن أوطانهم . ويقال استعمل فلان على الجاليه اذا ولى أخذ الجزية منهم . والعامة تطلق الجالية على نفس الجزية وجمعها جوال . محيط المحيط . السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٩٢٠ حاشية للدكتور زيادة Dozy : Supp.Dict Ar.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٥) المواريث الحشرية — هى مال من يموت وليس له وارث معين أو — كما يقول القلقشندى (نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٦٠) — « الباقى بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له » .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٦٠ . أنظر أيضا Enc. Isl. art Egypt.

(٧) عن المكس والمقس — راجع خطط المقريزى جـ ٢ ص ١٢١ و ٢٢٣ — ١٢٤ وانظر ص ٣١٦ من هذا الكتاب .

وكانت الضرائب فادحة فى عصر المماليك عامة حتى إن السفينة التى كانت تصل من أوربا إلى ميناء الأسكندرية (١) تدفع ضريبة تربو على الأربعين ألف دينار. ولم يسر المماليك على نظام ثابت فى تقدير هذه الرسوم بل كانت تخفض أحيانا الى أقل من ذلك تشجيعا للتجارة (٢).

أما موارد الديوان الخاص الذى استحدثه الناصر فكانت تأتى من الأموال التى تجمع باسم السلطان فى الاسكندرية، وتروجة الواقعة بمديرية البحيرة، وفوة، ونستروه، (أى بحيرة البرلس). ويودع هذا المال ديوان الخاص الذى يشرف عليه ناظر الخاص (٣).

وقد تناول ابن شاهين فى كتابه « زبدة كشف الممالك » مصادر إيرادات ومصروفات ديوان الخاص بشىء من التفصيل، فى هذه العبارة. فقال: « وله جهات عديدة من جملتها متحصل ثغر الاسكندرية المحروسة من وادى الفرنج، ومتحصل مقايضات البهار، وبيع السمك البورى والبطارخ وجهات الرسوم من أناس متعددة، والتراجمة، وضمان الجمال بثغر الاسكندرية، ورسم البهار الوارد من جدة إلى الطور، ومتحصل جهات ثغر دمياط .... ومتحصل فوة وبلاد البرلس ونستروه، وثغر رشيد ... ومتحصل المواريث الحشرية المنسوبة لأعمالهم لأعيان الناس بالديار المصرية، ومتحصل جهات آدر الضرب (٤)».

ويظهر لنا أن الناصر لم يقتصر فى تحصيل الأموال على هذه الموارد التى بيناها، بل كان يعمد أحياناً إلى شراء البضائع قسْراً بثمن بخس ثم يبيعها بثمن مرتفع كما فعل غيره من سلاطين المماليك، ولا يمكننا الجزم بأن بعض موارد الخزانة فى عصر النّاصر ناشئة من احتكار بعض الأصناف والاتجار فيها كما حدث فى عصر غيره من سلاطين المماليك. ولسنا نعرف كذلك هل كان الناصر يحصل على بعض الأموال بزيارة أكابر رجال الدولة واغتصاب مبالغ كبيرة منهم كما كان يفعل بعض السلاطين ولا سيما قايتباى. إلا أننا لا نستبعد أمر

---

(١) كانت ثغور مصر فى ذلك الوقت هى: دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والاسكندرية وكانت الأخيرة أكثرها أهمية، فقد كان بها على ما يقوله المقريزى (الخطط ج ١ ص ١٠٩) « عدة جهات فيها الخمس والمتجر — فالخمس: ما يستأدى من تجار الروم الواردين فى البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولحوا عليه، وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون ديناراً، وربما انحط عن عشرين ديناراً، ويسمى كلاهما خمسا. ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر، وطبيعى أن المقصود بالثغور هنا الموانى والبلاد الواقعة على الحدود. راجع مقال الاستاذ Honigmann عن الثغور فى دائرة المعارف الاسلامية.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ — Enc. Isl. art. Egypt. ٤٦٠

(٣) القلقشندى: نفس المصدر ج ٣ ص ٤٥٢ Demombynes: La Syrie, p. LXXI.

(٤) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١٠٩.

اغتصاب الناصر للأموال من كبار رجال الدولة بأية وسيلة ، وخاصة أن الناصر كان يعتقد أن هذه الثروات الطائلة التى استحوذ عليها بعض أمراء مصر ، قد جمعوها بطرق غير مشروعة .

وعلى الجملة فان موارد الدولة فى عصر المماليك كانت تأتى من الخراج ، والجزية ، والزكاة ، ومحصولات الاقطاعات بعد حجز اللازم للجند والموظفين ، ومكوس الجمارك ، والضرائب الاستثنائية على الأسواق .

نفقات الدولة :

وكانت الأموال التى تجمع من تلك الموارد تدفع منها أرزاق الموظفين والولاة والوزراء والقضاة ونظار الدواوين والمستوفين والكُتّاب والجند ونواب الأقاليم ، وتوزع العطايا والمنح على الأدباء والعلماء ، وينفق على ما تتطلبه البلاد من وجوه الأصلاح من كرى الأنهار وإصلاح مجاريها وحفر الترع لتحسين حال الزراعة التى هى مصدر ثروة البلاد الأساسية ، والنفقة على المسجونين والأسرى ، وبناء المساجد والمدارس والخوانك والمقابر[1] وكان يصرف على هذه المنشآت العلمية والخيرية من الأوقاف الأهلية أحياناً حتى تميز ذلك العصر بتلك المبانى الخالدة من قصور مشيدة وقلاع شامخة ومساجد ضخمة تشهد لهم بالقوة والثروة والجاه .

---

(١) يغلب على الظن أن السلاطين كانوا يعملون على أن تكون الأموال التى ينفقونها فى تشييد المساجد من أموالهم الخاصة التى آلت اليهم بطريق شرعى وأنهم كانوا لا يميلون إلى إنفاق الأموال العامة فى هذا السبيل . ويذكرنا ذلك بما جاء فى الكتابات التاريخية الانشائية التى وجدت على لوح خاص بجامع احمد بن طولون ومنها : « أمر الأمير أبو العباس احمد بن طولون مولى أمير المؤمنين أدام الله له العز والكرامة والنعمة التامة فى الآخرة والأولى ببناء هذا المسجد المبارك الميمون من خالص ما أفاء الله عليه وطيبه » . وقد فطن الأستاذ فان برشيم Van Berchem والاستاذ فييت إلى مالهذا النص من شأن فى الدلالة على الحرص الذى أشرنا اليه . ولعل هذه الرغبة كانت سبباً فى نشأة القول بأن ابن طولون عثر على كنز استخدمه فى بناء هذا الجامع .

راجع Wiet : Corpus, Egypte II., pp. 79,80

و Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 54

و Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 38.

وتاريخ ووصف الجامع الطولونى لمحمود عكوش ص ٢٣ .

ومما نلاحظه فى التاريخ الاسلامى عامة أن مشيدى العمائر الاسلامية كانوا يحرصون على أن يثبتوا فى الكتابات التاريخية على هذه المساجد أنهم شيدوا تلك العمائر من أموالهم الخاصة التى أنعم الله بها عليهم . راجع مسالك الأبصار للعمرى ج ١ ص ١٨٧ — ١٨٨ . وخطط المقريزى ج ٢ ص ٤٠٧ و ٤١٦ .

Van Berchem ; Corpus, Egypte I., pp. 344—345.

وكان من أثر هذه الثروة الطائلة أن وجّه المماليك عنايتهم إلى الجيش وكان لنشأتهم الحربية أثر بليغ فى تأسيس أول جيش ثابت منظم فى تاريخ العصور الوسطى فى الشرق . فعملوا على تدريب الجيوش وتزويدها بالمعدات الحربية على اختلافها ، وعنوا عناية خاصة بصناعة السفن الحربية حتى أصبح للاسطول المصرى فى عصر المماليك شأن عظيم .

ولسنا نستطيع أن نأتى ببيان دقيق عن ميزانية الدولة العامة فى عصر المماليك ، لأن المصادر التى بين أيدينا لم تتعرض لهذا الموضوع بصورة نطمئن اليها(١) . بيد أن هذا لا يمنعنا من القول بأن موارد الدولة كانت وفيرة وأنها ساعدت على تحقيق سياسة المماليك التى كانت ترمى إلى توسيع رقعة أملاكهم وظهور سلطتهم بالمظهر اللائق بها بين الدول الشرقية والغربية(٢).

وليس أدل على صحة هذا القول من مظاهر الأبهة والعظمة التى تجلّت فى بلاط معظم سلاطينهم، ومن هذه الأموال الضخمة التى كانت تنفق على الأسمطة السلطانية (٣) ، تلك الأسمطة التى كانت تمد بالايوان الكبير بدار العدل فى أيام المواكب فتقدم فيها مقادير ضخمة من اللحوم والدجاج والأوز وسائر الأطعمة الفاخرة . كذلك كانت تصرف الأموال الوفيرة فى الهبات التى كان يجود بها السلطان على الأمراء المقربين (٤) ، وعلى شراء الخيول التى كان يخلع بعضها على الأمراء الذين يأنس فيهم الولاء لشخصه والاخلاص لعرشه وعلى أفراد حاشيته وخاصة طائفة الخاصكية (٥).

---

(١) ذكر ابن آياس (بدائع الزهور ج ١ ص ٦٦) أن « الخراج » فى مصر بلغ فى عهد السلطان الظاهر بيبرس اثنى عشر مليون دينار . وقد بين سمو الأمير عمر طوسون فى كتابه « مالية مصر منذ عهد الفراعنة إلى الآن » ، ميزانيات متعددة لمصر ، غير أنه لا يوجد به سوى ماهنالك من إشارة لميزانية الدولة فى عصر الظاهر بيبرس .

(٢) اقرأ وصية أرباب التصرف فى الأموال فى « التعريف » للعمرى ص ١٤٩ — ١٥٠

(٣) وصف القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٦) الأسمطة السلطانية فقال :

« اعلم أن أسمطة هذا السلطان تكون بالإيوان الكبير أيام المواكب . وإذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخدمة مد السماط بالإيوان الكبير من أوله إلى آخره بأنواع الأطعمة الملونة الفاخرة ويجلس السلطان على رأس الخوان والأمراء يمنة ويسرة على قدر مراتبهم فى القرب من السلطان فيأكلون أكلا خفيفا ثم يقومون ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة ، ثم يرفع الخوان ، وأما فى بقية الأيام فيمد الخوان فى طرفى النهار لعامة الأمراء خلا البرانيين فانه لا يحضره منهم إلا القليل النادر » .

(٤) قال القلقشندى (نفس المصدر ج ٤ ص ٥٥) : « ولخاصة الأمراء المقدمين أنواع من الانعامات كالعقار والأبنية الضخمة التى ربما أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار ، وكساوى القماش المنوع ، وفى أسفارهم فى وقت خروجهم للصيد وغيره العلوفات والأموال »

(٥) مما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٤ — ٥٥) تتبين مقدار الأموال الطائلة التى كان ينفقها السلطان فى شراء الخيول التى ينعم بها على أمرائه ومماليكه : « قد جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين فى كل سنة : المرة الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله على =

حالة مصر الاقتصادية :

كانت حالة مصر الاقتصادية فى ذلك العصر حسنة بدليل الانتعاش الذى شمل جميع مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة . فقد اهتم معظم سلاطينهم بالزراعة ، فعنوا بأمر مقاييس النيل وأمروا بانشاء الجسور فى كافة أرجاء البلاد . وكانت هذه الجسور على نوعين : الجسور السلطانية وهى الجسور التى يعود نفعها على البلاد عامة ، وتتولى صيانتها الحكومة التى كانت تنفق عليها من مال الخراج ، أما النوع الثانى فهو الجسور البلدية وهى الجسور التى تعود منفعتها على ناحية من النواحى . ويتولى صيانتها الفلاحون المقطعون ، أى الذين يقطعون الأراضى وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر (١)

وكانت جميع أرض مصر تقاس بالفدان الجيشى أو الاقطاعى وهو أكبر بقليل من الفدان المعروف لدينا ، وكان يزرع من الأصناف الشتوية بأرض مصر القمح والشعير ، وتكثر زراعة القمح ببلاد الصعيد ، وتتراوح غلة الفدان الواحد منه من أربعين إلى عشرين . وبلغ ما كان يتحصل من فدان الفول عشرين أردبا . وكذلك من فدان العدس . ويستخرج من فدان الحمص من أربعة أرادب إلى عشرة أرادب . وكان الكتان من أهم مزروعات مصر فى ذلك العصر : فاذا طال قلعت قضبانه ويسمى حينئذ أسلافا وينشر فى موضعه حتى يجف ، ثم يحمل ويهدر ويعزل جوزه فيخرج منه بذر الكتان ويستخرج منه الزيت ، وكان الفدان الذى يزرع كتانا يؤجر بخمسة دنانير فى الصعيد وثلاثة عشر دينارا فى دلاص (٢)،

= القرط فى أواخر ربيعها ، فينعم على الأخصاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم ، ويكون خيول المقدمين منهم مسرجة ملجمة بكنابيش من زركش ، وخيول أمراء الطبلخانات عريا من غير قماش . المرة الثانية عند لعبه الكرة بالميدان ، وتكون خيول المقدمين والطبلخانات مسرجة ملجمة بغضة يسيرة بلا كنابيش ، وكذلك يرسل إلى نواب الممالك الشامية كل أحد بحسبه ، وليس لأمراء العشرات فى ذلك حظ إلا ما يتفقدهم به على سبيل الانعام .

ولخاصة الأمراء المقربين من الأمراء المقدمين والطبلخانات زيادات كثيرة فى ذلك بحيث يصل بعضهم الى مائة فرس فى كل سنة وله أوقات أخرى يفرق فيها الخيل على مماليكه ، وربما أعطى بعض مقدمى الحلقة ، وكل من مات له فرس من مماليكه دفع اليه عوضه وربما أنعم بالخيول على ذوى السن من أكابر الأمراء عند الخروج الى الصيد ونحوه .

والخيول الأمراء فى كل سنة اطلاقات أراضى بالأعمال الخيرية لزرع القرط لخيولهم من غير خراج ، وللمماليك السلطانية البرسيم المزروع على قدر مراتبهم » .

انظر أيضا ماجاء بهذا الصدد فى خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٠١ .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ — ٤٤٧ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٦٥ — ١٧١

(٢) دلاص (بفتح أوله وآخره صاد مهملة) كورة بصعيد مصر على غربى النيل ، وهى الآن تعد من بلاد مركز بنى سويف .

وفيما عدا ذلك بثلاثة دنانير . ويزرع القرط[١]، وهو غذاء الدواب ، إذا ما أخذ ماء النيل فى النقصان ؛ وكان يتراوح محصول الفدان ما بين وبية وأربع وبيات ، وكان محصول الفدان المزروع بصلا عشرة أرادب ،ويصل ما يجمع من الفدان المزروع من الترمس عشرين أردبا[٢].

ومن الأصناف الصيفية البطيخ واللوبيا والسمسم ، وكان محصول الفدان يتراوح بين أربعة وستة أرادب ، والقطن ويصل محصول الفدان إلى ثمانيه قناطير ، وقصب السكر وكانت أرضه تروى مرة فى كل سبعة أيام ، فاذا نبت القصب وصار أوراقا ظاهرة نبتت معه الحلفاء والبقلة الحمراء التى يسميها أهل مصر الرجلة ، عندئذ تغرق أرضه وينظف ما ينبت مع القصب . وكانت الأرض البعيدة عن مجرى النيل تنبت مقداراً من القصب يتراوح بين أربعين «أبلوجه قند» إلى ثمانية أبلوجة ، والأبلوجة تسع قنطارا . ويزرع مع القصب القلقاس فينبت الفدان عشرة قناطير . وكان يزرع أيضاً فى ذلك العصر الباذنجان والميقاتى كالخيار والفجل واللفت الخس والكرنب والكروم ، كما كان يغرس بحدائقها من الفاكهة التين والتفاح والخوخ والموز والسدر أو النبق والمشمش ، ومن الزهور النرجس والياسمين والريحان[٣].

وكان لمرور التجارة الهندية إذ ذاك عن طريق مصر أثر كبير فى رواج تجارة مصر فى عصر المماليك وزيادة ثروتها ، كما كانت مصر مصدر رزق وفير لمصر والمصريين . وهذه الثروة الضخمة التى تدفقت على خزائن المماليك تفسر لنا حياة البذخ والترف والنعيم فى ذلك العصر . وكان الناصر فى ذلك العصر يشجع التجارة فى داخل البلاد وخارجها : فقد عقد المحالفات الودية والتجارية مع امبراطور القسطنطينية وملوك أسبانيا وأمراء نابلى وجنوه وسلاجقة آسيا الصغرى . وكانت نتيجة ذلك انتشار التجارة بين مصر وتلك الأقاليم .

ويتبين لنا بوضوح درجة رواج التجارة فى مصر إذ ذاك من تلك الأسواق العامرة بالفراء على اختلاف أنواعها وأثمانها ، وبحوانيت البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان وأنواع الطرح ، وأصناف ثياب القطن ، وحوانيت الرسامين (أى حوانيت التطريز) والخياطين[٤] . ولاغرو فقد عنى المماليك بصناعة المنسوجات[٥]، والفرش والبسط حتى حذق

---

(١) القرط (بالضم) هو البرسيم .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٥٠ — ٤٥١ .

(٤) راجع ما كتبه المقريزى (الخطط ج ١ ص ٨٥ — ١٠٥) عن أسواق القاهرة وما كان بها من الحوانيت فى عصر المماليك .

(٥) فيما يختص بتفوق المصريين فى صناعة المنسوجات راجع : « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ١١٠ — ١٤٦ . وانظر : « فهرس مقتنيات دار الآثار العربية » تأليف مكس هرتس بك وترجمة على بك بهجت ص ٢٦٥ وما بعدها ، « دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية » تأليف الاستاذ ڤيت (G. Wiet) وترجمة الدكتور زكى محمد حسن ص ٨٣ — ٨٨ : Aly Bey Bahgat = "Les Manufactures d'étoffe en Egypte, au Moyen âge (Le Caire, 1904)

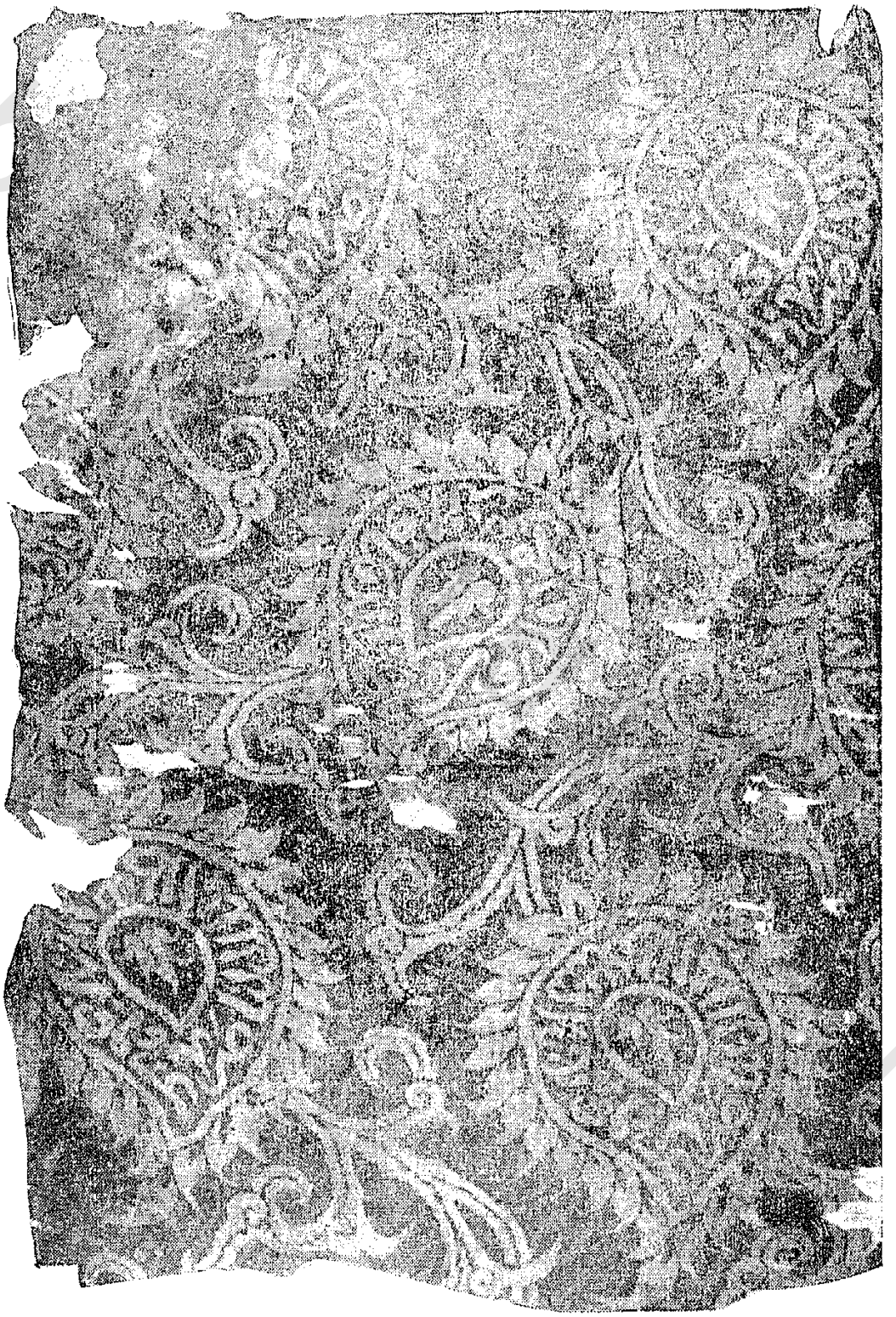

قطعة من النسيج من عصر المماليك

المصريون هذه الصناعات وغدت لهم شهرة عالمية فى هذا المضمار . ومع ذلك يلاحظ بوجه عام أن الصناعات التى ازدهرت بمصر فى عصر الفاطميين — كصناعة النسج مثلا — فقدت كثيراً من عظم شأنها فى عصر المماليك . ولعل السبب الأساسى فى ذلك يرجع إلى الأزمة الاقتصادية الشديدة التى حلّت بمصر فى عصر المستنصر بالله الفاطمى ، ثم كثرة الضرائب فى عصر الأيوبيين والمماليك (١) .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة ، فلا نعجب إذا كانت خزائن أمراء المماليك تفيض بالأموال ، حتى صارت حياتهم الخاصة والعامة حافلة بكثير من ألوان البذخ والترف والنعيم . ويظهر ذلك من عنايتهم بالصيد والسباق والرماية وتربية الخيل والموسيقى والغناء ، ومن فرش منازلهم بأنفس الطنافس والبسط وتزيين أبوابها وسقوفها بالعاج وتطعيم أوانى الشراب والطسوت بالذهب والفضة أو تكفيتها كما يقولون فى مصطلح الفنون الاسلامية ، ومن ذلك سوق الكفتيين الذى أشار اليه المقريزى (٢) .

ومن أمثلة الثروات الطائلة التى خلفها بعض أمراء المماليك : ماخلفه الأمير سيف الدين بكتمر الساقى (٣) فانه لما توفى سنة ٧٢٣ هـ وجد لديه « الأموال والقماش والأمتعة والأصناف

= وفى دار الآثار العربية قطعة نسيج يحتمل أنها كانت للسلطان الناصر إذ عليها عبارة « عز لمولانا السلطان الملك الناصر » (رقم السجل ٥٨٧٠) . انظر « التصوير عند العرب » تأليف احمد تيمور باشا (أخرجه الدكتور زكى محمد حسن) ص ٢١٨ .

وهناك قطعة نسيج من الحرير الأخضر باسم الناصر محمد ، فى زخارفها تأثر بالأساليب الفنية الصينية ، وهى محفوظة بمتحف ڤكتوريا والبرت ، وعليها عبارة « ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون » (رقم السجل ٩٥٧)

انظر A. F. Kendrick : Catalogue of Muhammadan Textiles of the Mediaeval Period (Victoria and Albert Museum), p. 39, plate XII.

(١) راجع مقال « القبط » للاستاذ فييت بدائرة المعارف الاسلامية Enc. Isl. art. "Kibt"

(٢) الخطط جـ ٢ ص ١٠٥ . راجع عن التكفيت : كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٢٠ و ٢٣٣ .

(٣) أورد المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٤٢٤) تاريخ حياة الأمير بكتمر الساقى فقال :

« كان بكتمر الساقى أحد مماليك السلطان المظفر بيبرس الجا شنكير . فلما استقر الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المملكة بعد بيبرس أخذه فى جملة من أخذ من مماليك بيبرس ورقاه حتى صار أحد الأمراء الأكابر وكتب إلى تنكز نائب السلطنة بدمشق بعد أن قبض على الأمير طغاى الكبير يقول له : هذا بكتمر الساقى يكون بدلا من طغاى ، أكتب إليه بما تريد من حوائجك . فعظم بكتمر وعلا محله وطار ذكره . وكان السلطان لا يفارقه ليلا ولا نهاراً إلا إذا كان فى الدور السلطانية ، ثم زوجه بجاريته وحظيته ، فولدت لبكتمر ابنه احمد ، وصار السلطان لا يأكل إلا فى بيت بكتمر مما تطبخه أم أحمد فى قدر من فضة وينام عندهم ويقوم واعتقد الناس أن أحمد ولد السلطان لكثرة ما يطيل حمله وتقبيله . ولما شاع ذكر بكتمر وتسامع الناس به قدموا إليه غرائب كل شيء وأهدوا إليه كل نفيس . وكان السلطان =

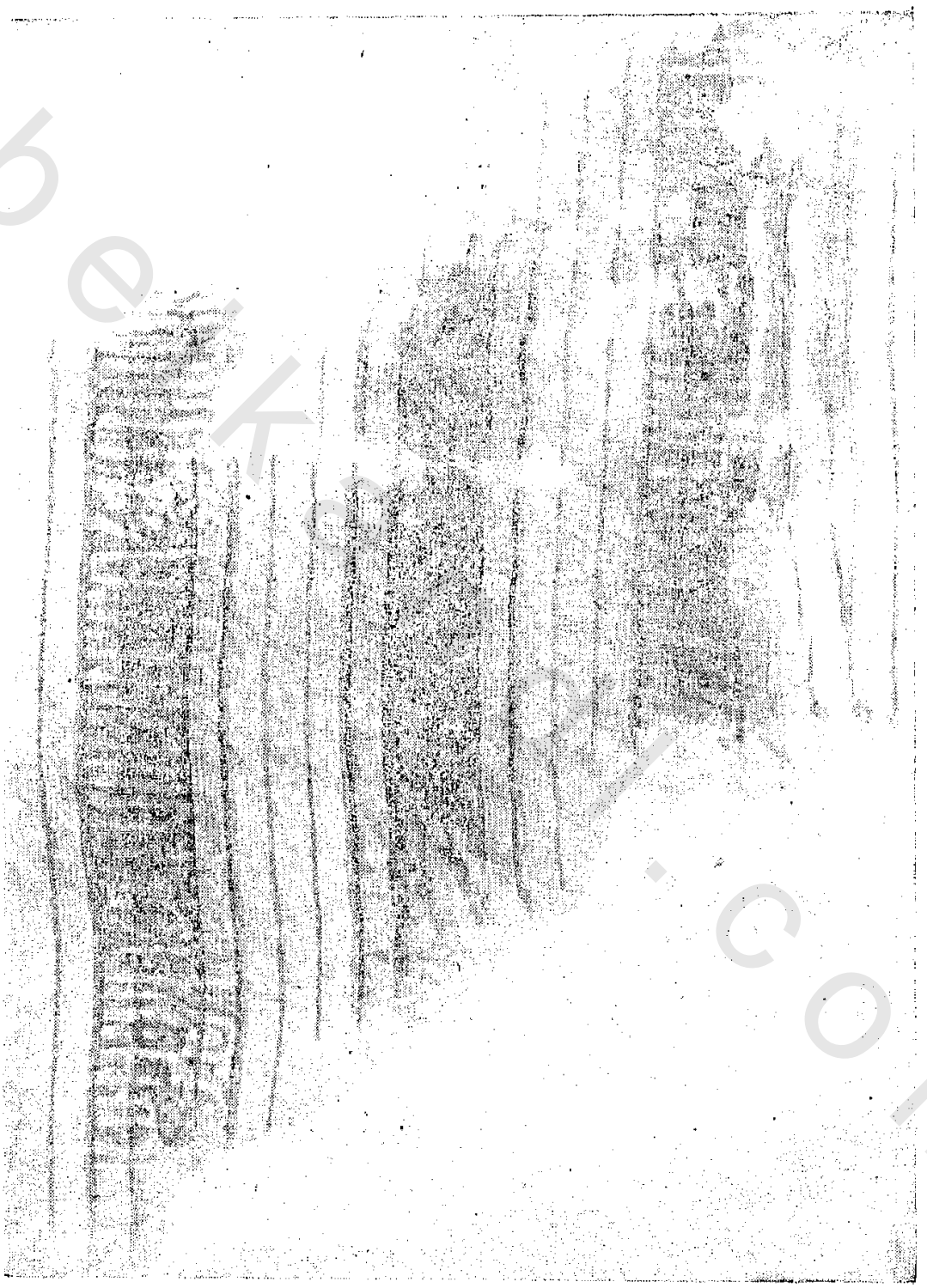

قطعة من النسيج من عصر المماليك

الزردخاناه مايزيد على العادة والحد ويستحى العاقل من ذكره . فأخذ السلطان من خيله أربعين فرساً وقال هذه لى ماوهبته إياها وبيع الباقى من الخيل على ما أخذه الخاصكية بثمن بخس بمبلغ الف الف درهم فضة ومائتى الف درهم وثمانين الف درهم فضة خارجاً عما فى الجشارات وأنعم السلطان بالزردخاناه والسلاح خاناه التى له على الأمير قوصون بعـــد ما أخذ منها سرجا وسيفاً ، القيمة عن ذلك ستمائة الف دينار . وأخذ السلطان ثلاثة صناديق جوهرا مثمناً لاتعلم قيمة ذلك ، وبيع له من الصينى والكتب والختم والربعات ونسخ البخارى والروايات الفولاذ والمطعمة والبصم بسقط الذهب وغير ذلك من الوبر والأطلس وأنواع القماش السكندرى والبغدادى ، وغير ذلك شىء كثير إلى الغاية المفرطة . ودام البيع لذلك مدة شهور . وامتنع القاضى شرف الدين النشو الخاص من حضور البيع . واستعفى من ذلك فقيل له لأى شىء ذلك قال : لا أقدر أصبر على غبن ذلك لأن المائة درهم تباع بدرهم »(١) .

وقد أورد ابن اياس بيانا عن ثروة الأمير سيف الدين ســـلاّر نائب السلطنة فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير ، والذى أمر السلطان الناصر بقتله عقب رجوعه إلى سلطنته الثالثة . فقال : « كان سلاّر فى سعة من المال . . . مما لايحصى لكثرته . ولما مات سلار . . . أحتاط السلطان على موجوده ، فظهر له من الأموال والتحف مالم يسمع بمثله فى خزائن الملك . قال الشيخ محمد الكتبى : وقفت على قوائم بخط القاضى جمال الدين بن الغويرة تتضمن ماقد اشتملت عليه تركة الأمير النائب وذلك أول ماضبط فى أول يوم وهو يوم الأحد سادس عشر جمادى الأولى من سنة سبعمائة وعشر هجرية : فمن ذلك صناديق افرنجى مصفحة بنحاس ضمنها فصوص ياقوت احمر بهرمان رطلا وفصوص بلخش رطلان ونصف وفصوص زمرد بانى عشرون رطلا وفصوص ألماس وعين الهر بثمانمائة قطعة ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال وخمسون حبة ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا الف دينار ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم . ثم فى يوم الاثنين سابع عشر وجد من الذهب الثمين خمسة وخمسون ألف دينار ومن الفضة ألف ألف درهم ومن الفصوص المختلفة رطلان ووجد له مصاغ من ذهب مابين خلاخيل وأساور وزن أربعة قناطير مصرى ووجد عنده طاسات فضة وأطباق وأهوان ذهب وطشوط فضة الوزن ستة قناطير . ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشر

= إذا حمل إليه أحد من النواب تقدمة لابد أن يقدم لبكتمر مثلها أو قريباً منها والذى يصل إلى السلطان يهب له غالبه فكثرت أمواله وصارت إشارته لا ترد وهو عبارة عن الدولة ، وإذا ركب كان بين يديه مائتا عصا نقيب وعمر له السلطان القصر على بركة الفيل » . وتوفى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) . راجع ترجمة ركن الدين بكتمر الساقى الناصرى فى المنهل الصافى ، وانظر أيضا Wiet : Les Biographies du Manhal Safi, p. 97, No. 670.

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٢٤ .

وعن التحف الفنية التى كانت بقصر الأمير بكتمر الساقى راجع أيضا : Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 75.

إناء من الخزف المصرى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .
محفوظ بالمتحف البريطانى .

وجد له من الذهب العين خمس وأربعون ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة ألف وثلاثون الف درهم . . . ثم فى يوم الأربعاء تاسع عشر وجد عنده من الذهب الف الف دينار ومن الفضة ثلثمائة الف درهم ووجد عنده أقبية حرير عمل الدار ملون بفرو سنجاب العدة أربعمائة قباء ووجد عنده من السروج الذهب مائة سرج . . . ووصل صحبته من الكرك من الذهب العين مائة الف دينار ومن الدراهم أربعمائة الف درهم ومن الخلع الملونة ثلثمائة الف خلعة . . . ووجد عنده من الخيول الخاص ثلثمائة رأس ومن البغال مائة وعشرون قطار ومن الجمال مائة وعشرون قطارا . وهذا كله خارج عما وجد له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوار » .(١)

وقد استرعت هذه الثروة الطائلة التى كان يملكها الأمير سلار نظر المؤرخ ابن أياس فتساءل من أين له هذه الثروة ومتى جمعها ولم يمكث فى نيابة السلطنة سوى أحد عشر عاما ؟ وأجاب على ذلك بانه « إما أنه كان قد ظفر بكنز من كنوز القدماء وإما أنه كان أخذ هذه الأموال والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه الملك الناصر الى الكرك وكانت مفاتيح بيت المال بيد سلار ولا يمكن منها الملك الناصر بشىء »(٢) وبذلك يبرئ ابن أياس السلطان الناصر من تهمة اغتصاب هذه الأموال فقد أوضح أن سلار قد جمعها بطرق غير مشروعة منتهزا فرصة اضطراب أحوال مصر أثناء عهود الاغتصاب . ومهما يكن من شىء ، فإن تلك الثروة قد آلت كلها إلى السلطان الناصر ، وكأن ابن إياس يعتبر ذلك أمراً طبيعياً فيقول « ولكن لما مات سلار رجع كل شىء الى أصله » .(٣)

وقد خلف الأمير سيف تنكز (٤) — الذى تولىّ نيابة السلطنة بدمشق فى عصر السلطان الناصر وتوفى فى سنة ٧٣٥ هـ — « من الذهب العين ثلثمائة ألف وست وثلاثون ألف دينار ، ومن الدراهم الفضة ألف ألف وخمسون ألف درهم ، ومن الجوهر واللؤلؤ والزركش والقماش ثمانمائة حمل ، ثم استخرج بعد ذلك من بقايا أمواله أربعين ألف دينار والف ألف ومائة درهم »(٥).

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٥—١٥٦ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) راجع ترجمة الأمير سيف الدين تنكز الحسامى الناصرى فى المنهل الصافى لأبى المحاسن . وانظر
Wiet : Les Biographies du Manhal Safi, p. 114, No, 786.
واقرأ ما كتبناه عنه فى الباب الخاص « بالحكومة المصرية » .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٤ . راجع أيضا ابن اياس : نفس المصدر ج ١ ص ١٧٢ .

علبة صغيرة من النحاس من عصر المماليك

ومن الأمراء الذين خلّفوا وراءهم ثروات طائلة الأمير سيف الدين بهادر المعزى[١]، فانه لما مات فى ٩ شعبان سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ م) ترك أموالا وفيرة ، من بينها : « ثلاثة عشر ألف دينار ، وستمائة ألف درهم نقرة ، وأربعمائة فرس ، وثلثمائة جمل ، ومبلغ خمسين ألف أردب غلة ، وثمان حوايص ذهب ، واثنى عشر طراز زركش وعقاراً كثيراً . فأخذ السلطان الملك محمد بن قلاوون جميع ما خلّفه[٢] » .

ومما يدل على انتعاش حالة مصر الاقتصادية فى عصر السلطان الناصر ندرة وقوع حوادث القحط والأوبئة على رغم كثرة حدوثها فى العصور التى سبقته أو تلته[٣] . وطبيعى إن قسطاً وافراً من الفضل فى هذا يرجع إلى عناية الناصر وحكومته بالزراعة وزيادة المحاصيل وتحسين الرى ، فضلا عن حسن حظ البلاد فى مقدار الفيضان . ولا ننسى حزم الناصر فى معالجة الأزمات ، فقد حدث فى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) أن ساءت أحوال البلاد الاقتصادية فى عصر الناصر وارتفعت أثمان الغلال ، وساعد الأمراء على ازدياد الحالة سوء بامتناعهم عن البيع طلباً لزيادة الربح . فخاف السلطان الناصر العاقبة وأمر نجم الدين محمد بن حسين بن

---

(١) أورد المقريزى (الخطط جـ ٣ ص ٧٧) تاريخ حياة الأمير بهادر المعزى فقال : « كان أصله من أولاد مدينة حلب من أبناء التركمان . واشتراه الملك المنصور لاچين قبل أن يلى سلطنة مصر وهو فى نيابة السلطنة بدمشق فترقى حتى صار أحد أمراء الألوف . وكان جميل الصورة معروفا بالفروسية ورمى فى القبق والنشاب بيمينه ويساره ولعب الرمح لعبا جيدا . وكان لين الجانب حلو الكلام جميل العشرة إلا أنه كان مقتراً على نفسه فى سكنه وسائر أحواله لكثرة شحه بحيث أنه اعتقل مرة فجمع من راتبه الذى كان يجرى عليه وهو فى السجن اثنى عشر الف درهم نقرة أخرجها معه من الاعتقال »

راجع ترجمة الأمير سيف الدين بهادر المعزى فى المنهل الصافى لأبى المحاسن . وانظر .

Wiet : Les Bioqraphies du Manhal Safi, p. 101, No. 696.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧٦

(٣) اقرأ حوادث القحط التى سبقت عصر المماليك فى خطط المقريزى جـ ١ ص ١٩٨ و ٣٦٥ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ ٧ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

واقرأ حوادث القحط والغلاء التى وقعت سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) عصر السلطان كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ — ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) فى : ابن أبى الفضائل — النهج السديد ص ٥٩١ — ٥٩٢ والمقريزى : السلوك جـ ٦ ص ٨١٣ — ٨١٤ . كتاب إغاثة الأمة (طبعة الدكتور زيادة) ص ٣٢ — ٤١ Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٦

وعن المجاعات التى حدثت فى عصر السلطان بيبر الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) اقرأ ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٩ — ١٥٠

واقرأ حوادث القحط والغلاء التى وقعت فى سلطنة أولاد الناصر وأحفاده وذلك فى سنة ٧٤٩ هـ فى عصر السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد فى المقريزى : السلوك (مخطوط) جـ ٢ القسم السادس (أول) ص ٥٧٨ — ٦١٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ القسم الأول ص ٦٦ — ٧٦ و ١٥٤ وابن اياس : بدائع الزهور جـ ص ١٩١ — ١٩٢

على محتسب القاهرة وعلاء الدين على بن المروانى والى القاهرة بالطواف معاً على الطواحين . فاشتدا على الخبازين بقصد الوصول إلى انفراج الأزمة ، إلا أن تلك الحالة زادت سوءاً حتى أغلقت الحوانيت وتعذر على الناس شراء ما يلزمهم من الخبز . ولكن السلطان أمر بأن ترسل الغلال إلى مصر من دمشق وغزة والكرك والشوبك وزاد على ذلك أن « نودى بالقاهرة ومصر ألاّ يباع القمح بأكثر من ثلاثين درهما الاردب ومن باع بأكثر من ثلاثين نهب ماله » ، وطلب إلى الأمراء عدم مخالفة ذلك . واشتدّ على المخالفين حتى قيل إنه عاقب سمسارى الأميرين قوصون وبشتاك بالضرب المبرح لبيعهما الخبز بأكثر من السعر الذى حدّده ، مما يدل على قوة شكيمة الناصر ومواجهته الصعاب بالحزم والعزم اللازمين فى مثل تلك الظروف التى كان فيها الشعب على حافة الهلاك (١) . وفى ذلك يقول المقريزى : « طلب (الناصر) الأمير قوصون بحضرة الأمراء وصرخ عليه : ويلك ! أنت تريد أن تخرب عليّ مصر وتخالف مرسومى ، وسبّه ولعنه وشهر عليه السيف وضربه على رأسه وأكتافه . وصاح : هاتوا استاداره ، فتسارع النقباء لاحضاره . ومن شدة غضب السلطان صار يقوم ويقعد ويقول : هاتو استاداره ، حتى خرج أمير مسعود الحاجب إلى باب القلعة . . . وارتجت القلعة بأسرها وخاف الأمراء كلهم لشدة ما رأوه من غضب السلطان ، فلم يكن أسرع من حضور قطلو استادار قوصون ، فأمر بضربه بالمقارع ثم أمر به فبطح بين يديه وضرب ... فلم يتجاسر من بعدها أحد من الأمراء أن يفتح شونته إلا بأمر المحتسب » (٢) .

ولم تقف محبة الناصر لشعبه عند حد تخليصه من أخطار المجاعات التى طالما هددت البلاد فى العصور السابقة ، بل انه انتهز فرصة شروعه فى عمل الروك الناصرى فى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) وألغى كثيراً من الضرائب التى أثارت شكوى المصريين . وبلغ مجموع ما ألغاه منها الأربعة عشر ضريبة من بينها « مقرر السجون » وهو ستة دراهم كانت تؤخذ من كل من يسجن ، و« مقرر طرْح الفراريج » وبمقتضاه لم يكن يتمكن بائعو الدجاج من شرائه إلا من الضمّامين ومن اتضح أنه اشترى أو باع دجاجة من غير الضامن عذب عذاباً أليماً ، و « مقرر الأقصاب والمعاصر » وهو مايجبى من مزارعى قصب السكر ومن المعاصر ، و « مقرر رسوم الأفراح » و « حماية المراكب » (٣) و « ضريبة نصف السمسرة » (٤).

وكان أهم ما ألغى من المكوس « مكس ساحل الغلة » الذى كانت تباع فيه غلال مدينة القاهرة . وقد بلغ مقدار مايستخرج منه ٤,٦٠٠,٠٠٠ درهم فى العام ، وكانت هذه الجهة

---

(١) ابن اياس بدائع الزهور جـ ١ ص ١٦٤ و ١٦٩ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٢ القسم الرابع ص ٤٤٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٢٠ — ٢٢٣ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٨ — ٨٩ وكتاب « إغاثة الأمة » (طبعة الدكتور زيادة والأستاذ الشيال) ص ٧٧ .

— أى ساحل الغلة — مقطعة لأربعمائة جندى من أجناد الحلقة ولعدد من الأمراء . وكان هذا المكس مصدر شكوى مستمرة من أهالى القاهرة لما كان ينالهم من عسف المشرفين عليه وإرهاقهم بالرشوة . وقد وصف لنا المقريزى الأموال التى كانت تجبى من هذا الساحل والمظالم التى كانت تحل بالجمهور، فقال : « وكانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جداً ، وينال القبط (١) منها منافع كثيرة لا تحصى ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم . فان مظالمها كانت تتعدد ما بين نواتية تسرق ، وكيالين تبخس ، وشادين وكتاب يريد كل منهم شيئاً ، وكان مقرر الأردب درهمين للسلطان . ويلحقه نصف درهم ، غير ما ينهب ويسرق . (٢) » ومما يدل على أهمية هذا المكس أنه كان له ديوان خاص فى بولاق ، وله خص عرف باسم « خص الكيالة » ويعمل فى هذا الديوان نحو ستين رجلا ما بين نظار ومستوفين وكتاب وثلاثين جندياً للشد (٣) .

وقد علق أبو المحاسن على ما فعله السلطان الناصر محمد حين أبطل المكوس التى كان يئن منها الشعب تعليقاً يدلنا على أن أهالى مصر قد قدروا هذا العمل وأشادوا بمآثر هذا السلطان : « وما فعله الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس دليل على حسن اعتقاده وغزير عقله وجودة تدبيره وتصرفه حيث أبطل هذه الجهات القبيحة التى كانت من أقبح الأمور وأشنعها وعوضها عن جهات لا يظلم منها الرجل الواحد ، ومثله فى ذلك كمثل الرجل الشجاع الذى لا يبالى بالقوم كثروا أو قلوا فهو يكر فيهم فان أوغل فيهم خلص وإن كر راجعاً لا يبالى بمن يوفى أثره كمن يعلم ما فى يده من نفسه ، بطل لذلك ما قبح وأحدث ما صلح من غير تكلف وعدم تخوف . فلله دره من ملك عمر البلاد وغمر بالاحسان العباد » (٤) .

الإقطاعات :

كانت أرزاق الجند فى عهد الأيوبيين (٥) والمماليك تدفع من مستغلات الإقطاعات . وقد حدث قبل ذلك أن مصر كلها كانت تعطى إقطاعاً لبعض الأمراء أو قواد الجند فى البلاط

---

(١) يشهد ذلك بنصيب القبط الوافر فى إدارة الأمور المالية فى البلاد كما مر بنا .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٢٢ .

(٤) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٢٣ .

(٥) ورد فى « كتاب قوانين الدواوين » لابن مماتى وزير صلاح الدين (الذى اشره الدكتور عزيز سوريال عطيه) فصل خاص بتفصيل الحبس الجيوشى يتناول فيه المؤلف الكلام على النواحى التى خصص إيرادها للجيوش السلطانية وما يزرع بتلك النواحى من مختلف المحاصيل .

كذلك ورد فى نفس الكتاب فصل بالقواعد الشرعية المتعلقة باقطاعات الجند ، وفصل آخر « فى المقرر عن عبرة الاقطاعات للاجناد والأتراك والأكراد والتركمان والكتابية والعاقلة (كذا) والغزاة والقواد والعربان » .

العباسى ، بعد أن عظم نفوذ الجند الترك . وقد كتب المقريزى فى هذا الصدد : « وقد كان خلفاء بنى أمية وبنى العبّاس يقطعون الأراضى من أرض مصر النفر من خواصهم ، لا كما هو الحال اليوم (أى فى زمن المقريزى) ، بل يكون مال خراج أرض مصر يصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف ، ويحمل ما يفضل إلى بيت المال ، وما أقطع من الأراضى فإنه يبد من أقطعه . وأما منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وقتنا هذا ، فإن أراضى مصر صارت تقطع للسلطان »(١) .

ولكننا لانعرف إقطاعاً ظاهراً فى وادى النيل إبان العصر الأموى بل « المعروف إن سنة جديدة بدأت فى حكم بعض الأقاليم التابعة للخلافة حين عظم نفوذ الجند من الترك فى البلاط العباسى ، إذ بدأ الخلفاء يقطعون تلك الأقاليم أولياء عهدهم ثم بعض قواد الجند . وطبيعى أن هؤلاء القواد الترك كانوا يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر الدسائس لهم وكان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم فى العاصمة مخافة أن يستقلوا بما يولونه من الأقاليم . فكان هؤلاء لا يحكمون بأنفسهم بل يوفدون إلى الأقاليم نواباً عنهم ويتلقون منهم ما يتبقى من الجزية والخراج بعد دفع نفقات الإدارة ، فيدفعون إلى بيت مال الخلافة جزءاً منه . وبدأ هذا النظام فى مصر منذ سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) وبقى إلى أن وفد أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها القائد التركى »(٢) .

وكان الجند فى عصر بنى بويه يمنحون إقطاعات من الأرض بدلا من مرتبات نقدية . وكان ذلك أساس نظام إقطاعى نما فى عصر السلاجقة ، وبلغ أوجه فى عصر المماليك(٣) .

وكان الإقطاع فى العرف المملوكى — وفى عرف الدول الاسلامية جميعاً — أمراً شخصياً بحتاً ، لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه ، فكان المقطع يحل فى الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته فحسب ، بل يؤول الاقطاع إلى السلطان بمجرد انتهاء المدة المتفق عليها ، أو بسبب وفاة المقطع اذا كان الاقطاع مدى الحياة ، أو بسبب إخلال المقطع بشروط العقد القائم ، وسواء فى ذلك ما يسمى إقطاع التمليك وهو الاقطاع العادى ، أو إقطاع الاستغلال وهو إقطاع شخص خراج جهة معينة(٤) .

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٤ ، انظر أيضا :
S.Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 59.

(٣) Ph. Hitti : History of the Arabs, p. 329.

(٤) هذه الصفة الشخصية تجعل الاقطاع فى البلاد الاسلامية مشابها للاقطاع الأوربى فى أوائل العصور الوسطى ، أى حتى القرن العاشر الميلادى إذ كان الاقطاع هبة من الملك لأتباعه ، وليس ثمة حدود مقررة تعين حقوق كل من الطرفين سوى مشيئة الملك أو قوة المتمتع بالاقطاع . غير أن الاقطاع الأوربى تطور فيما بعد القرن العاشر الميلادى ، فصار المقطع ملكية انتفاع واستغلال معينة ، وصار بينه =

وقد جرت العادة أن يتولى السلطان بنفسه إلحاق المماليك بالخدمة وترتيب درجاتهم ، فاذا حضر أمامه من يطلب الاقطاع ، ووقع اختياره على أحد ، أمر ناظر الجيش بالكتابة ، فيكتب ورقة تسمى المثال(١) ، وهو أول ما يُكتب من الأوراق الرسمية إيذاناً باعطاء أحد المماليك إقطاعاً من الاقطاعات الخالية . وكان المثال يخرج من ديوان الجيش ويقدمه ناظر هذا الديوان إلى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل ، فاذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان الجيش إلى ديوان النظر لتسجيله وحفظه فيه . ويكتب بذلك ما يسمى فى اصطلاح ذلك العصر باسم « مربعة » ، وهى فى الواقع ورقة مربعة الشكل ، يكتب فيها اسم المُعيَّن على الاقطاع ورتبته ، وغير ذلك من التفصيلات اللازمة . ثم ترسل المربعة إلى ديوان الانشاء ، فيحيلها كاتب السر على من يكتب بها « منشور » الاقطاع ، وهو آخر الأدوار التى يمر بها « المثال » . ويُسمى المنشور أيضاً فى مصطلح الدولة الأيوبية توقيعاً ، وهذه الوثيقة الأخيرة هى التى تجعل الاقطاع — أو الخبز كما كان يسمى أحياناً — شرعياً بيد المقطع الجديد (٢).

وكانت إقطاعات الحلقة التى تخرج بها المنشورات من ديوان الجيش وقفاً على أجناد الحلقة دون سائر طوائف الجيش المملوكى ، مثل المماليك السلطانية الذين يمنحون الرواتب المنتظمة ، ومماليك الأمراء الذين يعيشون فى كنف أساتذتهم . وكان مملوك الأمير علم الدين سنجر الخياط والى القاهرة هو أول من أخذ من مماليك الأمراء إقطاعا فى الحلقة (٣).

وكانت أرض مصر فى عهد الدولة الأيوبية تنقسم أربعة وعشرين قسما أو قيراطا : منها أربعة قراريط للسلطان ، وعشرة للأمراء ، وعشرة للأجناد(٤). وظلت الحال كذلك فى صدر دولة

= وبين المالك الأصلى أو الأول عقد شامل لالتزامات كل من الطرفين . ومع أن توريث الخلف الشرعى للمقطع لم يكن من شرط العقد الاقطاعى فى أوربا ، فان العادة قد جرت بأن يخلف الوارث سلفه باذن المالك الأصلى ، بعد تأدية مبلغ معين من المال بمثابة رسم دخول إلى الاقطاع . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٥٠٩ حاشية للدكتور زيادة .

على أننا لانستطيع هنا أن نستطرد فى الموازنة بين الاقطاع فى عصر المماليك والاقطاع الأوربى لأن هذا موضوع متشعب واسع الأطراف .

(١) المثال : عبارة عن ورقة أى وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندى أو مملوك مبينا بها مقدار ماخصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الاقليم والقرية والقبالة أى الحوض الكائنة فيها الأرض التى خصصت له . المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٩١ حاشية .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١٥٣ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٧ ؛ كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٩٠ حاشية للدكتور زيادة ؛ Demombynes : La Syrie. p. XLIV.

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٧٣ — ٦٧٤ ؛ راجع

Demombynes : La Syrie. p. XXXII.

(٤) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٨٧ ؛ Poliak : Feudalism in the Near East, p. 24.

المماليك البحرية حتى آلت السلطنة إلى المنصور حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦ هـ فمسح البلاد وقسمها تقسيما آخر ، عرف فى التاريخ باسم « الروك الحسامى » (١).

وقد مسحت أرض مصر فى العصور الاسلامية الأولى خمس مرات : المرة الأولى على يد عبد الملك بن رفاعة عامل الخراج فى مصر فى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى وأخيه سليمان وذلك حول سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) ، والمرة الثانية كانت على يد عبيد الله بن الحبحاب فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى حول سنة ١١٠هـ (٧٢٩ م) ، والمرة الثالثة كانت على يد ابن مدبر فى خلافة المعتز بالله العباسى حول سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧م) ، والمرة الرابعة كانت فى عهد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى سنة ٥٠١هـ (١١٠٧ — ١١٠٨م) (٢)، والمرة الخامسة فى عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وذلك سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) (٣) .

وكان الروك الحسامى أول روك للأراضى المصرية فى عهد المماليك . ويرجع السبب فى هذا الروك إلى « أن الأمراء كانوا يأخذون كثيراً من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شىء ، ويصير ذلك الاقطاع فى دواوين الأمراء ، ويحتمى بها قطاع الطريق ، وتثور بها الفتن ، وتقوم بها الهُوشات (٤) ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميهم ومضرة على أهل البلد التى تجاورها . فأبطل السلطان ذلك ورد تلك

---

(١) الروك هو مسح أرض الزراعة فى بلد من البلاد ، لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت المال .
Bibliothèque des Arabisants Français, 1ère Série, tome 2, p. 200.

والروك كلمة قبطية اصطلح على استعمالها للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها أى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها . ويقابل الروك فى الوقت الحاضر عمليتا فك الزمام وتعديل الضرائب . المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩١ حاشية .
Poliak : Feudalism in the Near East, p. 23.

(٢) أبو عمر الكندى : كتاب الولاة (طبعة رفن جست — بيروت) ص ٦٦ — ٦٧ و ٧٥ — ٧٧ . المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٣ حاشية للدكتور زيادة .

(٣) يلاحظ أن أغلب الباحثين فى مالية مصر لم يتعرضوا لموضوع « الروك الصلاحى » (نسبة إلى صلاح الدين الأيوبى) الذى ظل أمره غامضا عليهم . غير أن أمر هذا الروك يتضح جليا من الاطلاع على الباب الثالث من « كتاب قوانين الدواوين » للأسعد بن مماتى وزير صلاح الدين . فقد أحصى فيه بلاد القطر المصرى التى كانت تعتبر وحدات مالية فى ذلك العهد وإن لم يكن قد نص على « عبراتها ومساليحها » على نسق ماجاء بعدئذ فى « كتاب التحفة السنية » لابن الجيعان وكتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لابن دقاق نظراً لأن ابن مماتى — وكان من رجال الدولة المستوفين — اعتبر أن مثل هذه المعلومات على حد قوله « من أسرار الدولة التى لا يجوز اذاعتها » . ونرى من كل ذلك أن « الروك الصلاحى » له أصل تاريخى لا يحتمل الجدل . راجع « كتاب قوانين الدواوين » الذى نشره الدكتور عزيز سوريال عطيه) .

(٤) بمعنى مشاجرات . انظر فى شرحها Dozy : Supp. Dict. Ar.

الاقطاعات على أربابها ، وأخرجها بأسرها من دواوين الأمراء »(١) . وكانت الاقطاعات قد اضطرب أمرها منذ عهد السلطان خليل بن قلاوون ، بدليل ما أورده بيبرس الدوادار بصدد بدرالدين بيدرا نائب السلطنة فى ذلك العهد . ذلك أن السلطان خليلا قد فوض هذا الأمير نيابة السلطنة فى سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) « فتحدّث فيها وأخذ إقطاع الأمير حسام الدين طُرُنطاى وعدته وما كان له من المشتروات والحمامات بنواحى الأعمال ، واستضاف إلى ذلك شيئاً كثيراً من نواح اشتراها لديوانه من مُقطَعيها ، وبلاد استحوذ عليها وانبسطت يد نوابه فى الأعمال ، واحتجنوا له كثيراً من وجوه الأموال ، بحيث لم يبق إقليم إلا ومعظمه فى أيديهم ، والمقطعون لايصلون من إقطاعهم إلا مايتصدقون به عليهم ، فتضرروا وتضوروا وكرروا الشكوى وأكثروا »(٢) . ولا بد أن ذلك وأمثاله كان سبباً لما تقدمت الاشارة اليه من اضطراب فى أحوال الاقطاع فى عهد لاچين .

فلما أيقن السلطان لاچين بصحة هذه الشكاوى ، أمر بمسح البلاد المصرية للمرة السادسة فى تاريخ مصر الاسلامية أو للمرة الأولى فى دولة المماليك ، وقسمها تقسيما آخر جعل بمقتضاه للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطا وزّع عشره منها ، وأبقى القيراط الحادى عشر لزيادة إقطاع من يتضح فيما بعد أنه قد حاق به شىء من الغبن ، وجعل للسلطان أربعة قراريط كما كانت الحال فى الروك السابق ، وخصصت التسعة القراريط الباقية ليكوّن فرقا جديدة فى الجيش(٣) .

وانتهى هذا الروك بعد مجهود دام ثمانية وخمسين يوما . وفى يوم ٨ رجب سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) وزعت مثالات الأمراء ، وفى اليوم التالى وزعت مثالات مقدمى الحلقة ، وفى اليوم الثالث وزعت مثالات أجناد الحلقة . وأقطعت البلاد تبعا لهذا الروك للأمراء والأجناد كاملة ، لم يستثن منها سوى الجوالى والمواريث الحشرية ، لأنها عدت من المخصصات السلطانية ، ولم تدخل الأحباس ضمن الاقطاعات باعتبارها وقفا على أعمال البر والخير .

ولم يرض الأمراء عن هذا الروك ، فقد ذكر المقريزى (٤) أن السلطان لاچين « تولى تفرقة المثالات على الأمراء والمقدمين ، فبان له فى وجوههم التغير لقلة العَبرة (٥) » . أما

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٨ ؛ كامل مرسى بك : الملكية العقارية فى مصر ص ٧٢ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٥ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٣ ؛ الخطط جـ ١ ص ٨٨ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٧ ؛ و Lane—Poole : The Art of the Saracens, p. 16. Poliak : Feudalism in the Near East, p. 24.

(٤) كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٥ .

(٥) العبرة : كلمة اصطلاحية معناها « مقدار المساحة » . وقد تطلق على مقدار ما يكون فى حيازة كل شخص من الأرض ، كما تطلق على مقدار مساحة كل ناحية أو اقليم . ويقابل ذلك فى وقتنا الحاضر =

مثالات الأجناد فقد تولى أمر توزيعها منكوتمر نائب السلطنة ، فلم يجسر أحد أن يعترض على مقدار اقطاعه خوفا منه ، واستمر منكوتمر فى عملية التوزيع هذه عدة أيام .

وكانت إقطاعات الأمراء والجند إما بلاداً يستغلها مقطعها كيفما شاء أو نقوداً يحصلها من بعض البلاد . إلا أن الجند لم يرضوا عن مقدار نصيبهم فى الاقطاعات وشكوا محتجين على ما أصابهم من حيف ، فتصدّى لهم منكوتمر وأمر بالمحتجين فسجنوا . ويقول المقريزى : « شق ذلك على الأجناد ، وتجمعت طائفة منهم ورموا مثالاتهم ، وقالوا إنا لم نعتد بمثل هذا ، فاما أن تعطونا ما يقوم بكفايتنا وإلا فخذوا أخبازكم (أى إقطاعاتكم) وإما نخدم الأمراء أو نقيم بطالين . فخنق منهم منكوتمر وأمر الحجاب فضربوهم وأخذ سيوفهم وسجنهم وبالغ فى الفحش وصار ينظر إلى الأمراء ويقول : أيما قواد يجى يشتكى من خبزه ويقول أعرّف السلطان فانى أعرف إيش يقول له السلطان فاما أن يرضى بخدم وإلا فالى لعنة الله . فعرف الأمراء أنه يعنيهم فسكتوا على مضض »[1] . ويقول أبو المحاسن إن منكوتمر « جلس ليفرقها (المثالات) على العساكر فكان كل من يقع له مثال لا سبيل له المراجعة فيه فمن الجند من سعد ومنهم من شقى »[2] .

وكان متحصل الإقطاع الواحد فى عهد السلطان قلاوون يتراوح بين عشرة آلاف درهم عن كل من الاقطاعات الصغيرة ، وثلاثين ألف عن كل من الإقطاعات الكبيرة . فأصبح ما يُتحصل من أكبر الإقطاعات بعد عمل الروك الحسامى عشرين ألف درهم ، تتناقص كلما صغرت مساحة الاقطاع . لذلك قلّت أرزاق الجند ولم يرض الأمراء عما نزل بهم من الظلم فى هذا الروك . ومما زاد هذه الحال سوءاً أن منكوتمر لم يقبل شفاعة الأمراء فيمن حبسه من الأجناد فعوّلوا جميعاً على شق عصا الطاعة ونشر روح التذمر والسخط فى البلاد والقضاء على كل من السلطان لاچين ونائبه منكوتمر . ولم يجد إفراج السلطان عن هؤلاء الأجناد المحتجين ووعده بزيادة إقطاعاتهم وإقطاعات الأمراء نفعاً . بل كان هذا الروك من أهم العوامل التى أدت إلى القضاء على السلطان لاچين . ويقول أبو المحاسن فى ذلك : « وكان عمل هذا الروك وتفرقته من أكبر الأسباب وأعظمها فى فتك الأمراء بالسلطان الملك المنصور لاچين وقتله وقتل نائبه منكوتمر . وكان هذا الروك أيضاً سبباً كبيراً فى إضعاف الجند بديار مصر وإتلافهم فانه لم يعمل فيه عمل طائل ولا حصل لأحد منهم زيادة يرضاها وإنما توفر من البلاد جزء كبير . فلما قتل الملك المنصور لاچين تقسمها الأمراء زيادة على ما كان بيدهم »[3] .

= عبارة مساحة أو زمام ناحية كذا أو مديرية كذا . المقريزى : الخطط جـ١ ص ٨١ و ٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٩٣ حاشية .

(١) كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٥ — ٨٤٦ .

(٢) المنهل الصافى جـ ٣ ص ٦٧ ب .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٩٥ .

وفى شهر شعبان سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) شرع الناصر محمد فى عمل الروك الذى عرف باسم « الروك الناصرى » (١) نسبة اليه وهو الروك الثانى فى تاريخ دولة المماليك البحرية والسابع فى تاريخ مصر الاسلامية . وكان سبب هذا الروك « أن أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلاّر وجماعة من البرجية ، كان خبز الواحد منهم مائتى ألف مثقال فى السنة إلى ثلاثمائة ألف مثقال، فأخذ السلطان أخبازهم وخشى الفتنة وقرر مع فخر الدين ناظر الجيش روك البلاد » (٢) . وأشرف على تقسيم الأرض أربع لجان ، تضم كل لجنة منها ثلاثة أو أربعة من الأمراء يعاونهم عدد من المستوفين والكتّاب والقياسين . وقامت هذه اللجان بما عهد اليها خير قيام، فضبطت الأرض ومسحتها وأحصت غلتها وخراجها ، وما فرض عليها من الأشياء الأخرى ، من الدجاج والعسل والخراف والكشك والكعك والبرسيم والعلف للدواب . وانتهت هذه اللجان من مهمتها بعد عمل متواصل دام خمسة وسبعين يوما (٣) . وكان من أثر ذلك أن زيدت أنصبة الأمراء والأجناد عما كانت عليه فى الروك الحسامى ، فأصبحت أربعة عشر قيراطا بعد أن كانت أحد عشر ، وخصصت العشرة القراريط الباقية للسلطان ومماليكه . وكتبت مثالات بقراريط الأمراء والأجناد ، وبدأ السلطان الناصر فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥م) بتوزيعها فى قلعة الجبل . وكلما جاء أحد المستحقين فى الاقطاعات يسأل عن إسمه واسم التاجر الذى أحضره إلى مصر، والأمير الذى التحق بخدمته فى حداثة سنه ، والوقائع الحربية التى اشترك فيها ، حتى يستوثق من شخصيته ، ثم يسلمه مثاله وكان ذلك يتم بحضور كبار الأمراء . فان حاول أحدهم التأثير على السلطان أثناء توزيع المثالات بالإطناب فى شجاعة أحد الأجناد حتى يزيد مقدار مايمنح له من الاقطاع ، عمد السلطان إلى إعطائه دون مايستحق ، حتى لايجسر أحد على التكلم فى حضرته ، فلم يكن للوساطة أو الأغراض أثر فى مقدار مايمنح للأجناد من الإقطاعات . وانتهى توزيع هذه المثالات فى آخر المحرم

---

(١) يعد « كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » لمؤلفه الشيخ شرف الدين يحيى علم الدين شاكر بن الجيعان — مستوفى (رئيس حسابات) ديوان الجيش فى عهد الملك الأشرف قايتباى فى سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٧ م) — أوفى مصدر فى هذا الموضوع بين الكتب القديمة ، فهو جامع لأسماء المدن والقرى المصرية التى كانت بمصر فى ذاك الوقت ، وهو آخر حصر رسمى عمل عنها فى عهد دولة المماليك أساسه الروك الناصرى أى فك الزمام الذى عمل سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) بأمر الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد طبع هذا الكتاب مرتين الأولى فى باريس سنة ١٨١٠ م والثانية فى القاهرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٨٩٨ م . انظر أيضا Enc. Isl. art. Egypt.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٢١ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٥٩ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ القسم الأول ص ٥٤ . المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٨ .

سنة ٧١٦ هـ (١٢١٦ م) (١).

اشتد الناصر فى معاملة كل من حاول رد « مثاله » أو تقدم بالشكوى من جراء ما أصابه من الإقطاع . فكان جزاء من يحتج الضرب والحبس والحرمان من نصيبه ، كما فعل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر مع المحتجين على أنصبتهم فى الروك الحسامى . كما ان نتيجة هذا الروك — على الرغم من زيادة عدد القراريط التى منحها الأجناد من الأرض — كانت هى نفس النتيجة التى أدى اليها عمل الروك الحسامى ، إذ أنه قد « غبن فى هذا الروك أكثر الأجناد فانهم أخذوا إقطاعا دون الاقطاع الذى كان معهم » (٢) . كما أن كثيراً من الأمراء ممن بلغ إقطاع الواحد منهم الف دينار قد هبط إلى مائتى دينار ، على حين زادت أنصبة الكثيرين منهم رغم عدم استحقاقهم لتلك الزيادة . وقد عبّر المقريزى عما حاق بالأجناد من غبن يرجع سببه إلى عدم مراعاة الناصر جانب الدقة فى توزيع «المثالات» فى هذه العبارة : «فانه كان يعطى المثال من غير تأمل ، كيفما وقعت يده عليه » (٣) .

ومما أورده المقريزى (٤) وأبو المحاسن (٥) عن إحجام الأمراء عن تبليغ السلطان استياء الأجناد من هذا الروك ، وعما نال أحد أتباعه من التعذيب البالغ على أثر إبلاغه مولاه أمر هذا الاستياء ، نتبين أن عدم إعلان الأجناد تذمرهم من أنصبتهم فى هذا الروك ، كان راجعاً قبل كل شىء إلى ما عرف عنه من الصلابة والتمسك بتنفيذ هذا القانون .

ومهما قيل فى الروك الناصرى ، فما لاشك فيه أن مصر كان يسودها الاضطراب والفوضى قبل عمله ، وخاصة إذا عرفنا أن السلطان الناصر اعتبر ما كان يقدمه الفلاحون إلى الأمراء من الزجاج والعسل والخراف والكشك والكعك والبرسيم والعلف للدواب ، وهو ما عرف باسم « حق الضيافة » كان جزءا مقرراً من القيمة المستحقة لكل من الأمراء والأجناد فى إقطاعاتهم ، كما أن الناصر أبطل عدة ضرائب بلغ مجموعها أربعة عشر ، منها « مكس ساحل الغلة » الذى كانت تباع فيه غلال مدينة القاهرة ، وقد مر بنا أن مقدار ما يستخرج منه بلغ ٤,٦,٠٠,٠٠٠ درهم فى العام ، وكانت هذه الجهة (أى ساحل الغلة ببولاق) مقطعة لأربعمائة من أجناد الحلقة ولعدد من الأمراء (٦) . وقد أعجب المغفور له الأمير عمر طوسون بهذا الروك أيما إعجاب ووصفه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٢١ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٠ — ٩١ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩١ .

(٥) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٦ .

(٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٩ ؛ أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٢٢ — ٣٨٢ .

فى كتابه « مالية مصر » ، فقال إنه كان « محكما فى بابه ، ولم يكن فقط أكثر استيفاء من المساحات التى سبقته فى العهد العربى ، بل كان عملا متقناً تفتخر به أى مصلحة من مصالح المساحة الحالية » (١) .

ولما كان الروك حدد مقدار ماتناله طبقة الأمراء والأجناد معا من حيث عدد القراريط التى تخصصهم من أرض مصر ، فلا بأس من أن نبين مقدارما كان يخص كلا منهم على حدة . فقد كان المثال الذى يمنح للأمير يحدد فيه للأمير ثلث الإقطاع وللأجناد المتصلين به الثلثان . ولم يكن الأمير أو لأحد من أتباعه أن يطلب إلى أحد الأجناد النزول له عن شىء من إقطاعه اللهم إلا إذا رضى بذلك عن طيب خاطر ، بل حتم على كل أمير أن لا يفصل أحداً من أجناده من غير أن يعرض أمره على نائب السلطنة بالقاهرة أولا ، فان رأى مايستدعى إخراجه من حاشية الأمير التابع له ، أمر باخراجه وعين من يحل محله فى خدمة ذلك الأمير (٢) . ويظهر لنا أن ذلك الإجراء قد اتبع وصار كأنه قانون ، لضمان عدم التجاء أحد من الأمراء إلى طرد أجناده بقصد زيادة نصيبه فى الإقطاع المخصص له .

وقد قدرت مخصصات الأمراء من مستغلات الإقطاعات بحسب رتبهم فى الجيش وفى خدمة السلطان بما يأتى :

أمير مائة من	٨٠,٠٠٠	دينار	إلى	٢٠٠,٠٠٠ دينار
أمير طبلخاناه من	٢٣,٠٠٠	»	»	٣٠,٠٠٠ »
أمير عشرة من	٧,٠٠٠	»	»	٩,٠٠٠ »
مقدم الحلقة من	٢٥٠	»	»	١,٥٠٠ » (٣)

هذا إلى ما كان مقرراً للأمراء المعينين فى خدمة السلطان من الرواتب السلطانية من اللحم والتوابل والعليق والزيت والكسوة والشمع . كما كان للمماليك السلطانية وأجناد الحلقة رواتب مماثلة من عند السلطان ، ولكن مقاديرها كانت تتفاوت زيادة ونقصانا . ومما هو جدير بالملاحظة أن رواتب هؤلاء الأمراء والمماليك والأجناد لم تكن لها علاقة بما يمنحونه من إقطاع ، وإنما كان يمنحها لهم السلطان على سبيل الهبة . ولذلك كانت تمنح أحيانا لمن لا إقطاع له كأبناء الأمراء فيطلق له من لدن السلطان « دنانير وخبز ولحم وعليق إلى أن

---

(١) الأمير عمر طوسون : مالية مصر ص ٢٥٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ ؛ و Demombynes : La Syrie, p. XLII, انظر أيضا ; Michel ; L'Organisation Financière de l'Egypte, p. 142.

يتأهل للاقطاع فى جملة الحلقة »(١) .

أما فى الشام فقد بلغ إقطاع الأمير ثلثى إقطاع زميله فى مصر . ولم يكن يصل إلى مرتبة أمراء مصر فى الاقطاع والرواتب من أمراء الشام سوى نائب السلطنة بدمشق .

وقد جرت العادة أنه إذا مات أمير بمصر أو الشام أصبح إقطاعه شاغراً ، وعمل السلطان على منح الإقطاع أحد المستحقين من الأمراء ، فتكتب « رقعة » فى ديوان الجيش بذلك الإقطاع وترسل إلى ديوان الجيش بالقاهرة ، فيتولى ناظر الجيش عرضها على السلطان ، فان أقرها كتب عليها كلمة « يكتب » . وعلى أثر ذلك تحرر مربعة من ديوان الجيش تمهيداً لكتابة منشور لصاحب الإقطاع الجديد(٢) .

ومن ذلك نرى أنه كان لكل أمير إقطاع بحسب درجته . وفى عصر السلطان الناصر كانت الأمبراطورية الاسلامية مقسمة إلى أربعة وعشرين قسما : عشرة منها للسلطان وكان ينفق منها على مماليكه وغلمانه ، وأربع عشرة لسائر الأمراء والجند . وكان للجند ديوان مستقل يعرف باسم « ديوان الجيش » . وكان للأمراء موظفون لإدارة إقطاعاتهم . ولم يكن للدول نفوذ عليها أو إشراف إلا حين تقطعها إلى أمير آخر . على أن عصر المماليك لم يقع فى خطر الاقطاع الأوربى لأن أرض الإقطاع لم تكن وراثية ، وفضلا عن ذلك فان الأمراء لم يقيموا فيها مما أضعف كثيراً من نظام الحكومة المركزية(٣) .

ولم يكن جائزاً لمن يقطع إقطاعاً فى عصر المماليك أن يتصرف فيه بالبيع أو ينزل عنه لغيره لأنه لم يعد أن يكون أرض استغلال . وظل هذا النظام متبعاً طوال هذا العصر . غير أنه لما ساءت الأحوال فى عهد أولاد الناصر حدث فى أثناء سلطنة شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ — ٧٤٧ هـ = ١٣٤٥ - ١٣٤٦ م) أن كثيراً من أجناد الحلقة كانوا ينزلون عن إقطاعاتهم للآخرين « بمال أو مقايضة الإقطاعات بغيرها فكثر الدخول فى الأجناد بذلك وانتشرت السوقة والأراذل فى الإقطاعات حتى صار أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات وخربت منهم أراضى إقطاعاتهم »(٤) . ولقد حدث فى ذلك العهد أيضاً أن رخص لمن أراد أن يندمج فى الحلقة من جند الأمراء أن يدفع لبيت المال رسماً بقدر إيراده فى الحلقة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٠ — ٥١ ؛ Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV. (L'Egypte Arabe) p. 395.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥١ .

(٣) Hautecoeur et Wiet : les Mosquées du Caire, p. 50.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٩ .

Poliak ; Feudalism in the Near East, p. 28. Demombynes ; La Syrie, p. IXV.

سنة كاملة . وكان المقصود بذلك إيجاد مورد جديد من موارد بيت المال . ولكن الأمراء أدركوا خطر هذا العمل ورأوا أن ذلك من شأنه أن يؤدى إلى تحول معظم جندهم إلى أجناد فى الحلقة . وبذلك يقل عدد جندهم فلجأوا إلى السلطان وأبلغوه وجهة نظرهم فأقرهم عليها وأبطل العمل بهذا النظام(١) .

وفى عهد السلطان حسن بن الناصر محمد فتح باب المقايضات مرة أخرى . وأخذ الجند يبيعون إقطاعاتهم قصد الحصول على المال واستولى بذلك كثير من العامة على بعض الإقطاعات وبلغ ثمن الاقطاع الواحد أحياناً عشرين ألف درهم . ولكن ذلك لم يستمر طويلا حتى كانت أيام السلطان صالح بن الناصر محمد الذى سمح للأجناد ببيع إقطاعاتهم والمقايضة عليها بالأموال . ولم يقف الأمر عند هذا بل كانت هناك جماعة من الوسطاء عرفوا باسم « المهمزين » مهمتهم ترغيب الأجناد فى بيع إقطاعاتهم لمن يدفع ثمناً مناسباً . وبلغت عدة هؤلاء نحو ثلاثمائة « مهمز » كانوا يتقاضون على الصفقة الواحدة ١٠ ٪ من ثمن البيع . وأصبح بيع الاقطاعات أمراً مألوفاً فى ذلك الحين حتى صار معظمها ملكا لأصحاب الحرف على حين ترك معظم الأجناد اقطاعاتهم وأصبح عدد الجند الذين يملكون اقطاعات أقل بكثير مما كان من قبل . وظل هذا النظام متبعاً حتى ألغى فى عهد السلطان الصالح زين الدين حاجى (٧٨٣ — ٧٨٤ هـ) .

ولقد تقدم القول بصدد أبناء الأمراء أن السلطان كان يخصص لهم رواتب من المال واللحم والخبز والعلف لدوابهم . ويستمر الحال على ذلك حتى يكبروا ويثبتوا أهليتهم للاقطاع والاندماج فى سلك أجناد الحلقة ، ثم يتدرجون فى المناصب بقدر ما يبدونه من ضروب الكفاية والاستقامة . وكان السلاطين لا يمنحون الاقطاعات للأمراء أو أجناد الحلقة إلا بقدر شجاعتهم وشهامتهم فى الحروب(٢) .

ولم ينص على سن معينة للتقاعد بل كان يراعى قدرة الأمير أو الجندى على العمل . وإذا وصل أحد أفراد هاتين الطبقتين إلى حالة لاتسمح له بالاستمرار فى مزاولة عمله ، التمس من السلطان ان يجعله « طرخانا » (٣) ، ويصدر بذلك مرسوم سلطانى . ومن العبارة التالية التى أوردها القلقشندى فى أحد المراسيم التى كان يصدرها السلطان بمنح « الطرخانية » لأحد الأمراء او الجنود ، تتبين طريقة التقاعد فى ذلك العصر : « ولما كان فلان ممن تتوفر فى الخدمة الشريفة قسمه وكبرت فى الساعة سنه ووهن عظمه . . . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر المذكور طرخانا

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٩ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢١٦ .

(٣) المراد بلفظ « الطرخانية » : أن يسمح للشخص بالاندماج فى سلك الخدم السلطانية ، على أن يقيم حيث شاء ، ويرحل متى شاء . وتمنح الطرخانية للأمراء أو الأجناد وبخاصة لمن كبرت سنه وضعفت قدرته على العمل وعجز عن الخدمة السلطانية . القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٤٨ .

لا يطلب لخدمة فى نهار ولا ليل ولا يلزم بالقيام بنزك (١) ولا خيل » (٢) .

ويظهر أن الأمير الطرخان كان لا يتمتع باقطاعه القديم ، بل يعين له السلطان مبلغاً من المال . والدليل على ذلك أنه لما مسح الناصر محمد البلاد المصرية سنة ٧١٥ هـ جعل جهة مكس قَيْطِيا لضعفاء الأجناد الذين لم يقووا على الاستمرار فى العمل ، وجعل لكل منهم ثلاثة آلاف درهم وهو ما يُساوى مائتى جنيه تقريباً (٣) . على أنه كان من الممكن أن يبقى الأمير الطرخان متمتعاً باقطاعه إذا رأى السلطان ذلك . ففى سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) شكا الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى كبر سنه وعجزه عن الاستمرار فى العمل والتمس إعفاءه من الخدمة فأجيب إلى طلبه وسمح له بالاحتفاظ باقطاعه ، وأضيفت أجناده إلى أجناد الحلقة (٤) .

---

(١) النزك : الطعن بالنيزك ، وهو رمح صغير .

(٢) اقرأ مرسوم سلطانى بمنح الطرخانية لأحد الأمراء فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥١ — ٥٢ .

(٣) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٢ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٠ .

الباب الثانى عشر

القضاء والمظالم والحسبة

١ ـ القضاء

القضاء بمصر قبل عهد بيبرس :

كان منصب القضاء فى مصر فى أيام الفاطميين يسند إلى رجل من الشيعة يُلقب باسم « قاضى القضاة »[١] له حق تعيين قضاة فى جميع المدن المصرية . ويستمد أحكامه من فقه الشيعة الذى انتشر فى مصر منذ فتحها الفاطميون فى سنة ٣٥٨ هـ ، إذ حمل جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى على نشر مذهب الشيعة فى الديار المصرية ، وأمر بالعمل به فى القضاء والفتيا . ومع هذا فقد كانوا لا يصادرون أهل السنة والجماعة فى إقامة شعائرهم الدينية وفق مذاهبهم ، تأليفاً لهم واكتساباً لودهم . فظهرت فى أيامهم مذاهب الأئمة مالك والشافعى وأحمد ، ومُنع العمل بمذهب الإمام أبى حنيفة لأنه كان مذهب منافسيهم من العباسيين . وقد أقام الفاطميون إلى جانب قضاتهم الشيعيين قضاة آخرين من الشافعية والمالكية . فإن الوزير أبا علىّ بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى عين فى سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة : اثنين من الشيعة واثنين من السنيين . وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إمامياً ويدعى ابن أبى كامل ، والثانى إسماعيليا وهو أبو الفضل محمد بن الأزرق . أما السنيان فكان أحدهما شافعياً ويسمى سلطان بن رشاد ، والآخر مالكياً وهو أبو محمد عبد المولى بن الليثى[٢] .

ولم يكن نفوذ قاضى القضاة أيام الفاطميين مقصوراً على الديار المصرية ، بل كان يمتد أحياناً إلى سائر الولايات التابعة للامبراطورية الفاطمية شرقا وغرباً (مصر وبلاد المغرب والشام وغيرها) . ولم يكن اختصاصه يقتصر على قضايا الأحوال الشخصية ، بل كان يتناول

---

(١) لم يكن لقب قاضى القضاة معروفا فى أيام الخلفاء الراشدين ولا فى عهد الدولة الأموية ، وإنما عرف فى أيام الدولة العباسية فى عهد هارون الرشيد ، أدخله البرامكة عن الفرس . وأول قاضى عباسى نال هذا اللقب هو القاضى أبو يوسف صاحب أبى حنيفة ومؤلف كتاب الخراج . عمر نوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ١٩١ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

جميع القضايا المدنية والجنائية ، ويقوم بإمامة المسلمين فى الصلاة ويشرف على دار الضرب ، ويتفقد أحوال نوابه فى الأقاليم ويشرف عليهم ويسأل عنهم الثقات . وكان أول من تلقب بلقب قاضى القضاة فى مصر أيام الدولة الفاطمية القاضى على بن النعمان وذلك فى سنة ٣٦٦ هـ . وقد عظم منصب قاضى القضاة فى ذلك العصر حتى ان العزيز بالله أجلس معه على المنبر يوم العيد القاضى أبا عبد الله محمد بن النعمان (١) .

وظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الفاطمية وتأسست دولة الأيوبيين سنة ٥٦٧ هـ وقد افتتح صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٤ هـ مدرستين لتعليم الفقه إحداهما على مذهب الامام الشافعى والأخرى على مذهب الإمام مالك ، وصرف جميع القضاة الشيعيين وعين بدلهم قضاة من الشافعية السنيين الذين كان يتبع مذهبهم ، وبذلك اقتصر القضاء على مذهب الشافعى ، فقد كان قاضيه صدر الدين بن عبد الملك بن درباس شافعى المذهب ، فلم ينب عنه فى أقاليم مصر إلا من كان شافعى المذهب كذلك . وانتشر مذهب الشافعى فى مصر وما يتبعها من الأقاليم (٢). ولما تولى الملك السلطان نورالدين محمود سلطان حلب وابن عماد الدين زنكى ، وكان حنفياً نشر هذا المذهب ببلاد الشام ، ومنها انتشر فى مصر . أما فقهاء الحنابلة فقد كانوا أقلية فى الديار المصرية بالنسبة إلى غيرهم من الفقهاء . ولم يسمع بذكرهم إلا فى القرن السابع الهجرى وما بعده . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الامام احمد رضى الله عنه عاش فى القرن الثالث ، ولم يظهر مذهبه خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، على حين كان الفاطميون فى مصر يطاردون فقهاء المذاهب غير الشيعية (٣) .

وكان يتولى منصب القضاء فى عهد الأيوبيين فى القاهرة وسائر أعمال الديار المصرية قاض واحد ، له حق إنابة نواب عنه فى بعض الأقاليم ، وأحياناً كان يعين قاض للقاهرة والوجه البحرى ، وأشهر من تولاه فى ذلك العهد القاضى تاج الدين بن عبد السلام الخراط ، وقاض آخر للفسطاط والوجه القبلى . وممن تولاه القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن السنجارى(٤) .

تنظيم القضاء فى عهد بيبرس :

وبقى الأمر كذلك فى مصر طوال عهد الأيوبيين وشطراً من عهد المماليك حتى أوائل

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤ — ٣٥ . ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠١.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ١٩١ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣١ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : نفس المصدر والصفحة . عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ٦٠ .

(٤) عرنوس : نفس المصدر ص ١٠٤ — ١٠٥ .

أيام السلطان بيبرس . ذلك أن بيبرس لم يشأ أن ينفرد قاضى القضاة الشافعية — وهو تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن بنت الأعز (١) — بوظيفة القضاء فى مصر كلها (٢) ، بل أشرك معه القاضى برهان الدين السنجارى ، فاختص الأول بقضاء القاهرة والوجه البحرى ، والثانى بالنظر فى قضاء الفسطاط والوجه القبلى ، وذلك على نحو ما كان متبعاً فى عهد الأيوبيين. وفى سنة ٦٦٠ هـ عزل برهان الدين السنجارى ، فعاد تاج الدين ابن بنت الأعز إلى تولى القضاء منفرداً بالديار المصرية كلها (٣) .

وقد عرف ابن بنت الأعز بالتشدد فى أحكامه ، فأمره السلطان أن ينيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، للفصل فى بعض القضايا . ولم يكن ذلك معروفاً فى مصر من قبل . ويظهر أن هؤلاء المدرسين كان فيهم من الكفاية والجدارة ما يؤهلهم للاضطلاع بأعباء المناصب القضائية ، مما جعل بيبرس يعهد إليهم بالنظر فى القضايا على اختلاف أنواعها . فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى ، والقاضى شرف الدين عمر السبكى ، والقاضى شمس الدين محمد ابن ابراهيم الحنبلى فى أول ذى القعدة سنة ٦٦٠ هـ وحكموا بين الناس ، كل وفق مذهبه (٤) .

وما زال بيبرس يتعهد النظام القضائى بالاصلاح والتعديل . وكأنه رأى فى تقسيم مناصب القضاة بين قضاة من المذاهب الأربعة ما يضمن ضمان العدل بين الناس والتسهيل عليهم ، فجعل هذا المبدأ رسمياً فى سنة ٦٦٣ هـ ، وعين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة (٥) .

أما السبب المباشر الذى حدا بالسلطان بيبرس إلى تعيين قضاة يمثلون المذاهب الأربعة فيرجع إلى أن الأمير جمال الدين أيدغدى كان يحقد على قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، ويحط قدره عند السلطان ، ويرميه بالتشديد فى أحكامه والتوقف فى القضايا التى لا تتفق مع مذهبه . فلما جلس السلطان بيبرس بدار العدل فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٦٦٣ هـ ، شكا إليه بنات الملك الناصر الأيوبى صاحب الكرك ودمشق أن ورثة هذا الملك اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات هذا القاضى ذكر ورثته أنها موقوفة ، وعند ذلك أخذ الأمير ايدغدى ينتقص قدر الفقهاء ، فقال السلطان للقاضى

---

(١) اشتهر باسم « ابن بنت الأعز » نسبة إلى جده لأمه ، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام ابن القاضى كمال الدين أبى السعادات احمد بن شكر ، أحد وزراء السلطان الملك العادل أبى بكر ابن أيوب . النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص٦٢ . ابن حجر : رفع الإصر ص ١٧٦ب — ١٨٧ب.

(٢) اقرأ نص تفويض تاج الدين ابن بنت الأعز قضاء القضاة بالديار المصرية . النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٢ — ٤ .

(٣) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ١٢ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧٢ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٥ . المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٤ .

تاج الدين : « يا قاضى ! هكذا تكون القضاة ! » فقال تاج الدين : « يا مولانا ! كل شاة معلّقه بعُرقوبها » . قال : « فكيف الحال فى هذا ؟ » قال : « إذا ثبت الوقف يُستعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : « فاذا لم يكن مع الورثة شىء ؟ » قال القاضى : « يرجع الوقف إلى أصله ، ولا يستعاد الثمن » . فغضب السلطان من هذا الجواب . ولم تتم المناقشة فى هذا الموضوع حتى تقدم رسول أمير المدينه وقال : « يا مولانا السلطان ! سألت هذا القاضى أن يسلم إلىّ مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده ، لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها ، فلم يفعل » . فسأل السلطان القاضى عما قاله الرسول ، فقال : « نعم » . قال السلطان : « أنا أمرتُه بذلك ، فكيف رددتَ أمرى ؟ » قال : « يا مولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يُمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرفُ أنه موثوق بدينه وأمانته ، فان كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه » . فقال السلطان : « تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى ؟ » قال : « نعم » . قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن تختاره » ثم تقدم بعض الأمراء ، وقال : « شهدتُ عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته » ، فسأل السلطان القاضى عن ذلك ، فقال : « ما شهد أحد عندى حتى أثبته » فقال الأمير : « إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟ » قال السلطان : « لم لا سمعت قوله ؟ » فقال : « لا حاجة فى ذكر ذلك » . فقال الأمير أيدغدى : « يا قاضى ! مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضياً »(١) .

ولقد أعجب السلطان الظاهر بيبرس برأى الأمير أيدغدى ، ولم يمض أسبوع حتى كان الرأى قد استقر على أن يكون منصب قاضى القضاة لكل من المذاهب الأربعة . ففى ١٩ ذى الحجة سنة ٦٦٣ هـ أمر السلطان بيبرس أن يكون تاج الدين ابن بنت الأعز على قضاء الشافعية وعهد إليه بالنظر فى أموال اليتامى(٢) والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال ، وأن يكون الشيخ شهاب الدين أبا حفص عمر بن عبد الله بن صالح على قضاء المالكية ، والقاضى بدر الدين بن سليمان على قضاء الحنفية ، والقاضى شمس الدين محمد بن عماد الدين ابراهيم القدسى على قضاء الحنابلة ، وجعل السلطان لكل من هؤلاء الرؤساء حق تعيين نواب عنهم فى سائر أقاليم الديار المصرية(٣)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ — ٣٦ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ .

(٢) كانت أموال اليتامى القصر وأموال الغائبين توضع فى صندوق فى عهدة قاضى القضاة الشافعى . وكان ذلك الصندوق يعرف باسم « المُودَع » . ولقد كان مودع الحكم فى زمن المقريزى فندق مسرور الكبير الواقع على يسرة السالك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين بالقاهرة . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩٢ . كتاب السلوك ج ١ ص ٨٦٤ . اقرأ أيضا نص تقليد قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز النظر فى أموال الأيتام والأوقاف بمفرده بالديار المصرية سنة ٦٦٣ هـ فى النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ٣٥ — ٣٦ . القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٦ .

وقد صار منصب قاضى القضاة بين أربعة بالشام كما حدث فى مصر . وكان القاضى الشافعى هو الذى يولى القضاة على البلاد الشامية كما كان المتبع فى مصر. فقد كان فى كل نيابة من النيابات الست التى أشرنا إليها آنفاً أربعة قضاة من المذاهب الأربعة أعظمهم الشافعى ، ويفصل فى المسائل المتعلقة بالميراث والأوقاف ، ويليه فى الرتبة الحنفى ، ثم المالكى ، ثم الحنبلى . وكان قضاء العسكر موجوداً كذلك فى بلاد الشام . فقد كان بها قاضيا عسكر أحدهما شافعى والآخر حنفى ، وبذلك لم يوجد قضاة عسكر من المذهب المالكى أو الحنبلى ، وكان يصدر بتعيينهما مرسوم سلطانى . ووجد نظام الإفتاء فى نيابات الشام ، حيث فى كل منها مفتيان أحدهما شافعى والآخر حنفى ، كما هو متبع فى قضاء العسكر ، ويعينهما نائب السلطنة فى النيابة التابع لها المفتيان(١) .

اختصاصات القضاة :

ولم يكن عمل قاضى القضاة فى ذلك الوقت مقصوراً على النظر فى قضايا الأحوال الشخصية بل كان يتناول أيضاً النظر فى جميع القضايا المدنية والجنائية وإمامة المسلمين فى الصلاة والإشراف على دار الضرب وعلى نوابه فى الأقاليم(٢) .

وما لبث اختصاص قاضى القضاة وقضاة الأقاليم أن زاد واتسع نفوذهم فتناول النظر فى دعاوى إثبات الحقوق والأموال التى ليس لها وارث، كما تناول النظر فى أوصياء اليتامى وأموال المحجور عليهم من المجانين والمفلسين وأهل السفه وفى وصايا المسلمين وتزويج الأيامى عند فقد أوليائهن وتعرف أحوال الشهود والأمناء والنواب ، وكان القضاة ينظرون فى الأوقاف ويعملون على تنمية مواردها واستلام ريعها وصرفه فى وجوهه . وعهد إلى القضاة فى تسلم أموال المواريث المتنازع عليها وأموال من يموتون من الغرباء ويحفظونها وديعة أو أمانة لديهم حتى يحضر ورثتهم(٣) .

وكان القاضى فى مدن الأقاليم يعتبر نائباً لقاضى القضاة فى القاهرة ، ومما يدل على ذلك قول عز الدين بن جماعة : « ان الخليفة المستكفى المتوفى بمدينة قوص أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا بمدينة قوص وثبت ذلك عندى بعد ثبوته على نائبى مدينة قوص »(٤).

وقد مرّ بنا أن الحاجب أتيح له أن يتدخل فى اختصاصات القاضى وأن ينظر فى خصومات

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩٢ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٩ ص ٣٤ — ٣٥ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠١ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩٢ ؛ عنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١١٢ — ١١٣ و ١١٨ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٣ .

المدنيين ، فضلا عن خصومات المماليك التى كانت من اختصاصه بحكم وظيفته . فقد كان مكلفاً فى بداية العصر المملوكى بحلّ الخلاف الذى يقوم بين الأمراء والجند . وفى عصر أبنائه أصبح رئيس المحكمة الإدارية فى الجيش . وكان السلطان يستشيره فى الحالات الخطيرة الشأن . والظاهر أن نفوذه امتد تدريجاً من القضاء الحربى إلى القضاء المدنى فتدخل فى اختصاص القاضى . وقد شكا المتقاضون من ذلك فى البداية ، ولكنهم لم يلبثوا أن اعتادوه بل أصبحوا أحياناً يفضلون قضاء الحاجب على قضاء القاضى(١) .

وكان القضاة يقومون أحياناً بمهام أخرى زيادة على ما كانوا يضطلعون به من شئون القضاء . فقد كان القاضى تقى الدين عبد الرحمن الشافعى ابن بنت الأعز يتولى الوزارة مضافة إلى القضاء (سنة ٦٨٧ هـ) فى عهد السلطان قلاوون(٢) . ولما صرف عن الوزارة فى عهد السلطان خليل بن قلاوون ، بقى فى يده سبعة عشر منصباً . من أهمها : قضاء القضاة بالديار المصرية كلها ، وخطابة الجامع الأزهر ، ونظر الخزانة ، ونظر الأحباس ، ومشيخة الشيوخ ، ونظر التركة الظاهرية بيبرس . وأولاده وأوقافه وأملاكه ، والتدريس فى عدة مدارس(٣) .

وكانت جلسات المحاكم فى دولة المماليك تنعقد فى المساجد عادة أول النهار وفى آخره . وإذا أراد القاضى مشاورة أعضاء المحكمة فى الأحكام انصرف الحاضرون ، وكانت الجلسات تنعقد أحياناً فى دور القضاة . وكان للقضاة بعض مميزات فى لباسهم عند الجلوس للنظر فى القضايا(٤).

وإذا جلس القاضى للفصل فى الخصومات رتّب القضايا على حسب حضور الخصوم ، فمن حضر أولا نظر قضيته ، ثم نظر قضية من يليه وهكذا(٥). ولسنا ندرى هل كان القاضى يدرس القضايا قبل النظر فيها ثم يحدد لنظرها يوماً معيناً يحضر فيه الخصوم ، أم كان أول عهده بكل منها حين يقف الخصوم بين يديه .

وقد جرت العادة أن ينظر القضاة فى القضايا المتعلقة بالغرباء أولا ، أما إذا كثُر عددهم فقد كانت تنظر قضاياهم بحسب ترتيب حضور أصحابها . وكان الرجال يجلسون إلى ناحية والنساء إلى ناحية أخرى . ولم يكن هناك تمييز أو مفاضلة بين المتقاضين فى المعاملة مهما علا مقامهم ، بل كانوا يجلسون فى مجلس واحد على بعد ذراعين من القاضى الذى كان يقوم أعوانه بين يديه بتنظيم مجلس القضاء(٦) . وقد عنى سلاطين المماليك عناية خاصة بمعاملة المتقاضين معاملة تنطوى على المساواة حتى انهم كانوا ينصون على ذلك فى تقاليد القضاة .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٢ ؛ القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٢٧ .
(٢) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٤٩ أ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٠١ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ص ٢٩٩ أ ؛ المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٧٢ — ٧٧٣ . اقرأ نص « وصية قاض » فى العمرى : التعريف ص ١١٦ — ١٢٣ .
(٤) راجع صفحة ٣٥٩، ٣٦٠ من هذا الكتاب .
(٥) عرنوس : تاريخ القضاة ص ١٣٦ .
(٦) عرنوس : نفس المصدر ص ١٣٧ — ١٣٩ .

مساعدو القاضي :

وإذا جلس القاضي للحكم ساعده على تنظيم قاعة الجلسة عدد من الموظفين ، نذكر منهم : الجلواز وحاجب القاضي والأعوان والعدول والأمناء والكاتب والترجمان . فالجَلْواز[١] يقوم بحفظ النظام وترتيب الخصوم بحسب حضورهم ومنعهم من التقدم إلى القاضي في غير دورهم ويلزمهم مراعاة الآداب في مجلس القضاء ، وكان يحمل بيده سوطاً يقرع به كل من يحاول الخروج على النظام . وكانت الأمانة أهم صفاته حتى لا يجد الخصوم سبيلا إلى التأثير فيه عن طريق الرشوة[٢] .

ومن أعوان القاضي « حاجب القاضي » ومهمته حراسة باب القاضي وطلب الإذن منه للزائرين سواء أكانوا من أرباب القضايا أم من غيرهم[٣] .

وكان للقاضي موظفون يطلق عليهم اسم « الأعوان » . ومهمتهم إحضار الخصوم إلى المحكمة والقيام بين يدي القاضي عند نظره في القضايا احتراماً لمركزه . ويراعى في اختيار أعوان القاضي أن يكونوا من أهل الصلاح والتقوى حتى يعاملوا الناس بالرفق واللين في غير ضعف ولا تقصير[٤] .

ومن أعوان القاضي أيضاً « العُدُول » ويقومون بالشهادة ويراجعون السجلات والعقود للوقوف على مبلغ دقتها ومطابقتها للشرع وتزكية الشهود الذين يشهدون عند القاضي لأن القاضي إنما يحكم بالبينة التي تحضر أمامه وليس له أن يلزم المدعى إحضار من يزكي شهوده . ويشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون عادلا نزيهاً ملماً بأحكام الفقه . أما القاضي فمن واجبه أن يتصفح أعمال هؤلاء العدول ويتحقق من حسن سيرتهم ليطمئن إلى عدالتهم وخصوصاً بعد أن اتسعت رقعة الدولة المملوكية . ولم يجد القضاة بداً من الاعتماد على شهادة العدول . وهذه الوظيفة ليس لها وجود الآن في المحاكم المصرية[٥] .

ويقوم « الأمناء » بحفظ أموال اليتامى والغائبين . وكانوا يُبالغون في القيام بهذه الوظيفة فيرعون حق اليتامى ويحفظون أموالهم ويدفعون نفقاتهم إلى أمهاتهم ، ويحولون دون اقتراض القضاة أو غيرهم شيئاً من هذه الأموال . ويقول تاج الدين السبكي : « ومن أحوج أم اليتيم أن ترددت إلى بابه لأخذ نفقة اليتيم من ماله فقد ظلم ظلماً عظيما »[٦] . وكان الدافع إلى

---

(١) الجلواز — « جمعه جلوازه لجلوزتهم وهي شدة سعيهم بين يدي الأمير وهو بمعنى الشرطي » . وكان يطلق عليه كذلك أسماء أخرى منها صاحب المجلس والعوين محيط المحيط .

(٢) عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٣) تاج الدين السبكي : معيد النعم ص ٨٦ .

(٤) عرنوس : نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٥) عرنوس : نفس المصدر ص ١٣١ — ١٣٢ و ١٣٤ .

(٦) معيد النعم ص ٨٧ .

استحداث نظام « الأمناء » فى المحاكم المصرية أن أبدى بعض القضاة امتدت إلى مال اليتامى ، فقد روى ابن بطوطة أن شرف الدين عبد الرحيم قاضى أسيوط فى عهد السلطان الناصر محمد كان يُلقب « حاصل ما تمّ » لأنه كان إذا أناه أحد اليتامى يطلب شيئاً من استحقاقه قال له « حاصل ما تمّ » أى لم يبق من المال المتحصل باسمه شىء ، فلزمه ذلك اللقب »(١) . ولا شك أن هذه الحوادث ونظائرها قد تكررت مما دعا إلى التفكير فى منع القضاة من الإشراف على أموال اليتامى ومنح « الأمناء » وحدهم السلطة الكافية للمحافظة على هذه الأموال .

ومن أعوان القاضى « كاتب المجلس » ، ويقوم بكتابة الدعاوى ويجب أن يتوافر فى هذا الموظف شروط منها : العلم بالفقه الاسلامى والعفة والصلاح والأمانة حتى لايحذف أو يختصر فى كلام الخصوم(٢) . ويَشترط فيه القاضى تاج الدين السبكى معرفته « بمدلولات الألفاظ العرفية واللغوية وأن يكون حسن الفهم عن اللافظين من العوام الواقفين والمقرّين وغيرهم وأن ينبه كل لافظ على ما لعله يشك فى إرادته له »(٣) .

كما كان يعاون القاضى أيضاً « تَرجُمان » ينقل إليه أقوال المتقاضين الذين لايتكلمون العربية ، كما ينقل إليهم أقوال القاضى وأسئلته . ويشترط فيه أن يكون مسلماً أميناً لا يحرف الكلم عن مواضعه بل ينقله بتحفظ ودقة(٤) .

السلطات القضائية الأخرى :

غير أن سلطة هؤلاء القضاة الأربعة ونوابهم كانت مقصورة على المدنيين(٥) ، أما الجيش المملوكى فكان له قضاة مختصون بشئون العسكر ، وكان الواحد منهم يُعرف باسم « قاضى العسكر »(٦) . وكان عددهم ثلاثة : أحدهم شافعى ، والثانى حنفى ، والثالث مالكىّ . وأحياناً كان يوجد قاض حنبلى ، ولكن الغالب خلو منصب قاضى العسكر من الحنبلى : إما لعدم وجود رجل من الحنابلة يصلح لهذا المنصب ، وإما لعدم وجود حنابلة فى الجيش المملوكى . ولا يبعد أنه أضيف ما عساه يوجد من قضايا الجنود الحنابلة إلى القاضى الحنبلى العام بالديار المصرية .

وكان هؤلاء القضاة يحضرون مع القضاة الأربعة بدار العدل ، ولكن مجلسهم كان دون

---

(١) تحفة النظار ج ١ ص ٢٨ .

(٢) عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٣٩

(٣) معيد النعم ص ٢٥ .

(٤) عرنوس : نفس المصدر والصفحة .

(٥) استمر نظام العمل بقضاة المذاهب الأربعة حتى سنة ٩٢٧ هـ أى بعد الفتح العثمانى لمصر ، وانحصر منذ ذلك التاريخ فى مذهب أبى حنيفة . وما زال هذا المذهب حتى الآن هو المذهب الرسمى فى القضاء الشرعى .

(٦) اقرأ نص وصية قاضى العسكر فى العمرى : التعريف ص ١٢٣ — ١٢٤ .

هؤلاء القضاة . وكانوا يصحبون السلطان فى أسفاره[١] . ولم يكن لقضاة العسكر ولاية على غير العسكر ، ومن يتصل بهم من الصناع والعمال وغيرهم ، فقد كانوا يفصلون فى القضايا الخاصة بالعسكر أو التى تقوم بين العسكر والمدنيين . فاذا ما أراد العسكرى أن يتحاكم إلى قاضى العسكر جاز ذلك على الاختلاف بين أبى يوسف ومحمد بن الحسن صاحبى أبى حنيفة فى أن العبرة بمحل المدعى أم المدعى عليه عند تعدد القضاة [٢].

ويلى قضاة العسكر فى الأهمية مفتو دار العدل ، وهم أربعة ، يختار كل واحد منهم من مذهب [٣]. ويختلف اختصاص هؤلاء عن اختصاص القضاة ، فانهم لا يفصلون فى خصومات المدنيين والعسكريين ، وانما يبينون حكم الشرع فيما يسألون فيه من المسائل ، كل على حسب مذهبه . وبهم يستنير الطريق أمام القضاة عند نظرهم القضايا ، كما يتبين أفراد الشعب أحكام دينهم ويعرفون ما أشكل عليهم من مسائله [٤] . ولسنا نعرف هل كان مفتو دار العدل يجلسون مع القاضى عند النظر فى القضايا أو كان لهم مقر خاص يرسل إليه القاضى ما يشكل عليه من المسائل طالباً رأيهم فيها . ولكننا نرجح الوجه الأخير .

وبجانب هذه السلطة القضائية الممثلة فى قضاة القاهرة والأقاليم وقضاة العسكر توجد سلطتان أخريان للمحتسب ووالى القاهرة . فالمحتسب ينظر فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام ، كما كان يقضى فى الجنايات التى تستدعى السرعة فى الفصل فيها . فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وأما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة[٥]، ومراعاة أحكام الشرع . فهو يحاكم كل من يثبت عليه أنه غش فى المأكولات بأن أوهم الناس أن لحم الكلاب أو لحم الخنازير لحم ضأن ، ومن أدخل فى المشروبات خمراً . وقد أجمل قاضى القضاة تاج الدين السبكى المسائل التى يشتد فيها المحتسب ولا يتهاون ، فقال : « وعليه النظر فى القوت ، وكشف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم إليه من ذلك ، والاحتراز فى المشروب فربما أوهم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ . انظر أيضا Demombynes : La Syrie. p. LXXVII.

(٢) بقيت وظيفة « قضاة العسكر » فى السلطنة المصرية إلى أن دخلت مصر تحت الحكم العثمانى ، فأصبح قاضى العسكر هو القاضى التركى الذى جاء مع الجيش الفاتح . عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٠٠

(٣) كان مذهب مالك أكثر المذاهب الاسلامية انتشاراً بمصر فى فجر الاسلام ، وكاد يصبح المذهب السائد فى مصر ، حتى قدم الامام الشافعى إلى الفسطاط سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) فالتف حول الشافعى أتباع من المصريين وبدأ مذهبه فى الانتشار فيها . أما مذهب أبى حنيفة فلم يصب بعض الانتشار فى مصر إلا قبيل الدولة الطولونية .

راجع كتاب « نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة » لأحمد تيمور باشا (المطبعة السلفية) .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٦ .

(٥) راجع كتاب النظم الاسلامية ص ٣٥٤ للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن .

الخمار أنه فُقّاعى أو أقساماوى ، والمأكول فطالما أوهم الطباخ أن لحم الكلاب لحم ضأن ، فليتق الله ربه ولا يكون سبباً فى إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث » (١) . أما والى القاهرة فينفذ الأحكام ، ويقيم الحدود ، ويتعقب المفسدين ومثيرى الفتن ومدمنى الخمر ، ويحاكم كلا من هؤلاء على حسب جريمته .

وقد امتد مبدأ توزيع منصب القضاء إلى الاسكندرية ، فعين السلطان لها ثلاثة قضاة : أحدهم مالكى ويختص بالنظر فى الأوقاف وأموال الأيتام (٢) ، وقاضى شافعى يفصل فيما يعرض عليه من القضايا المدنية والجنائية (٣) ، والقاضى الثالث حنفى ولم يعرف إلا فى دولة السلطان شعبان أى فى أواخر القرن الثامن الهجرى وكان ينظر فيما ينظر فيه القاضى الشافعى (٤) . وقد ذكر ابن بطوطة أن من أشهر قضاة الاسكندرية حين زيارته لها سنة ٧٢٩هـ القاضى عماد الدين الكندى الذى وصفه بأنه « من أئمة علم اللسان » (٥) . وكان يعين أيضاً قضاة فى كل من ثغرى دمياط ورشيد ، وكان لهم من الاختصاصات ما لقضاة الأقاليم . ولا يخفى أن قضاة الاسكندرية كانوا أهم القضاة ، لما لهذا الثغر من أهمية .

أما القضاء للطوائف غير الاسلامية فى مصر فى دولة المماليك فكان موكولا إلى رجال من طوائفهم يفصلون فى أحوالهم الشخصية من زواج وطلاق ووقف ونحو ذلك على حسب شرائعهم ونحلهم . ولا تحكم بينهم المحاكم المصرية إلا إذا طلبوا التحاكم إليها والقضاء طبق مبادئها .

ملابس القضاة :

وكانت الطرحات من مميزات لباس قضاة القضاة فى عصر المماليك بمصر . وكانت الطرحة والعمامة والشاش تصنع كلها من قماش أسود . وفى القلقشندى وصف دقيق لأزياء أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء فى ذلك العصر وهاك نصه : « ويختلف ذلك (أى لباس رجال الدين) باختلاف مراتبهم ، فالقضاة والعلماء منهم يلبسون العمائم من الشاشات

---

(١) معيد النعم ص ٩٢ .

(٢) اقرأ نص تقليد وجيه الدين محمد بن عبد المعطى الاسكندرى المالكى منصب القضاء بثغر الاسكندرية . القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٠٨ — ٤١١ .

(٣) اقرأ نص تقليد علم الدين الأخنائى الشافعى منصب القضاء بثغر الاسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤١٢ — ٤١٤ .

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٤٢ .

(٥) تحفة النظار ج ١ ص ١٠ .

الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه[١] إذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقاً متسع الأكمام طويلها ، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه . ويتميز قضاة القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصاً بالشافعي . ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه ، من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار . وليس فيهم من يلبس الحرير ، ولا ما غلب فيه الحرير ، وإن كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطى ، ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات ، ويلبسون الخفاف الأديم الطائفي بغير مهامين »[٢].

وذكر ابن بطوطة فيما شاهده من أزياء القضاة في مصر أن قاضي الاسكندرية عماد الدين الكندي كان يلبس عمامة تخالف غيرها من العمائم المعتاد لبسها إذ ذاك ، وقال : « لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب »[٣] .

وكان راتب القاضي في الشهر يبلغ خمسين ديناراً عدا ما كانوا يحصلون عليه من الأوقاف التي كانوا يتولون إدارتها ، وما يجرى عليهم من الغلال والشعير والخبز واللحم والكسا [٤] .

بعض مشاهير القضاة في العصر المملوكي :

وكثيراً ما كان القضاة في دولة المماليك البحرية يصطدم بالسلطات التنفيذية والادارية ، بل كثيراً ما كانوا يجدون أنفسهم في مواقف مخالفة لرغبات السلاطين . ولكنهم كانوا يقفون مواقف مشرفة ويصرون على تنفيذ الحق ، ولو أدى ذلك إلى معارضة السلاطين والمقربين إليهم من الأمراء والوزراء وغيرهم من كبار الموظفين . فكانوا بذلك مثلا أعلى في نقاء السريرة وطهارة الذمة . وبذلك لم يخل هذا العصر من قضاة ضربوا أحسن الأمثال في حسن السريرة والتفقه في الدين والمحافظة على هيبة ذلك المنصب الخطير وعدم التفرقة بين الناس أو التأثر في أحكامهم بوساطة ذوي الجاه والنفوذ .

---

(١) القربوس : حلقة عنان الدابة . لسان العرب و Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤١ — ٤٢ . انظر كذلك

Demombynes : La Syrie, p. XCIII.

راجع R. Dozy : Dictionnaire Detaillé des Noms des Vêtéments chez les Arabes لتفسير أسماء الملابس الواردة في هذا النص : طيلسان ص ٢٧٨ — ٢٨٠ ودلق ص ١٨٣ — ١٨٥ وفرجية ص ٣٢٧ — ٣٣٤ .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ١٠ .

(٤) المقريزي : الخطط . ج ٢ ص ٢٢٤ .

وأحسن مثل للتدليل على صحة ما نقول القاضى عبد العزيز المعروف بعز الدين بن عبد السلام[١] (سلطان العلماء) . فقد روى السيوطى أنه فى سنة ٦٣٩ هـ «ولى الشيخ عز الدين بن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلى وكان قدم فى هذه السنة من دمشق بسبب أن سلطانها الصالح اسماعيل استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف . فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك له الدعاء فى الخطبة وساعده فى ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكى ، فغضب السلطان منهما ، فخرجا إلى الديار المصرية ، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين وهو فى الطريق قاصداً يتلطّف به فى العود إلى دمشق . فاجتمع به ولاينه وقال له : ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير . فقال الشيخ له : يا مسكين ! ما أرضاه يقبّل يدى فضلا عن أقبّل يده . يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد ، والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكم »[٢] . وان هذه الحادثة لتدل على قوة نفس الشيخ عز الدين وأنه لا يصانع أحداً فى الحق ولو كان أميراً أو سلطاناً .

ومن قضاة مصر ذوى الشخصية البارزة والمكانة الممتازة فى دولة المماليك البحرية تقى الدين عبد الرحمن الشافعى ابن بنت الأعز . تولى هذا القاضى القضاء فى الوجه القبلى فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥ هـ فى عهد السلطان قلاوون ، وأطلق عليه اسم « شيخ الشيوخ » تعظيما لقدره ، ونُقل إلى قضاء القاهرة بعد قليل ، وولى الوزارة مضافة إلى القضاء سنة ٦٨٧ هـ . ولكنه ما لبث أن صرف عن الوزارة وحل محله شمس الدين بن السلعوس ، وكان يكره القاضى تقى الدين ، فعزله عن القضاء ، ولكنه أعيد إلى منصبه بعد قليل . وظل يباشر شئون القضاء حتى طلب منه الوزير ابن السلعوس أن يعين نجم الدين بن عطايا فى أحد الوظائف ، وكان هذا الشخص من أتباع الوزير ، فرفض القاضى تقى الدين طلبه ، فأسرّها له ابن السلعوس ، فلما مات السلطان قلاوون وتولى ابنه خليل سلطنة مصر ، صرف تقى الدين عن منصب القضاء وجرده من سائر ما بيده من المناصب . ولم يكتف هذا الوزير بذلك ، بل حرّض عليه بعض الناس بالشهادة ضده « بأمور منكرة حتى ان جملتها كان خمسين قادحاً »[٣] . وما زال ابن السلعوس يتعقب تقى الدين حتى تقررت محاكمته وسماع البيّنة عليه وتنفيذ حكم الشرع فيه . فعقد له مجلساً وأدلت الشهود بأقوالها ضده . وبعد ذلك قام القاضى تقى الدين وخطب الحاضرين فى عبارة مؤثرة دفاعاً عن نفسه وتبرئة لشخصه مما رماه به ابن السلعوس ، فقال بعد أن ذكر اسمه وأوضح نسبه : « ليس فىّ نسب بطرس ولا جرجس ، وإذا ادعوا أنى أشرب الخمر أو

---

(١) انظر السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ٨٠ — ٨١ حيث تجد ترجمة القاضى عز الدين بن عبد السلام .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٧٢ ؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ٦٤ .

أزنى ، بما يقبل من أجل شهوة النفس ، ولكن شدة الزنار ، والتكلم بالكفر من أين وإلى أين ومن الذى لى فيه من اللذة »[١]. عند ذلك بكى هذا القاضى وابتهل إلى الله تعالى أن يتولى عقاب من نسب اليه هذه التهم زورا وبهتاناً ، وبكى الأمراء الحاضرون ودخلوا على السلطان وقالوا له : « إن لوائح التعصب ظهرت ، وأن القاضى برىء من ذلك » .

وهنا اختلف المؤرخون فيما حل بهذا القاضى بعد ذلك . فأورد ابن حجر العسقلانى أن السلطان خليل أمر بإطلاق سراحه مع عزله عن منصبه [٢] ، ولم يشر إلى ما حل به من العقوبات التى ذكرها المقريزى ، فقد قال : « إن السلطان رسم أن يركب حماراً ويشهّر .[٣] فقبض عليه الوزير ونكل به ، ورسّم عليه وطالبه بمال كثير ، وشنع فى إهانته وأراد ضربه ، فجاه الله منه » [٤] .

إلا أن الأمر لم يقتصر على ذلك ، فقد شرح المقريزى ما نال هذا القاضى من الاهانات البالغة على أثر دسائس الوزير ابن السلعوس والتهم الشائنة التى رماه بها . فقال : « وما زال ابن بنت الأعز فى الاحنة إلى أن أخذ يوماً بالترسيم إلى القلعة وهو ماش والأعوان تحتاطه ، فرأى ثلاثة من خواص الأمراء نازلين من القلعة ، فقال لهم : يا أمراء ! أما تنظرون فى حالى وما أنا فيه من الاحنة مع هؤلاء الرسل ؟ فساءهم ذلك وجردوا دبابيسهم [٥] يريدون ضرب الرسل ، وقالوا : قاضى القضاة ماش ، وأنتم ركاب ؟ فقالوا : الصاحب أمرنا بهذا ، ما لنا ذنب ولا نريد هذا الفعل ، فشق عليهم ما رأوا وعادوا إلى السلطان ، وألقوا سيوفهم وقالوا : يا خوند ! قد بلغ الأمر من حال قاضى القضاة أن يمشى والرسل ركاب ، وذكروا ما هو فيه من الاهنة » [٦] . وتكلموا فى ذلك أيضاً مع الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة فتوسط له عند السلطان حتى أمر بالافراج عنه .

وعقب ذلك أقام ابن بنت الأعز بزاوية الشيخ نصر المنجى (خارج باب النصر) حتى قام بسداد ما فرض عليه من المال الذى بلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار ، فدفعه بعد أن « باع ورهن واقترض »[٧]. وقد أدى هذا القاضى فريضة الحج ، وهناك أنشد قبالة المنبر قصيدة طويلة شكا فيها مما أصابه من الاهانات المتتابعة ، ودعا الله تعالى أن ينتقم ممن أهانوه

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٧٧٢ .

(٢) ابن حجر : رفع الاصر ص ١١٤٩ .

(٣) راجع صفحة ٣٧٦ من الكتاب حيث تجد وصفاً لطريقة التشهير عند المماليك .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ورد ذكر لفظ « الدبابيس » فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٣) فذكر أن سلار وبيبرس أمرا باستعمال الدبابيس فى تفرقة الجموع المحتشدة أمام القلعة لحماية الناصر محمد سنة ٧٠٨ هـ (١٠٣٧ م) . والدبوس هراوة مدملكة الرأس .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٧٧٢ — ٧٧٣ .

(٧) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٧٧٢ — ٧٧٣ . السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٠ .

ودسوا له ، فما لبث أن بلغه خبر مقتل السلطان خليل بن قلاوون ووزيره ابن السلعوس ، فأعيد إلى منصبه سنة ٦٩٣ هـ ، وظل يباشر القضاء حتى توفى فى ١٧ رجب سنة ٦٩٥ هـ عن إحدى وخمسين سنة(١) .

ومن أبرز قضاة مصر فى دولة المماليك البحرية القاضى تقى الدين محمد بن دقيق العيد المولود فى ١٥ شعبان سنة ٦٢٥ هـ . وقد ولى القضاء سنة ٦٩٥ هـ وسنه سبعون سنة بعد وفاة القاضى تقى الدين ابن بنت الأعز . وهو مثال للعدل والانصاف وطهارة الذمة ونصرة الحق . يدل على ذلك ما رواه المقريزى من أن منكوتمر نائب السلطنة فى عهد السلطان لاچين وصاحب الحظوة الكبرى لديه بعث إلى ابن دقيق العيد يبلغه أن تاجراً قد مات وترك أخاً ولم يخلف غيره ممن يرثه ، وأراد أن يثبت استحقاقه الارث بمجرد إبلاغه عنه . فلم يوافق القضاة على ذلك ، واستمرت رسل منكوتمر تفد على دار القاضى للتأثير فيه دون جدوى ، وأخيراً بعث إليه منكوتمر الحاجب كرت . ويقول المقريزى : «فلما دخل كرت وقف بعد ما سلم ، فقام له القاضى نصف قومة وردّ عليه السلام وأجلسه . وأخذ كرت يتلطف به فى إثبات أخوة التاجر بشهادة منكوتمر ، فقال له قاضى القضاة : وماذا ينبنى على شهادة منكوتمر ؟ فقال له : يا سيدى ! ما هو عندكم عدل ؟ فقال : سبحان الله . . وكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال : والله متى لم تقم عندى بيّنة شرعية ثبتت عندى ، وإلا فلا حكمت له بشىء باسم الله . فقام كرت وهو يقول : والله هذا هو الإسلام»(٢) .

ولما عاد كرت إلى منكوتمر ، أبلغه ما قاله ابن دقيق العيد ، وصوّب له الاجتماع به حين حضوره إلى دار العدل . فلما جاء ميعاد اجتماع القضاة بدار العدل ، مر هذا القاضى عليها دون أن يدخلها ، فأسرع اليه الحجاب واحداً بعد واحد ينادونه ويقولون له : « يا سيدى ! الأمير ولدك يختار الاجتماع بك لخدمتك » فلم يلتفت إلى أحد منهم ، ولما ألحوا عليه قال لهم : « قولوا له ما وجبت طاعتك علىّ » ، والتفت إلى من معه من القضاة ، وقال : « أشهدكم إنى عزلت نفسى باسم الله ، قولوا له يولّ غيرى » . وعاد إلى داره(٣) .

وإذا كان منكوتمر نائب السلطنة قد حاول التأثير فى ذمة القاضى على هذا النحو ، فان السلطان لاچين الذى كان معروفاً بالتدين وإقامة الصلوات ومداومة الحضور إلى دار العدل للفصل فى الظلامات ، لم يقر نائبه على ذلك ، وبعث إلى قاضى القضاة يستدعيه للاعتذار إليه عما حدث . ومما يرويه لنا المقريزى عن استقبال السلطان لاچين لهذا القاضى تتبين مدى تقشف هذا القاضى وزهده واعتداده بنفسه وعظم مكانته لدى السلطان وتقديره لكفايته

---

(١) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٤٩ أ — ١٥٠ ب — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٢٣ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٨ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٩ .

الدينية والقضائية : « وبعث إلى القاضي يعتذر إليه ويستدعيه . فأبى واعتذر عن طلوعه ، فبعث إليه الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود والطواشي مرشداً . فما زالا به حتى صعدا به إلى القلعة . فقام إليه وتلقّاه ، وعزم عليه أن يجلس في مرتبته فبسط منديله — وكان خرقة كتان خَلَقة — فوق الحرير قبل أن يجلس ، كراهةَ أن ينظر إليه ، ولم يجلس عليه[١] . وما برح السلطان يتلطّف به حتى قبل الولاية[٢]. ثم قال له : يا سيدى ! هذا ولدك منكوتمر خاطرك معه . ادعله وكان منكوتمر ممن حضر ، فنظر إليه قاضي القضاة ساعة ، وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول : منكوتمر لايجيء منه شيء وكررها ثلاث مرات ، وقام[٣]. فأخذ السلطان الخرقة التي وضعها على المرتبة تبركا بها ، وتفرقها الأمراء قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركتها »[٤].

ومما يدل على عظم مكانة هذا القاضي العادل وهيبته في النفوس ، تلك الحادثة التي يرويها لنا السيوطي ، فقد ذكر أن ابن دقيق العيد حضر مرة عند السلطان لاچين ، فقام إليه السلطان وقبّل يده ، فلم يزد على قوله : « أرجوها لك بين يدى الله تعالى »[٥] .

وقد أشاد النويري بفضل هذا القاضي الشهير عند توليته منصب قاضي القضاة سنة ٦٩٥ هـ فقد كان يستقصي أخبار نوابه بجميع الأقاليم ، كما كان يذكرهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات من عواقب الغفلة والإهمال[٦] . ومن أهم الكتب كتابه إلى المخلص البهنسي قاضي أخميم سنة ٦٩٧ هـ [٧] وفي سنة ٧٠٢ هـ توفي القاضي ابن دقيق العيد وهو في منصب قاضي القضاة[٨] .

---

(١) ذكر السيوطي (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠١) صراحة أن هذا القاضي « امتنع من لبس الحلمة (من الحرير) وأمر بتغييرها إلى الصوف فاستمرت الى الآن » .

(٢) ذكر السيوطي (نفس المصدر والجزء ص ١٠١) ان القاضي ابن دقيق العيد قبل منصب قضاء القضاة « بعد امتناع شديد حتى قالوا له إن لم يفعل ولوا فلانا أو فلانا لرجلين لايصلحان للقضاء فرأى أن القبول واجب عليه» . وهذا يبين لنا عظم مكانة هذا القاضي حتى ألحوا عليه أولا وآخراً في قبول منصب قضاء القضاة والاستمرار فيه .

(٣) كان منكوتمر مكروها لدى أمراء مصر حتى انهم أخذوا على السلطان لاچين — قبل أن يحلفوا له — ميثاقا بألا يولية أي منصب من مناصب الدولة . ولكن ما لبث لاچين أن عينه نائبا للسلطنة فطغى وبغى . وها هو قاضي قضاة مصر ينضم إلى أمرائها في رأيهم في هذا الأمير . وقد صدق حدس هؤلاء جميعا إذ كان تعيينه في منصبه إيذانا بزوال حكم لاچين .

(٤) المقريزي : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٩ .

(٥) السيوطي : نفس المصدر والجزء ص ١٠١ .

(٦) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١١ ا .

(٧) اقرأ نص كتاب القاضي ابن دقيق العيد إلى نائبه المخلص البهنسي قاضي اخميم في المقريزي : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٤٨ حاشية للدكتور زيادة نقلا عن النويري : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٨) اقرأ كتاب طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ج ٦ ص ٢ — ٢٢ حيث تجد ترجمة وافية للقاضي تقي الدين بن دقيق العيد .

ومن الأدلة على نزاهة القضاء واستقلاله عن السلطة التنفيذية فى ذلك العصر ما يروى عن القاضى شمس الدين محمد الحريرى من أنه امتنع عن إقرار السلطان الناصر محمد على طلبه وهو إصدار الحكم بشرعية بناء القصر الذى بناه للأمير بكتمر الساقى(١) — وكان أعز أمرائه وأقربهم اليه — وضمّ اليه أرض الميدان الذى أنشأه السلطان كتبغا وجزءاً من بركة الفيل لتوسيع اصطبل الأمير بكتمر الذى بنى بجوار القصر . وقد عبّر المقريزى عن إعجابه بموقف هذا القاضى الذى ينطوى على النزاهة والاستقامة وسمو الخلق بقوله : « فامتنع من ذلك تنزهاً وتورعاً واجتمع بالسلطان وحدثه فى ذلك . فلما رأى كثرة ميل السلطان إلى أخذ الأرض نهض من المجلس مغضباً وسار إلى منزله »(٢) .

وكثيراً ما كان القضاة يُبادرون إلى تقديم استقالتهم من مناصبهم إذا تعرض أحد لكرامتهم أو اعتدى على استقلالهم ، كما كانوا لا يقبلون الرشوة ولا الهدية . ولقد أصبح لهؤلاء القضاة مقام كريم فى الدولة المصرية وفى نظر السلاطين ونظر الأمراء وجميع طبقات الشعب حتى انه ما كان يتم انتخاب الخليفة أو السلطان إلا بحضور قاضى القضاة وشهادته بصحة نسبه واستحقاقه لتقلد منصبه الجليل . وكان كثير من هؤلاء القضاة يتولون إدارة الأوقاف الخاصة بالسلطان وأمراء دولته ويحولون دون تصرف من يخلفهم تصرفاً يضر بالغرض الذى وقفت هذه الأوقاف من أجله حتى لقد بقيت هذه الأوقاف من بعدهم أزماناً طويلة يصرف ريعها على وجوه البر التى حبست عليها .

وعلى الرغم مما عرف عن معظم قضاة ذلك العصر من النزاهة والاستقامة ، فقد ظهر بعض قضاة ساروا فى أحكامهم وفق رغبات السلطان والأمراء . فان القاضى سراج الدين الحنفى الذى تقلد قضاء مصر فى عهد السلطان الناصر (٧١٩ هـ) قد حكم بشرعية الأرض التى رأى السلطان إدخالها إلى الأرض التى بنى عليها السلطان قصر الأمير بكتمر الساقى والتى لم تكن ملكا للسلطان على الرغم من رفض سلفه شمس الدين الحريرى إقرار هذا التصرف على ما بيّنا(٣).

ومن ذلك أيضاً أن الأمير قوصون(٤) اعتزم فى سنة ٧٣٣ هـ الاستحواذ على ذلك القصر

---

(١) أورد Mayer : Saracenic Heraldry, p. 48 ألقاب بكتمر الساقى كما يلى :
« المقر الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى الغازى المجاهدى المرابطى المثاغرى العونى الذخرى الهمامى الكفيلى الشهابى ولد المقر السيفى بكتمر الساقى الملكى الناصرى » .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٦٨ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .

(٤) أورد أبو المحاسن (المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٤ ب) ترجمة حياة الأمير قوصون فقال : « قوصون بن عبد الله الناصرى الساقى ابن الأمير سيف الدين . كان أكبر مماليك الملك الناصر محمد ابن قلاوون وأعظمهم هو وبكتمر الساقى . رقاه الملك الناصر وزوجه بابنته وهى ثانية بنت زوجها =

الفخم الذى بناه الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى[1] وآل إلى ورثته بعد موته وأشهد على وقفه اثنين وتسعين من العدول ، من بينهم تقى الدين ابن بنت الأعز وابن دقيق العيد وقد تقلد كل منهما منصب قاضى القضاة فيما بعد . وما زالت تلك الدار بيد هؤلاء الورثة حتى طمع فيها قوصون ووافقه على ذلك السلطان الناصر محمد وأذن له أن يتكلم فى شأنها مع ورثة الأمير بَيْسَرى فأرسل إليهم قوصون ومناهم الأمانى الجميلة وما زال بهم حتى أذعنوا لمشيئته . وهنا يتضح لنا فساد ضمائر بعض قضاة ذلك العصر ، فقد طلب هذا السلطان إلى قاضى القضاة شرف الدين الحرانى الحنبلى أن يحكم بجعل تلك الدار من أملاك الأمير قوصون فأجابه إلى ذلك فى الحال وشهد ببيعها . وكان ذلك الحكم سبباً فى عدم ثقة الناس بذمة هذا القاضى

= الملك الناصر لمماليكه فى صنة ٧٢٠ هـ وكان له عرس حفل احتفل به الملك الناصر وحمل الأمراء التقادم اليه فكانت خمسين ألف دينار . وكان قوصون ممن حضر إلى القاهرة صحبة بنت أزبك خان وهو غير مملوك ، لكنه طلع الى القلعة يوما مع بعض التجار فرآه السلطان فأعجبه فقال لأى شىء ما تبيعنى هذا . فقالوا ما هو مملوك . فقال الملك الناصر لا بد أن أشتريه ووزن مبلغ ثمانية آلاف درهم وجهزت إلى أخيه صوصون إلى البلاد . ثم أنشأه ورقاه إلى أن جعله أمير مائة ومقدم ألف وعظم عند الملك الناصر وحظى عنده حتى صار بمكانة بكتمر الساقى . ولما كان يقع بين بكتمر وقوصون يقول قوصون : انا ماتنقلت من الاصطبلات إلى الطباق بل اشترانى السلطان وصرت عنده مقربا حتى صرت من أعظم الأمراء » وفى دار الآثار العربية لوح من الخشب (رقم السجل ٧٨٥٠) عليه كتابة نصها « مما أمر بعمله بالأمر الشريف السلطانى الملكى الناصرى ناصر الدنيا والدين محمد عز الله أنصاره المقر العالى الأميرى السيفى قوصون الناصرى تقبل الله إيساره وأحسن آثاره فى أواخر شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة » انظر :

J. David—Weill : Catalogue Général du Musée Arabe du Caire, Bois à Epigraphes, tome II, pp. 96—98.

وهو صاحب مسجد الأمير قوصون بالسروجية الذى شيد سنة ٧٣٠ هـ . وعليه الكتابة الآتية : « أمر بانشاء هذا الجامع المبارك بكرم الله تعالى العبد الفقير إلى الله تعالى قوصون الساقى الملكى الناصرى فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر أعز الله أنصاره وذلك سنة ثلاثين وسبعمائة .

Van Berchem : Corpus, p. 180.

ومن ألقابه : « المقر العالى المولوى المالكى المخدومى السيفى قوصون الساقى الملكى الناصرى » انظر :
Mayer : Saracenic Heraldry, p. 186 – 187.

(١) كان بيسرى أحد مماليك السلطان الصاحب نجم الدين أيوب ، ووصل إلى مرتبة أمير مائة مقدم ألف فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وسجن فى عهد بركة خان بن بيبرس ، ولكن شأنه ارتفع فى عهد سلامش بن بيبرس وصار من أقوى أمراء مصر . إلا أنه ما لبث أن سجن فى عهد السلطان قلاوون ، وتكررت مرات سجنه وإطلاق سراحه فى عهد قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل ، حتى توفى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) فى عهد السلطان الناصر محمد ، وعمره سبعون سنة . ومن ألقابه : « المقر الكريم المرابطى المثاغرى المؤيدى المظفرى المنصورى البدرى بدر الدين بيسرى الظاهر السعيدى الشمسى » . راجع Mayer : Saracenic Heraldry, P. 112.

وشكهم فيما يصدره من أحكام(١) .

وقد فسدت نفوس بعض قضاة مصر فى عصر المماليك إلى حد كبير . والقاضى الحسن بن محمد بن الغورى السداد المعروف باسم حسام الدين من أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى . وُلد حسام الدين فى بغداد حيث تقلد الحسبة ثم تولى القضاء وفى صفر سنة ٧٣٨ هـ استدعاه السلطان الناصر محمد إلى مصر حيث قلده قضاء الحنفية . وقد وصفه ابن حجر العسقلانى بعبارة تتبين منها إلى أى حد تدهورت أخلاق هذا القاضى ، فضلا عن عدم إلمامه بالفقه وعجزه عن الكلام ، فقد « كان كثير المزاح والهزل والسخف وبذاءة اللسان مع عدم معرفته بالشرط والسجلات وعدم مشاركة فى الفقه وعىّ فى لسانه . وكان يستطيل بمحاورة السلطان له بلسانه التركى ، فكان إذا تكلم بالعربى يقبض لسانه وإذا تكلم معه بالتركى بالغ فى الحط عليهم»(٢). وقد غضب السلطان الناصر على هذا القاضى واتضحت له حقيقة ما انطوت عليه نفسه من الخسة والضعة حين اتصل بمسامعه ما ورد فى كتابه إلى ناظر الدولة معاتباً إياه على تأخير صرف راتبه الشهرى وتطاوله عليه بكلمات مملوءة بالاستهزاء والتحقير مما أثار غضب ذلك الموظف الكبير . وقد حضر هذا القاضى مرة إلى دار العدل ولام الكتبة ووجّه اليهم أفحش السباب ، مما أثار غضب السلطان الذى لام وزيره لأنه أوصى بتوليه ذلك المنصب وصرف هذا القاضى(٣) .

ومن أولئك القضاة جلال الدين محمد القَزْوينى الذى تولى القضاء فى عصر الناصر محمد ، وكان مبجلا معظما عند السلطان إلا أنه اضطر إلى عزله عن منصبه لما اتصف به ابنه جمال الدين عبد الله من سوء السيرة فقد أصاب من القضاء مبالغ طائلة على سبيل الرشوة . وكان كثير اللهو ميالا إلى الترف شرهاً فى جمع المال من أى سبيل وبأية طريقة حتى قيل إنه اقتنى عدداً من الخيول الكريمة ورتّب لها الأوجاقية والركابدارية وسابق بها . وكان شغوفاً بسماع الأغانى فأم الدور لسماع المغنيات وشَرِبَ الخمر وأساء إلى سمعة أبيه . وهكذا وصلت أخلاق جمال الدين بن القزوينى درجة كبيرة من الانحطاط حتى أن السلطان اضطر إلى طرده إلى بلاد الشام . ولكن أباه شفع فيه حتى أعيد فلم يرعو بل شرع بمجرد وصوله إلى القاهرة فى بناء دار على النيل بجوار دار أبيه . ومن الأمور الطريفة فى هذا الصدد مارواه لنا المقريزى من أنه كلف قضاة مصر من نواب أبيه أن يشتركوا فى الاشراف على بنائها وبالغ فى الصرف عليها حتى بلغ ما أنفق فى بناء تلك الدار أكثر من خمسمائة ألف درهم كما أنفق على تجميلها أكثر من مائتى ألف درهم ، وصلت اليه عن طريق الرشوة . وقد بلغ السلطان

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٦٩ .

(٢) ابن حجر : رفع الاصر ص ٨٨ ب — ٨٩ ا .

(٣) ابن حجر : نفس المصدر ص ٨٩ .

الناصر أن قاضى القضاة لا يعين أحداً من نوابه إلا بعد أن يجتمع بأحد أولاده ويقدم اليه مبلغاً من المال . فلما حضر القضاة إلى دار العدل كالعادة « لم يؤذن لهم فى دخوله . وعندما نزلوا بعث السلطان الى القزوينى مع الدوادار بان نائب الشام شكا من ابن المجد قاضى دمشق وقد اقتضى رأيه أن تسافر إلى دمشق قاضياً كما كنت فانه استحيا وجهه منك ومن الأمراء والناس . وكلما أعرفك أن ترجع ابنك عما هو عليه لا ترجعه فاذا حضرت بدار العدل استعف من القضاء بحضرة الأمراء واعلم أنى آمر نائب الشام أنه إذا رأى أولادك على سيرة غير مرضية قابلهم بما يستحقون » (١). وعلى أثر ذلك رحل القاضى القزوينى إلى دمشق .

٣ — النظر فى المظالم

كان السلطان الظاهر بيبرس أول من تولىّ النظر فى المظالم من سلاطين المماليك ، وهو الذى أقام لذلك (سنة ٦٦١ هـ) دار العدل . وكان يجلس بها للفصل فى القضايا فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، يحيط به قضاة المذاهب الأربعة ، وكبار موظفيه الماليين والإداريين وكاتب السر . وكان السلطان بيبرس لا يتخلف عن الجلوس فى دار العدل إلا فى شهر رمضان فقط(٢) .

وقد أتى المقريزى بوصف شامل لجلوس السلطان للفصل فى المظالم بدار العدل ، ومنه نتبين كيف كانت تعقد محكمة المظالم برياسة السلطان ، وكيف كان يجلس أعضاء المحكمة على حسب أقدارهم ومكانتهم ، كما كان يتضح أيضاً مدى اختصاصات هذه المحكمة وطريقة فصلها فيما يعرض عليها من الظلامات . يقول المقريزى : فاذا جلس [السلطان] للمظالم كان جلوسه على كرسى إذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجله وهو منصوب إلى جانب المنبر الذى هو تخت الملك وسرير السلطنة . وكانت العادة أولا أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة عن يمينه وأكبرهم الشافعى وهو الذى يلى السلطان ، ثم إلى جانب الشافعى الحنفى ، ثم المالكى ، ثم الحنبلى ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحسبة بالقاهرة . ويجلس على يسار السلطان كاتب السر ، وقدامه ناظر الجيش ، وجماعة الموقعين المعروفين بكتّاب الدست ، وموقعى الدست تكملة حلقة دائرة . فان كان الوزير من أرباب الأقلام كان بين السلطان وكتاب السر ، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بُعد مع بقية أرباب الوظائف ، وإن كان نائب السلطنة فانه يقف مع أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية ، والجمدارية ، والخاصكية . ويجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعاً

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٢ القسم الخامس ص ٤٦١ — ٤٦٢ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

انظر أيضا Lane— Poole : The Art of the Saracens, p. 24.

عن يمينه ويُسرته ذوو السن والقدر من أكابر أمراء المئين ويقال لهم أمراء المشورة ، ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وهم وقوف وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة . ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية لإعطاء قصص الناس وإحضار الرسل وغيرهم من الشكاة وأصحاب الحوائج والضرورات فيقرأ كتاب السر وموقعو الدست القصص على السلطان ، فإن احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية وما كان متعلقاً بالعسكر فإن كانت القصص فى أمراء الإقطاعات قرأها ناظر الجيش ، فإن احتاج إلى مراجعة فى أمر العسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه وما عدا ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه »[١] .

ولكى نقدم للقارىء صورة عن القضايا التى كانت تعرض على محكمة المظالم نذكر أن السلطان بيبرس جلس لأول مرة بدار العدل فى سنة ٦٦٢ هـ وعرضت عليه قضية ناصر الدين محمد بن أبى نصر الذى شكا من أن بستانه قد اغتصب منه فى عهد السلطان أيبك ، وأخرج كتاباً من ديوان الجيش يثبت صدق روايته ، فأمر بيبرس برد البستان إليه . ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة . فانه فى سنة ٦٦٣ هـ ارتفعت أثمان الغلال حتى بلغ ثمن أردب القمح نحو مائه درهم وندر وجود الخبز ، فذهب السلطان إلى دار العدل وأمر بتخفيض أسعار الغلال ، رحمة بالضعفاء والفقراء والمساكين وغيرهم من الناس[٢] .

وظلت دار العدل مقراً لمحكمة المظالم التى كانت تعقد برياسة السلطان ، حتى جاء السلطان قلاوون سنة ٦٧٩ هـ وبنى « الإيوان » واتخذه مقراً لهذه المحكمة . وبقى كذلك طوال عهده وعهد ابنه خليل الذى أدخل عليه بعض الإصلاحات . واستمر الحال على ذلك حتى هدمه السلطان الناصر محمد سنة ٧٢٢ هـ وأعاد بناءه وزاد فى مساحته وأنشأ به قبة عظيمة وأقام به عمداً جلبها من بلاد الصعيد ونصب فى صدره سرير الملك الذى صنعه من العاج والأبنوس ، وقرر أن يجلس فيه يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع على نحو ما كانت عليه الحال فى عهد السلطان بيبرس[٣] ، إلا أن القضاة وكاتب السر والموقعين لم يكن يسمح لهم بالحضور فى يوم الخميس ، إذ أن السلطان الناصر محمد لم يخصص هذا اليوم للنظر فى الظلامات والشكاوى ولم يكن يستدعى أحداً من هؤلاء إلا للضرورة القصوى[٤] . ويظهر أن السلطان الناصر محمد كان يعقد فى يوم الاثنين الجلسة العامة التى يحضرها جميع أعضاء المحكمة للنظر فى بعض القضايا ،

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٠٦ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٨٣ .

ويخصص يوم الخميس للنظر فى قضايا خاصة لايستدعى الفصل فيها حضور جميع أعضاء المحكمة .

وفى عهد السلطان الناصر محمد تغير ترتيب جلوس قضاة المذاهب الأربعة فى محكمة المظالم عما كانت عليه فى عهد السلطان بيبرس . فأصبح القاضى المالكى يلى الشافعى ، وتأخر القاضى الحنفى عن المالكى فى الرتبة . فلما توفى القاضى شمس الدين الحريرى وتولى مكانه برهان الدين عبد الحق بن الحنفى أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه ، وذكروا له أن العادة جرت بذلك قديماً ، إذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد فأمر السلطان الناصر محمد بذلك . فلما علم قاضى الحنفية بما استقر عليه الرأى غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك ، فأنكر السلطان مغيبه وأمر باحضاره . فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده فيما يلى قاضى المالكية ، ونفذ بذلك أمر السلطان ، واستمر حاله على ذلك(١) .

وقد تغير ترتيب جلوس أعضاء محكمة المظالم مرة ثالثة فى عهد السلاطين من أبناء الناصر محمد وأحفاده فأصبح يجلس على يمين السلطان القاضى الشافعى ، ويليه القاضى المالكى ، ثم قاضى العسكر ، فمحتسب القاهرة ، ومفتى دار العدل الشافعى . ويجلس عن يسار السلطان القاضى الحنفى ، ويليه القاضى الحنبلى . وكذلك تغير نظام العمل بمحكمة المظالم فى يوم الخميس ، فسمح للقضاة وناظر الجيش بالحضور إلى الإيوان فى ذلك اليوم كما أصبحت القصص تقرأ والشكايات تقدم ويفصل فيها أسوة بنظام العمل فى تلك المحكمة فى يوم الاثنين(٢) .

أما فيما عدا يومى الاثنين والخميس ، فقد كان سلاطين المماليك منذ سنة ٧١٣ هـ يجلسون بدار العدل فى القصر الأبلق(٣) الذى بناه السلطان الناصر محمد ، فقد كان يخرج إلى هذا القصر ويجلس فيه تارة على سرير الملك الذى نصب فى صدر إيوان هذا القصر وتارة يجلس دونه على الأرض والأمراء وقوف ، عدا أمراء المشورة والمقربين من السلطان فلم تجر العادة بالسماح لهم بالحضور(٤) .

وكان أمير جاندار(٥) هو الذى يستأذن السلطان فى دخول كبار رجال الدولة إذا جلس

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٢٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥ ؛ المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) بنى السلطان الظاهر بيبرس قصراً فى دمشق سماه « القصر الأبلق » (راجع كتاب التصوير عند العرب لتيمور باشا الذى نشره الدكتور زكى محمد حسن ص ٨ و١٤٧) .

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٥) سبق تفسير هذا اللفظ ومن أشهر أمراء الجندارية الكبار فى سلطنة الناصر محمد الثالثة بلبان طرفا ، وبيبرس الأحمدى ، والدمر الركنى ، ولاچين الابراهيمى ، وبلبان الحسنى ، وأرم بغا ، وأيدمر العلائى الزراق . ولاچين العلائى السلاح دار . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٩ .

فى الإيوان للنظر فى المظالم . فاذا أراد أمير من الأمراء المثول بين يدى السلطان تقدمه أمير جاندار قليلا فى أثناء دخوله ، وهو مسئول عن حراسة باب السلطان فى الإيوان . كما كان يتحرى أحوال الأمراء الذين يرغبون فى الدخول على السلطان خشية أن تمتد أيديهم إليه (١) .

٣ — الحسبة

وبجانب هذه السلطة القضائية الممثلة فى قضاة القاهرة والأقاليم ، توجد سلطة أخرى للمحتسب . وكان ينظر فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام ويقضى فى الجنايات التى يستدعى الفصل فيها السرعة حتى إن القضاء والحسبة كانا يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وأما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة فى الفصل (٢) . ومن الفروق الرئيسية بين القاضى والمحتسب أن الأخير كان له أن يطبق القانون بدون أن ينتظر أو يتطلب شكوى من المجنى عليه .

ظل نظام الحسبة فى سلطنة المماليك على ما كان عليه فى عهد الفاطميين والأيوبيين وأوائل عهد المماليك ، فقد كان من أهم أعمال المحتسب المحافظة على الآداب العامة . فهو الذى ينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق ، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا تعوق نظام المرور (٣) ويكشف عن صحة الموازين والمكاييل (٤) ، ليمنع ما قد يحدث من غش فى البيع والشراء فيراقب هو ونوابه وزن البضائع أو كيلها ونظافتها ونوعها وثمنها (٥) .

وبذلك كان للمحتسب أن يفصل فى الأمور ذات الصبغة التجارية كالمتعلقة بالموازين والمكاييل غير الوافية وبالغش فى البيع وعدم دفع الديون ، ولكن حتى فى هذه الأمور كان اختصاصه مقصورا على المسائل الواضحة التى كان الحق فيها جليا . فإذا احتاج الأمر الى تطبيق وسماع بيّنة أو يمين ، فإن القاضى يكون هو المختص بذلك .

وكان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق ، فيفتشون الفنادق العامة ويُشرفون على

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦١ وما يليها .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ؛ المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٤ .

(٤) كان للموازين والمكاييل دار خاصة بها تعرف باسم « دار العيار » . وكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة يحملون موازينهم ومكاييلهم ليتأكد بنفسه من ضبط عيارها . فإن وجد فيها خللا صادرها وألزم صاحبها بإصلاحها أو شراء غيرها . وقد بقيت هذه الدار فى مصر طوال عهد الفاطميين والأيوبيين . المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٤ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٦٤ .

السقّايين للتحقق من تغطيتهم القرب ولبسهم السراويل ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الأولاد ضرباً مبرحاً . وكان له أن يمنع الناس من تحميل الدواب أو السفن أكثر من طاقتها كما يفعل قلم المرور الآن . ويلوح أن معلمى العموم كانوا مصدر أضرار خلقية ، فقد نص المقريزى على أن من واجب المحتسب إنذار معلمى العوم « بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس »[1] .

وكان من واجبات المحتسب أن ينبه الحكومات إلى الخطر الذى يلم بالمساجد حين تتداعى للسقوط بسبب إهمال إصلاحها ، كما استحدثت الحكومة الحديثة إدارات حفظ الآثار للقيام بهذا الغرض . وكان المحتسب يقضى بين الناس فى جامعى عمرو والأزهر ، وزاد نفوذه حتى غدا من اختصاصه الإشراف على رجال الشرطة الذين يقومون بتنفيذ أحكامه[2] .

وقد أجمل قاضى القضاة تاج الدين السبكى المسائل التى يشتد فيها المحتسب فقال : « وعليه النظر فى القوت وكشف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم اليه من ذلك ، والاحتراز فى المشروب ، فربما أوهم الخمار أنه فقّاعى أو أقساماوى ، والمأكول فطالما أوهم الطباخ أن لحم الكلاب لحم ضأن ، فليتق الله ربه ولا يكون سبباً فى إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث »[3] .

من ذلك نتبين مدى سلطة ذلك الموظف ، وما كان يتمتع به من نفوذ كبير . ويجب أن لا تفوتنا هذه الحقيقة وهى أنه كان يراعى فى اختياره أن يكون من العدول الذين عرفوا بالأمانة والاستقامة والذين حرصوا على حسن السمعة وابتعدوا عن الشبهات .

وهاك بعض ماجاء فى « وصية محتسب » لنتبين منها إلى أى حد وصلت سلطة هذا الموظف الكبير ، قال العصرى :

فلينظر فى الدقيق والجليل والكثير والقليل ، ومايحصر بالمقادير ومالايحصر ، ومايؤمر فيه بمعروف أو ينهى عن منكر ، ومايشترى ويباع ويقرب بتحريره إلى الجنة ويُبعد من النار ، ولو لم يكن قد بقى بينه وبينها إلا قدر باع أو ذراع ، وكل مايعمل من المعايش من نهار أو ليل ، ومالا يعرف قدره إلا إذا نطق لسان الميزان ، أو تكلم فم الكيل ، وليعمل لديه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٤ . ومما تجب الاشارة إليه أن المقريزى تولى وظيفة الحسبة فى سنة ٨٠١ هـ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

انظر مقال « محتسب » بدائرة المعارف الاسلامية . وراجع « نشوار المحاضرة » تأليف التنوخى (طبعة مرجليوث) ص ٢٥٠ .

وانظر : G. S. Colin et E. Lévi-Provençal : Manuel Hispanique de Hisba ومعالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الاخوة (طبعة Ruben Levy) بلجنة ذكرى جب (Gibb Memorial) .

(٣) السبكى : معيد النعم ص ٩٢ .

معدلا لكل عمل وعياراً إذا عرضت عليه المعايير ، يصرف من جار ومن عدل . وليتفقد أكثر هذه الأسباب ، ويحذر من الغش ، فان الداء أكثره من الطعام أو الشراب ، وليتعرف الأسعار ، ويستعلم الأخبار فى كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار . ليقم عليهم من الأمناء من ينوب عنه فى النظر ويطمئن به وإن غاب أو حضر ويأمره بإعلامه بما أعضل ومراجعته مهما أمكن فإن رأى مثله أفضل ، ودار الضرب والنقود التى منها تنبعث وقد يكون فيها من الزيف مالا يظهر فليتصد لهما بصدره الذى لا يحرج جهله الرقباء . وليقم الضمان على العطارين فى بيع غرائب العقاقير إلا من لايسترابب فيه وهو معروف وبخط مطبب ماهر لمريض معين فى دواء موصوف والطرقيه وأهل النجامه وسائر الطوائف المنسوبة إلى ساسان ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان وكل انسان سوء من هذا القبيل هو الحقيقة شيطان لا إنسان أمنعهم كل المنع وأصدعهم مثل الزجاج حتى لاينجبر لهم صدع وصب عليهم النكال وإلا فما تجدى فى تأديبهم ذات التأديب والصفع وأحسم كل هذه المواد الخبيثة ومن وجدته قد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أخبر مشترى بزائد أو خرج عن معهود العوائد شهرّه فى البلد وأركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد (١).

وقد تولى منصب الحسبة فى عصر المماليك أربعة فى وقت واحد : يتصرف كل منهم فى شئون الحكم فى ولايته . فنرى فى كل من القاهرة والفُسطاط (٢) والوجه البحرى والاسكندرية (٣) محتسباً خاصاً . وكان محتسب القاهرة أعظم هؤلاء قدراً وأرفعهم شأناً فقد كان له وحده دون بقية المحتسبين حق الجلوس بدار العدل فى أيام المواكب ، وهو يلى فى الرتبة وكيل بيت المال . ومما يدل على عظم مكانة محتسب القاهرة أنه كان يجلس بدار العدل مع قضاة مصر الأربعة وقضاة العسكر ومفتى دار العدل ويشترك فى المسائل المتعلقة بتولية نواب الوجه البحرى وعزلهم (٤). وكان يلى محتسب القاهرة فى الرتبة محتسب الفسطاط الذى كان يشرف بحكم وظيفته على أعمال الحسبة فى الوجه القبلى . وكانت حسبة القاهرة تضم أحياناً إلى أعمال والى القاهرة كما تسند حسبة الفسطاط أيضاً إلى واليها (٥) .

كذلك عرفت الحسبة فى ذلك العهد فى نيابات الشام . إلا أن المحتسب لم يكن له حق حضور دار العدل كما كانت الحال فى مصر ، بل كان ينيب عنه موظفين يقومون بأعمال الحسبة فى الولايات المختلفة ويتولون نفس الأعمال التى يقوم بها المحتسبون فى مصر (٦) .

---

(١) انظر وصية محتسب العمرى : فى العمرى : التعريف ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٢) انظر نص تقليد حسبة الفسطاط فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢١٢ — ٢١٤ .

(٣) انظر نص تقليد حسبة الأسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤١٤ — ٤١٦

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٧ ، ج ١١ ص ٢٠٩ — ٢١٠ ،

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ٢١٠ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٨٩ ، ج ١٢ ص ٨٩ ،

وأشهر من تولى الحسبة فى دولة المماليك البحرية مجد الدين عيسى بن الخشاب فقد تولاها من سنة ٦٧٨ هـ فى عهد السلطان قلاوون وظل فى منصبه حتى سنة ٦٩٩ هـ (١) . وتولى الحسبة فى عهد السلطان الناصر محمد كل من شرف الدين عبد الكريم بن أبى الفرح بن الحكم الحموى (+ ٧١١ هـ) وأبو العباس احمد بن الرفعة (٢) وأبو المعالى محمد بن يوسف الدلاصى (+ ٧١٧ هـ) (٣) ونجم الدين محمد بن عثمان البصروى (٤) وزين الدين بن الأسعردى (+ ٧٢٠ هـ) (٥) ونجم الدين بن الأسعردى (٦) وعز الدين القلانسى (٧) وشهاب الدين عبد الرحمن بن محمد بن هبة الله النصيبى (٨) (+ ٧٢٨) ونجم الدين احمد بن محمد القمولى (٩) ونجم الدين بن الأسعردى (+ ٧٣٧ هـ) (١٠) والقاضى ضياء الدين أبو المحاسن يوسف بن أبى بكر بن محمد (١١) وشرف الدين والقاضى صلاح الدين عبدالله أبو الحسن على بن الحسين بن محمد الحسينى نقيب الأشراف بالديار المصرية (+ ٧٥٧ هـ) (١٣) ابن ابراهيم البرلسى المالكى (+ ٧٦٥ هـ) (١٣) وتولاها فى عهد السلطان الأشرف شعبان ابن الناصر حسن (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ) كل من ابراهيم محمد بن احمد بن الصاحب (١٤) ابن احمد المخزومى (+ ٧٧٥ هـ) (١٥) ومحمد بن تقى الدين المصرى (١) وفخر الدين محمد بن وبرهان الدين ابراهيم بن محمد بن احمد السعدى الاخنائى (+ ٨٧٧ هـ) (٤) .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٦٧٠ و٨٩٧ .

(٢) ابن الرفعة : كتاب الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ص ١٥ .

(٣) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٩١ .

(٤) ابن حجر : نفس المصدر ج ٤ ص ٤٦ .

(٥) ابن حجر : نفس المصدر ج ١ ص ٤٦٨ .

(٦) Zetterstéen ، تاريخ سلاطين المماليك ص ١٧١ .

(٧) ابن حجر : نفس المصدر ج ١ ص ٥٧ ، ج ٣ ص ٣٦٤ .

(٨) ابن حجر : نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٩) ابن حجر : نفس المصدر ج ١ ص ٣٠٤ .

(١٠) Zetterstéen : نفس المصدر ص ١٩٣ .

(١١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ ص ١٧٣ .

(١٢) Zetterstéen : نفس المصدر ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٧ .

(١٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٩ .

(١٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ ص ٢٧٥ .

(١٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٢٦ .

(١٦) ابن حجر : نفس المصدر ج ٤ ص ١٦٦ .

(١٧) ابن حجر : نفس المصدر ج ١ ص ٥٨ — ٥٩ .

٤ — تنفيذ الأحكام

لقد ذكرنا من قبل أنه كان لكل من القاضى وصاحب المظالم والمحتسب ووالى القاهرة اختصاصات قضائية وسلطات واسعة .

وإذا أصدر أحد هؤلاء الموظفين حكمه فى قضية من القضايا بدأ تنفيذ هذا الحكم . فإذا قضى الحكم بالحبس سيق المحكوم عليه إلى أحد السجون . ومنها « خزانة شمايل » التى كانت تعد أسوأ سجون القاهرة ويحبس فيها من حكم عليه بالقتل من أصحاب الجرائم والسارقين وقطاع الطريق والمماليك المناوئين لحكم السلطان . ويغلب على الظن أن خزانة شمايل قد بنيت لتكون سجناً ، فلم تكن كخزانة البنود التى بنيت فى الأصل لحفظ الأعلام والأسلحة فى الدولة الفاطمية ثم استخدمت فيما بعد معقلا للأسرى ، وسميت خزانة شمايل نسبة إلى الأمير علم الدين شمايل والى القاهرة فى أيام السلطان الملك الكامل الأيوبى(١) .

ومن السجون التى عرفت فى دولة المماليك سجن الجب بقلعة الجبل . وكان عبارة عن بئر مظلمة كثيرة الوطاويط كريهة الرائحة يقاسى فيها المسجون كل أنواع العذاب وضروب الشقاء . وقد بناه السلطان قلاوون سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) واتخذه سجنا يحبس فيه مَنْ يخرج عليه من الأمراء(٢) . وما زال كذلك حتى أمر السلطان الناصر محمد بهدمه سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨ م) وأنشىء فى مكانه طباق للمماليك السلطانية (٣).

ومن الوصف الذى أتى به المقريزى لهذه السجون نتبين مدى ما كان يلقاه المسجونون من العنت والإرهاق والجوع والعرى حتى كانوا يفضلون الموت على الحياة إذ يقول « وأما الحبس الذى هو الآن فإنه لايجوز عند أحد من المسلمين وذلك أنه يجمع الكثير فى موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة . . . ويؤذيهم الحرّ فى الصيف والبرد فى الشتاء . وربما يحبس أحدهم السنة وأكثر ولا جدة له وأن أصل حبسه على ضمان . وأما سجون الولاة فلا يوصف ما يحلّ بأهلها من البلاء . واشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان فى الحديد حتى يسندوا وهم يصرخون فى الطرقات من الجوع فما يتصدق به عليهم لاينالهم منه إلا مايدخل بطونهم وجميع مايجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان وأعوان الوالى . ومن لم يرضهم بالغوا فى عقوبته وهم مع ذلك يستعملون فى الحفر وفى العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة

(١) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) ج ٢ القسم الرابع ص ٤٢٢ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، ٢٠٥ — ٢١٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) ج ٤ القسم الثانى ص ٢٤١ .

Lane-Pool : Egypt in the Middle Ages, p. 294.

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) ج ٤ القسم الثانى ص ٢٤١ ؛ Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٨٠ .

والأعوان تستحثهم . فاذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن فى حديدهم من غير أن يطعموا شيئا إلى غير ذلك مما لا يسع حكايته هنا » (١)

ومهما يكن فى هذا من صرامة وقسوة فإنه ليس بكثير على المجرمين الذى ارتكبوا فى حياتهم الجرائم الأخلاقية ما يستحقون عليه أشد العقوبات . وإذا قيس هـذا بما كان متبعاً مع المسجونين فى أوربا وغيرها فى تلك الحقبة من الزمان يتجلى لنا أنه لا يخرج عن المتعارف المألوف فى معاملة المسجونين .

على أننا نعرف أن كثيرين من الناس كانوا يلقون فى غياهب السجون لأسباب سياسية أو لأنهم فقدوا عطف أولياء الأمور . وفى الحق أن مثل هذه المعاملة التى أشار اليها المقريزى قاسية بالنسبة لهؤلاء . ولسنا ندرى أكان يُباح للمسجونين فى عصر المماليك أن يصنعوا أشياء فى السجون يبيعونها لحسابهم كما كان يحدث فى عصر الطولونيين(٢) . ولسنا ندرى أيضاً أكان بعض الناس فى عصر المماليك يسجنون فى منازلهم فلا يجوز لهم مبارحتها كما كان يحدث فى العصر الطولونى (٣) .

إلا أن عقاب المغضوب عليهم لم يقتصر على حبسهم ، بل كانت هناك عدة طرق لتعذيبهم من بينها المعاصير والضرب بالمقارع . جاء فى ابن إياس : « ثم أن الشجاعى [الأمير علم الدين سنجر وزير الناصر] قبض على الصاحب شمس الدين بن السلعوس الذى رأى من العز والعظمة مالم ير غيره من أرباب الوظائف . فلما قبض عليه الشجاعى جعل يعاقبه ويعصره بالمعاصير حتى مات تحت الضرب »(٤) فى ١٥ صفر سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣م) . وجاء فى ابن إياس أيضاً أن السلطان بيبرس الجاشنكير لما علم بكره الناس له ومكاتبتهم للسلطان الناصر يستحثونه العودة إلى مصر : « رسم بقبض جماعة من العوام نحو ثلثمائة انسان فضرب منهم جماعة بالمقارع » (٥) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٧ .

اقرأ نص الافراج عن مسجون فى المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٦٩ — ٧٨٠ حاشية ٤ نقلا عن النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٢٩٨ ب

(٢) أنظر سيرة ابن طولون لابن الداية (طبع Vollers) ص ٥٣ .

Zaki M. Hassan : Les Tulunides, p. 206.

(٣) راجع كتاب المكافأة لابن الداية ص ٢٥ .

والمرجع السابق للدكتور زكى حسن : نفس الصفحة .

(٤) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٠ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥٠ .

ومن أشهر حوادث التعذيب بالمقارع والمعاصر ماروواه المقريزى من أن الأمير بكتمر الحاجب « تزوج [سنة ٧١٦ هـ = ١٣١٦م] بابنة الأمير جمال الدين آقوش المعروف بنائب الكرك وسرق له مال كثير من خزانته بهذه الدار ادعى أنه مبلغ مائتى الف درهم وكان فى الباطن على ما قيل سبعمائة ألف درهم فما جسر يتفوه خوفا من السلطان . وكان إذ ذاك والى القاهرة الامير سيف الدين قدادار . . . فتقدم أمر السلطان اليه بتتبع من سرق المال . فمس الأمير بكتمر الساقى والوزير مغلطاى الجمالى والقاضى فخر الدين ناظر الجيش فى السر أن يتهاون فى أمر السرقة نكاية لبكتمر وأخذوا يحتجون لكل من اتهم ويقولون للسلطان : لعن الله ساعة هذه العملة ، كل يوم يموت من الناس تحت المقارع عدة وإلى متى يقتل المتهم الذى لاذنب له . فلما طال الأمر شكى بكتمر الى السلطان فى دار العدل . فأحضر الوالى وسبه السلطان فقال ياخوند ! اللصوص الذين أمسكتهم وعاقبتهم أقروا أن سيف الدين بخشى خازندار اتفق معهم على أخذ المال وجماعة من ألزامه الذين فى بابه . فقال السلطان للجمالى الوزير احضر هؤلاء المذكورين وعاقبهم . فأخذ بخشى وعصره »(١) .

وهناك أيضا طريقة التشهير . وكان من يؤمر به ليشهّر ويطوّف يُمد أولا على لوح من الخشب تُسمَّر فيه رجلاه وذراعاه ثم يربط اللوح على ظهر جمل أو حمار ثم يطوف به فى طرق المدينة . وكان هذا الضرب من العقوبة من أقسى أنواع العقوبات التى عرفت فى مصر فى عصر المماليك . جاء فى المقريزى أن السلطان خليل أمر بأن القاضى تقى الدين عبد الرحمن الشافعى ابن بنت الأعز « يركب حمارا ويُشهر »(٢). وقال أبو الفدا عند كلامه على كيفية انتقام حكومة الناصر من قتلة أخيه الأشرف خليل أن أتباع بيدرا المُحَرّض على قتل السلطان « وضعوا فى خزانة البنود أياما ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم جزاء بما كسبوا »(٣) .

وقد أورد المقريزى وسيلة أخرى من وسائل تعذيب المغضوب عليهم وهى « القطع نصفين » أو « التوسيط بالسيف نصفين » . وكان هذا النوع من القتل شائعاً فى مصر زمن المماليك وفى غيرها من بلاد الشرق أيضاً . وطريقته أن يُعرّى المحكوم عليه من الثياب ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ويطرح على ظهر جمل ، وتسمى هذه العملية بالتسمير . ثم يأتى السياف فيضرب

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢) كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٧٢ .

(٣) المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٣٠ ؛ أنظر أيضا ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٧٥ المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٩٥ — ٧٩٦ .

المحكوم عليه بقوة ضربة تقسم الجسم نصفين من وسطه [١] .

ولا شك فى أن هذه الأساليب لم تكن تتبع إلا مع من عظمت جرائمهم واشتد خطرهم على أمن البلادوسلامتها . فإن أتباع الأمير بدرالدين بيدرا صاحب اليد الطولى فى تدبير مقتل السلطان خليل بن قلاوون يستحقون ما لاقوة من قسوة وتعذيب ولايجدون من يعطف عليهم فى آلامهم أثناء محنتهم التى مروا بها قبل قتلهم ، وإلا اضطربت الأمور وأصبح قتل أفراد الشعب أمراً عادياً ، مادام قتل أحد السلاطين لايقابل مرتكبوه بما يستحقون .

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٠٤ حاشية للدكتور زيادة .

obeikandl.com

مصادر الكتاب

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

اولا ـ مصادر عربية مخطوطة

الأشرفي : (+ ٧٧٠ هـ = ١٣٦٨ م) طيبغا البلقميشي اليوناني .

« كتاب غنية الطلاب في معرفة الرمي والنشاب » (مخطوط بكمبردج رقم 2 q ١٧٨ — ٢٤٠) .

ابن أيبك : أبو بكر عبد الله صاحب صرخد

« كنز الدرر وجامع الغرر » ٩ أجزاء (مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨) .

أمين الخولي : « الجندية في الاسلام » (رسالة لم تطبع) .

بَكْتُوتْ الرماح : خازندار الملك الظاهر (+ ٧١١ هـ = ١٣١١ م)

« نهاية السؤال والأمنية في تعليم الفروسية » (مخطوط بالمتحف البريطاني رقم Orient ٣٦٣١) .

بيبرس الدوادار : (+ ٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م)

« زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » الجزء التاسع (مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٤٠٢٨) .

الجَزَري : (+ ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مجد الدين أبي اسحاق ابراهيم بن أبي بكر بن ابراهيم بن عبد العزيز .

« تاريخ الجزري » جزء واحد في ثلاثة مجلدات (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٩٥) .

ابن حجر العسقلانى : (+ ٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م) شهاب الدين بن على .
« رفع الإصر عن قضاة مصر » (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥) .

الحُسَامى : (+ ٧٨٠ هـ = ١٣٧٩ م) محمد احمد بن لاچين الطرابلسى .
« كتاب الفروسية بوسم الجهاد » (مخطوط بمكتبة برلين رقم ٥٨٨) .

الخالدى : (+ ٩٧ = ١٥٣٠ — ١٥٣١ م) بهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبد الله ابن عبيدالله العمرى .
« كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا » (مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٤٠٤٥) .

الذَّهَبي : (+ ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ — ١٣٤٨ م) شمس الدين محمد بن احمد .
« تاريخ الإسلام » (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ) .

الزَّرْكَاش : (+ ٧٦٧ هـ = ١٤٦٢ — ١٤٦٣ م) . ابن ارنبغا
« الأنيق فى المجانيق » (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٧٠٥ فنون حربية) .

الشُجَاعى : شمس الدين . « تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه » (برلين ٩٨٣٣) Brockelmann II, 28.

العَيْنى : (+ ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) بدرالدين محمود .
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ٢٣ جزءاً فى ٦٩ مجلدا (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ) .

العُمَرى : (+ ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) ابن فضل الله .
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨) .

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى .
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » . الجزء الرابع (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٣) .

obeikandl.com

« المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ٣ أجزاء (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١١٣)

المقريزى : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقى الدين احمد بن علىّ

« كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك » الجزء الثالث (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٥٥) .

ابن مَنْكَلى : (+ ٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ م) القز محمد .

« الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية » (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية) .

النُّوَيْرِى : (+ ٧٣٢ هـ — ١٣٣٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ٣٢ جزء . (صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس) .

النويرى : (+ ٧٧٥ هـ = ١٣٧٣م) محمد بن قاسم بن محمد بن الاسكندرى .

« كتاب الالمام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية » (مخطوط برلين . راجع اهلواردت Ahlwardt رقم ٩١٨٥) . ويقوم بنشره مع ترجمة فرنسية وتحشية واسعة النطاق المستشرق المعروف اتين كومب M. Etienne Combe

ابن واصل : (+ ٦٩٧ هـ = ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) جمال الدين أبو عبد محمد بن سليم

« مفرج الكروب فى تواريخ بنى أيوب » جزءان (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ تاريخ) .

اليُونينى : (+ ٧٢٦ هـ = ١٣٨٤ م) الشيخ قطب الدين .

« الذيل على مرآة الزمان » (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

(المؤلف مجهول الاسم) .

« كتاب الفروسية » (المكتبة الأهلية بباريس) .

ثانيا — مصادر عربية مطبوعة

احمد عيسى بك : « تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م) .

احمد تيمور باشا : « نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة » (المطبعة السلفية) .
« التصوير عند العرب » (أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن القاهرة ١٩٤٢) .

الاسحاقى : محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن احمد بن عبد الغنى المنوفى .
« كتاب أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » (القاهرة ١٣١١ م) .

اسماعيل سرهنك : « حقائق الأخبار عن دول البحار » جزءان (المطبعة الأميرية ١٣١٤ هـ) .

ابن الإخوة : « معالم القربة فى أحكام الحسبة » (طبعة روبين ليفى Rubien Levy — بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial) .

ابن إياس : (+ ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م) أبو البركات محمد بن احمد .
« كتاب تاريخ مصر » المعروف باسم « بدائع الزهور » ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ هـ) .

ابن بطوطة : (+ ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله .
« تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » جزءان (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) . ترجمه الى الفرنسية ديفريمرى Defremery وسانجينيتى Sanguinetti باريس ١٨٥٣ — ١٨٥٨ هـ = ١٨٦٩ — ١٨٧٩ م) .

ابن تَيْمية : « الحسبة فى الاسلام أو وظيفة الحكومة الاسلامية » جزء واحد .

التنوخى : « نشوار المحاضرة (طبعة مرجليوث Margoliouth) .

جورجى زيدان : « تاريخ التمدن الاسلامى » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦م) .

ابن الجيعان : (+ ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) شرف الدين يحيى علم الدين شاكر بن المقر .
« التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » (القاهرة ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م . نشره المستشرق مورتز Moritz) .

حاجى خَليفة : (+ ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) . مصطفى المسمى كاتب شلبى .

« كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » . (طبع النسخة العربية وترجمها الى اللاتينية فلوجل G. Flugel . ليبزج ولندن ١٨٣٥ — ١٨٥٨) .

ابن حجر العسقلانى : (+ ٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م) . شهاب الدين بن علىّ .
« الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ٤ أجزاء (طبعة طبعة حيدر أباد الهند سنة ١٣٤٨ — ١٣٥٠ هـ) .

الحسن بن عبد الله :(+ ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م) .
« كتاب آثار الأول فى ترتيب الدول » (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .

حسن ابراهيم حسن : « الفاطميون فى مصر » عن الانجليزية (المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م)
« السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية » . (عن الفرنسية) تأليف فان فلوتن (القاهرة ١٩٢٣) .
« انتشار الإسلام بين المغول والتتار » . (بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية — مايو ١٩٢٣) .
« انتشار الإسلام فى الهند » (بحث فى مجلة كلية الآداب الصادرة سنة ١٩٤٤)

ابن خَلْدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م م) . عبد الرحمن بن محمد .
« مقدمة ابن خلدون» (بيروت ١٩٠٠ م) . «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ م) .

ابن خَلِّكان : (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) . شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ابن أبى بكر الشافعى .
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» . جزءان . (بولاق ١٢٨٣ هـ ، والمطبعة الميمنية بمصر ١٢١٠ هـ) .

ابن أُبى الفضائل : (+ ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م) . مفضل .
« النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » .

(Texte Arape publiée et traduit en Français par E. Blochet. Patrologia Orientalis, t. XIV. Fasc. 3 Paris, 1911, 1930).

ابن دُقْماق : (+ ٧٠٩ هـ = ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) . ابراهيم بن محمد المصرى .
« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » . جزء ٤ و٥ (القاهرة سنه ١٣٠٩ هـ = ١٨٩٣م) نشره المستشرق فولرز Ed. Vollers

الرملي : (+ ٩١٩ هـ = ١٠٠٤ م) . شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن أحمد ابن حمزة .
« الفتاوى » . وهو مطبوع على هامش كتاب « الفتاوى الكبرى » لابن حجر الهيتمي (القاهرة ١٣٠٨ هـ) .

رشيد الدين فضل الله : (+ ١٣١٨ هـ) .
« كتاب جامع التواريخ » ترجمه إلى الفرنسية مسيو اتين كترمير E. Quatremère وانتهى من تأليفه حوال سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) .

زترستين : « تاريخ سلاطين المماليك » نشره ك . ف . زترستين K. F. Zetterstéen (لندن سنة ١٩١٩) .

زكي محمد حسن : « كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٣٧)
« مصر الاسلامية » بالاشتراك مع البكباشي عبد الرحمن زكي . (القاهرة ١٩٣٧)
« مصر والحضارة الاسلامية » (الرسالة الخامسة من عشرة من سلسلة الثقافة العسكرية التي تصدرها إدارة الشئون العامة في وزارة الدفاع الوطني) .

السُبْكي : (+ ٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) . تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب .
« معيد النعم ومبيد النقم » . (لندن سنة ١٩٠٨) طبعة داود وهلم موهرمن David W. Myhrman المدرس بكلية أبسلة الملوكانية .
« طبقات الشافعية الكبرى » ج ٦,٥ (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

السيُوطي : (+ ٩١١ هـ ١٦٠٥ م) . جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر بن محمد .
« حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة » جزءان (القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ) . ترجمة إلى الانجليزية الميجر هـ . س . جاربت . (كلكتا سنة ١٨٨١ م) .
« تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » . (إدارة المطبعة المنيرية سنة ١٣٥١ هـ)

ابن شاكر : (+ ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م) . فخر الدين محمد بن أحمد الكتبي .
« فوات الوفيات » (بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) .

ابن شاهين : (+ ٨٧٣ هـ ١٤٦٨ — ١٤٦٩ م) . غرس الدين خليل الظاهري .
« كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » (باريس سنة ١٨٩١ م) .

أبو شامة : (+ ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) . عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ابن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة شافعي من أهل دمشق .
« كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » .
Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux, t. IV.
وهناك طبعة أخرى فى مجلدين (القاهرة ١٢٧٨ هـ) .

الشوكانى : (+ ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م) . محمد بن على
« البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، جزان (القاهرة ١٣٤٨ م) .

ابن طباطبا : (ولد سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م وأتم كتابه سنة ٧٠١ هـ = ١٣٠١ م ولا تعرف سنة وفاته) محمد بن على المعروف باسم ابن الطقطقى .
« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » . (القاهرة ١٩١٣ م) .

عبد الرازق بركات : « الرسالة الفنية » (القاهرة ١٣٤٢ هـ) .

عبد الفتاح عبادة : « كتاب سفن الأسطول الاسلامى » (القاهرة ١٩١٣ م) .

على ابراهيم حسن : « جوهر الصقلى » (القاهرة ١٩٣٣)
« النظم الاسلامية » بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٣٩) .
« الجيش والبحرية فى عصر المماليك » (الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الدفاع الوطنى (القاهرة — مارس ١٩٤٤)
« آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية » (بحث فى مجلة كلية الآداب الصادرة سنة ١٩٤٤)

على مبارك باشا : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة » ٣٠ جزءا فى أربع مجلدات (بولاق ١٣٠٦ هـ) .

العمرى : (+ ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) شهاب الدين احمد بن فضل الله .
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » الجزء الأول . نشره وعلق عليه المرحوم احمد زكى باشا . (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) .
« التعريف بالمصطلح الشريف » (القاهرة سنة ١٣١٢ هـ) .

عمر طوسون، الأمير : « كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » (الاسكندرية سنة ١٩٣١ م) .

أبو الفداء : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) . اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه .
« المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ) .

أبو الفَرَج المَلَطى : (+ ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) . جريجورى المسمى بارهبرايس .
« مختصر الدول » (بيروت ١٨٩٠ م) .

ڤيت : جاستون : « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » .
مقالة نشرت فى L'Egypte Contemporaine (1933, pp 241 – 264) ونقلها إلى العربية محمد وهبى افندى .

القَلْقَشَنْدِى : (+ ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) أبو العباس احمد .
: « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧ م) .
: « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » (القاهرة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦ م) .

الكِنْدِى : (+ ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .
« كتاب الولاة والقضاة » . به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب « رفع الاصر عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلانى . طبعة رفن جست R. Guest
(E.J.V. Gibb Memorial Series, Vol.XIX,1912)

الماوردى : (+ ٤٥٠ هـ = ١٥٠٧ م) . أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى .
« الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ م) .

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ هـ = ١٨٩٦ م) . جمال الدين يوسف بن تغرى بردى .
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ٨ أجزاء .
(مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٩ — ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٠ — ١٩٣٩ م)
والجزء الخامس : الفصل الأول والفصل الثانى (جزءان) — طبع جامعة كليفورنيا بإشراف William Ppper

محمود محمد عرنوس : « تاريخ القضاء فى الاسلام » (القاهرة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م) .

obeikandl.com

محمد كامل مرسى : « الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة إلى الآن » (القاهرة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م) .

محمد كرد على : « كتاب خطط الشام » . جزءان .

محمد مصطفى زيادة : « بعض ملاحظات فى تاريخ دولة المماليك بمصر » (القاهرة ١٩٣٨ م) . (بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب — المجلد الرابع الجزء الأول) .

مصلحة البريد : « تاريخ البريد فى مصر » (القاهرة ١٩٣٤ م) .
وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر بالقاهرة وللذكرى السبعينية لإنشاء مصلحة البريد .

المقريزى : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) . تقى الدين أحمد بن على .
« المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان (بولاق ١٢٧٠ م) .
نشر مسيو جاستون فييت Yarton Wiet جانباً من الجزء الأول (طبعة بولاق) فى أربعة مجلدات فى المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية فى القاهرة (القاهرة ١٩١١ — ١٩٢٤ م) .
« كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » الجزء الأول والجزء الثانى إلى سنة ٧٤١ هـ نشرهما وعلق عليهما الدكتور محمد مصطفى زيادة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ويناير ١٩٤٢) .
« كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة » نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة والأستاذ محمد جمال الدين الشيال (القاهرة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م) .

ابن مماتى : (+ ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م) . شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد .
« كتاب قوانين الدواوين » . نشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية . (طبعة الجمعية العمومية الزراعية الملكية بإشارة المغفور له الأمير عمر طوسون — القاهرة ١٩٤٣) .

النويرى : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) . شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ١٤ جزءاً .

مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٦ — ١٣٥٧ هـ = ١٩٢٨ — ١٩٣٨ م) .

الهيتمي : (+ ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م) . أحمد شهاب الدين بن محمد بدر الدين بن محمد شمس الدين بن علي نور الدين بن حجر .
« كتاب الفتاوى الكبرى الفقهية » . جزءان (القاهرة ١٣٠٨)

ابن الوردي : (+ ٧٤٩ هـ = ١٣٤٩ م) زين الدين عمر .
« تاريخ ابن الوردي » جزءان .

ياقوت : (+ ٢٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) . شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي
« معجم البلدان » ١٢ جزءاً . (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

ثالثا — مصادر اوربية

Allan : (j).
The Cambridge Shorter History of India. (Cambridge, 1924).

Aly : (Bahgat)
Les Manufactures d'étoffe en Egypte, au Moyen-Age. (Le Caire, 1904).

Arnold : (T.W.).
The Caliphate. (Oxford, 1924).

Atiya : (A.S.).
The Crusade in the Later Middle Ages. (London, 1938).
Egypt and Aragon. (Leipzig, 1938).
Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1330 A.D.
An unpublished XIV the Century Fatwa on the Status of foreigners in the Mamluk Egypt and Syria.
Studien Zur Geschichte des Nahen and Fernen Ostens (Festchrift Paul Kahle). Leiden, 1935. pp. 55 et Seq.

Blochet : (E.).
Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). (Extrait de la Revue de L'Orient Latin tomes VI. VIII-XI).

Brockelman : (S.).
Geschichte der Arabischen Litteratur 2 vols. (Weimair 1898-1902).

Browne : (E.G.).
Literary History of Persia — from the Earliest times until Firdawsi. (London, 1909).
Literary History of Persia under Tartar Dominion. (1265-1502 A.D.) Vol. II. (Cambridge, 1920).
Literary History of Persia. Vol. III. The Tartar Dominion (1265-1502). (Cambridge, 1928).

Budge : (E.A.W.).
A History of Ethiopia : Nubia and Abbassinia 2 Vols.
Bulletin of the School of Oriental Studies (B.S.C.G.).

(Cam. Med. Hist.) : Cambridge Mediaeval History (Vol. IV).

Christensen : (A.).
L'Empires des Sassanides (Copenhagne, 1907, Memoires de l'Academie Royale des sciences et des Lettres de Denmark).

Colin : (G.S.) et E. Lévi-Provençal.
Un Manuel hispanique de hisba (Paris, 1931).

Demombynes : (G.).
La Syrie A L'Epoque des Mamelouks. (Paris, 1922).

De Sacy : (S).
Bibliothèque des Arabissants Français (Le Caire, 1933.) (Mem. I. F.A. Caire).

D'Hosson : (Baron).
Histoire des Mongols depuis Techinguiz Khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, Vol. III. (The Hague Amsterdam, 1834-1835).

Dozy : (R.)
Supplément aux Dictionnaire détaille des noms de vêtements chez les Arabes. (Paris, 1845).

(Enc. Isl.) : Encyclopaedia of Islam.

Devonshire : (R.L.).
Rambles in Cairo. (Cairo, 1931).

Hassan : (H.I.).
Relations between Egypt and the Caliphate (Cairo, 1940).

Hautecoeur : (L.) et Wiet (G.).
Les Mosquées du Caire (2 vols.) (Cairo. 1932).

Heyd : (W.).
Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age. Vol. II. (Leipzfg, 1925).

Hitti : (P.K.).
The History of the Arabs. (London, 1940).

(J.A.) : Journal Asiatique.

(J.R.A.S.) : Journal of the Royal Asiatic Society.

Howorth : (Sir Henry).
History of the Mongols. Part III. Vol, IV. (London, 1876 1888).

Kendrick (A. F.).
Catalogue of Muhammadan Textiles of the Medieval Period. (Victoria and Albert Musslum).

Lane-Poole (s.).
The art of the Saracens (London, 1888).
The Story of Cairo (London, 1902).
History of Egypt in the Middle Ages (London, 191).
The Muhammadan Dynasties (Paris, 1905).
Medieval India Under Muhammadan Rule (London, 1912).

Lavoix : (H.).
Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie.

Le Strange (G.).
Palestine under the Moslems.
Marcel : (M. J. J.).
Histoire de l'Egypte depuis la conquête ds Arabes Jusqu'a l'Expedition Française (Paris, 1848).
Mayer : (L. A.).
Saracenic Heraldry (Oxford, 1933).
Mercier : (L.).
La chasse et les Sports chez les Arabes. (Pari 1927).
Michel : (B.).
L'Origanisation Financière de l'Egypte sous les Sultns Mamlouks d'après Qalqachandi (Le Caire, 1925.)
(Extrait de bulletin de l'institut d'Egypte, t. VII Session 1924—1925).
Muir : (W. E.).
The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (London, 1896).
The Caliphate, its Rise, Decline and Fall. (Oxford, 1902).
Paetow :
A Guide to the Study of Medieval History. (London, 1921).
Pollak : (A. N).
Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Labanon (London, 1939).
Les Revoltes Populaires en Egypte à l'Epoque de Memelouks et leurs Causes Economiques. Vol. 8. (1934).
Quatrmière : (E.)
Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte. 2 vols. (Paris, 1837—1845).
Talmiya : Taki D. Din Ahmad.
"Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques" (Le Caire, l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1939).
Toussoun ; (Le Prince Omar).
Le Géographie de Egypte à l'Epoque Arabe I. 1ère, 1—2 parties, (Memoires de la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. VIII, 1ère, 2ère parties — Le Caire 1926—1928).
Sanhoury : (A. A).
Le Califat (Paris, 1926).
Steingass (F.).
Persian—English Dictionary (London) 1930.
Van Berchem : (Max).
Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. (Le Caire, 1824) (Mem. I. F. A. Caire).
Weill (D.).
Catalogue Géneral du Musée Arabe, objets en Cuivre, t. III.
Weil : (G.),

obeikandi.com

Geschichte de Abbasidenchalifats in Egypten.
(Stuttgart, 1860 – 1862) Vol. I.

Wiet : (G.).

Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV. (L'Egypte Arabe) (Paris, 1926).
Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II. (Le Caire, 193s).
Les Biographies du Manhal Safi (Memoires présentés à l'Instituat d'Egypte Le Caire, 1932).
Trois formules d'indépendence dans L'Egype Mediévale (ed. de la Revue du Caire, 1942).
Corpus inscriptionum Arabicarum, Egypte, tome II (Mem. de l'Institut fr. d'archéologie Orientale, 1930).

Wright : (R. N.).

The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi (Delhi, 1936).

Wustenfeld :

Mahler'sche Vergleichungs — Tabellen, der Mohammeddanishen und Christlichen Zeitreachung (Leipzig, 1926).

Zaky Hassan :

Les Tulunides (Paris, 1933).
Hunting as practised in Arab Countries of the Middle Ages. (Cairo, 1937).

Zambour : (E.).

Manuel de Génalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam.)

كشّاف

بأسماء الأعلام ، والوظائف ، والدواوين ، والضرائب ، والبلدان ، والأدوات والملابس المستعملة فى الحروب والمواكب والصيد ونحوها ، والأماكن التى تحفظ فيها هذه الأدوات .

١ ــ الأعلام

(أ)

آباقا ١٤٤ ، ١٤٦

ابراهيم ابن احمد المخزومى ٣٧٤

ابراهيم الإمام بن محمد العباسى ٢٢٣

ابن الأحمر محمد بن أبى الوليد (صاحب الأندلس) ١٧٨

أتابك بهلوان ١٤٧

أحمد بن طولون ٢٨، ٧٣ ، ٧٥ ، ١٠٠ ، ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٣٥

أحمد بن قلاوون ٦٢

أحمد تكودار ١٤٦ ، ١٤٧

ادوارد الثانى (ملك انجلترا) ١٦٠

أرغون (سيف الدوله) ١٠١ ، ١١٨ ، ١٤٧ ، ٢٥٣

أرم بغا ٣٧٠

أسندمر ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٢٥٢

أسد الدين أبى عراره رميثه ١٧٢ ، ١٧٣

الأشرف خليل بن قلاوون ٢٧ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٧٥ ، ٢٢٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩٣ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦

أشلون خاتون ٦٠

أغرلو (سيف الدين العادلى) ٧٠ ، ٢٥١

أفرير دلماط ١٣٠ ، ١٣١

أفرير كليام ١٣٠ ، ١٣١

أقبجا الظاهرى ٨٦

أقبغا عبد الواحد ٢٠١

أقسنقر السلارى ١١٨

أقسنقر الساقى العادلى ٥٢

أقسنقر الكاملى ٥٢

آقوش (جمال الدين القارى العلائى والى البهنسا) ٣١٩

الفرنك بن جيخاتو ١٥٩

ألدمر الركنى ٣٧٠

ألوك خان سلطان دهلى ١٦٢

الآمر الفاطمى ٣٤١
اندرونيق الثانى پاليولوج ١٧٦ ، ٢٧٧
أنس (والد السلطان برقوق) ٢٩
أنوك بن حسين ١٠٤ ، ١١٥ ، ٢٣٥
أنوك بن الناصر محمد ٣٥ ، ١٠٣
أوزبك خان ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٧ ، ٣٦٦
أولجايتو محمد خدابنده بن أرغون أيلخان المغول ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٧٤
أيتمش المحمدى ١٦١
أيدغدى الخوارزمى أقول ١٩٢
أيدمر الشمسى ١١٤
أيدمر العلائى الرزاق ٢٩٨ ، ٣٧٠
اينبك البدرى ١١٤ ، ١١٩

(ب)

الباشقردى (علم الدين سنجر) زعيم المماليك الجداريه الصالحيه ٤٣
بدر الدين بكتاش ٧٨ ، ٧٩ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٩٨ ، ٣٤٩
بدر الدين بيبرس الشمسى ٣٦٦
بدر الدين بيلبك الخازندار ٢٤٦ ، ٢٤٧
بدر الدين لؤلؤ (صاحب الموصل) ٤٤
بدر الدين يوسف بن الحسن السنجارى ٣٥١
البدر محمد البزاز المنجى (الشاعر) ٩٢
برسباى ٢١
برسبغا ١٩٢
برقوق (الظاهر) ٢٩ ، ٣٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٢٩١
بركه خان (السعيد بن بيبرس) ٢٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٨٩ ، ١٨٢ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٣٦٦
برلغى ٨١ ، ٢٣٩
برهان الدين ابراهيم بن محمد بن أحمد السعدى الاخنائى ٣٧٤
برهان الدين السنجارى ٣٥٢
برهان عبد الحق بن الحنفى ٣٧٠
بشتك ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٣٣٧
بكتمر الجوكندار ٢٥٣
بكتمر الحاجب ٨٦ ، ٣٧٦
بكتمر الساقى ٧٩ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٦
بكتمر الشريف نائب الاسكندرية ٢٦٩
بكتمر العلائى ٢٠١
بكتوت الأزرق ٧٠ ، ٧١ ، ٧٦
بكتوت الشيرازى ٢٩٨
أبو بكر بن الناصر محمد ٢٧ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٧٤
بلبان الرومى ٢٧٨
بلبان الطباخى (نائب حلب) ١٤٩
بلبان طرفا ٣٧٠
بلبان القبجارى ٢٠١
بلكتمر الحجازى ١١٨
بتخاص ٧٠ ، ٧١ ، ١٤٠
بهاء الدين أرسلان ٢٨١

بهادر آص ٨٦
بهادر حنكى (سيف الدين) ٢٣٩
بهادر المعزى ٣٣٦
بيبرس الأحمدى ٣٧٠
بيبرس البندقدارى ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثانى) ٢٧ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ، ١٨٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦
بيبرس العلائى ٨٦
بَيْدَرَا (بدر الدين) ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٣٦٢
بَيْدو ١٤٤ ، ١٤٧

(ت)

تاج الدين ابن بنت الأعز ٢٢٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٣
تاج بن عبد السلام الخراط ٣٥١
أبو تاسفين عبد الرحمن (صاحب تلمسان ١٧٨
تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٧٦
تقى الدين محمود (صاحب حماه) ١٧٧
تنكز (سيف الدين الحسامى الناصرى) ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٦٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤
تيمور تاش بن شوبان (حاكم آسيا الصغرى) ١٦٢

(ج)

جاريك قفجق ١٩٢
جقمق ٢١
جلال الدين محمد القزوينى ٣٦٧
جمال الدين آقوش الأفرم (نائب الكرك) ٨٣ ، ٢٥٣ ، ٣٧٦
جمالى الدين أيدغدى ٣٥٢ ، ٣٥٣
جمال الدين بن الغويره ٣٣٢
جمال الدين دستاجردانى ١٤٨
جمال الدين الكفاة ٢٩٧
جمال الدين موسى بن يوسف ١٥٥
جنكيزخان ١٥٩
چون الثانى (البابا) ١٦٩
جوهر الصقلى ١٥٢ ، ٣٥٠

(ح)

الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد ٢١٩ ، ٢٢٨ ،

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٧٥
الحاكم بأمر الله الثانى أبو العباس أحمد بن المستكفى ١٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٤ ، ٣٥٤
الحسن بن محمد الغورى السداد ٣٦٧
الحسين بن على ١٥٧
حسين بن فلاح (أمير بنى خفاجة) ٢٢١
حميضه بن أبى نمى الحسنى الملكى (والى مكة) ١٧٢ ، ١٧٣
ابن حنا (الوزير بهاء الدين على بن محمد) ٢٢٦ ، ٢٥٧

(د)

دسبينا ابنة الامبراطور ميخائيل باليولوجس ١٤٤
ابن دقيق العيد (تقى الدين) ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦
دون بدرو الفرنجى ١٨٧

(ر)

زريق بن طلائع ١٨٦
رضوان بن ولخشى ١٨٦
ريتشارد (قلب الأسد ملك انجلترا) ٣٠٧

(ز)

الزراتيتى ٢٢٣
أبو زكريا يحيى ١٧٤
زين الدين بن الأسعردى ٣٧٣
زين الدين بن مخلوف ٣٧٠
زين الدين حاجى بن الناصر محمد ٢٧ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ٢٢٠
زين الدين يعقوب بن الزبير ٤٦

(س)

سراج الدين الحنفى ٣٦٥
أبو سعيد ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٧
أبو سعيد عثمان (صاحب فارس) ١٧٨
السعيد إيلغازى (صاحب ماردين) ١٧٧
سكتاى بن قراجين ٦٠
سلار (سيف الدين) ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٨٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤
سلامش (العادل بدر الدين بن بيبرس) ٢٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٩ ، ١٣٩ ، ١٨٢ ، ٣٦٦
سلطان بن رشاد ٣٥٠
ابن السلعوس (شمس الدين محمد) ٦٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٥
سليمان بن عبد الملك الأموى ٣٤١
سمك (سيف الدين) ٨٠ ، ٢٦١
سنجر (علم الدين الحلبى) ٤٤
سنجر (علم الدين الخازن والى القاهره) ١٦١
سنجر (علم الدين الخياط والى القاهره) ٣٤٠

سنقر الأعسر (شمس الدين) ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١
سنقر (شمس الدين العدى) نقيب الجيش ١٦٤
سودون الشيخى ٢٥٣ ، ٣٢٢
سيف الدين بخشى الخازندار ٣٧٦
سيف الدين بغا ٢٨١
سيف الدين بلبای الرومى ٢٧٨

(ش)

شارل الرابع ١٧٦
شاور وزير العاضد ١٨٦
الشجاعى (الوزير علم الدين سنجر) ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٩٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٧٥
شجر الدر أو شجرة الدر ٣٩ ، ٤٤ ، ٥٢
شرف الدين أبو الحسن على بن الحسين بن محمد ٣٧٣
شرف الدين بن الشهاب محمود ٢٧٤ ،
شرف الدين عبد الكريم بن أبى الفرج بن الحكم ٣٧٣
شرف الحرانى الحنبلى ٣٦٦
شعبان بن حسن بن الناصر محمد ٢٧ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ٢٠٣ ، ٢٦٩
شعبان بن الناصر محمد ٢٧ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ٣٤٧ ، ٣٧٤
شمس الدين ابراهيم بن القيسرانى ٢٧٥
شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلى ٣٥٢
شمس الدين محمد بن عماد الدين ابراهيم القدسى ٣٥٣
شمس الدين محمد الحريرى ٣٦٥ ، ٣٧٠
شمس الدين موسى بن تاج الدين اسحق ٢٩٧
شهاب الدين أحمد المهمندار ٢٠٥ ، ٢٩٨
شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد ٢٧ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ٢٢٠
شهاب الدين صاروجا ٢٩٨
شهاب الدين عبد الرحمن بن محمد بن هبة الله ٣٧٣
شهاب الدين محمود الحلبى ٢٧٥
شهاب الدين بن النحوى ٣١٢
شيخو ٣٢ ، ١١٨

(ص)

الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام ٣٥٢
الصالح حاجى ٢٧ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ٢٢٠
الصالح نجم الدين أيوب ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٥٢ ، ١٧٦ ، ٢٣١ ، ٣٦٦
صدر الدين سليمان الحنفى ٣٥٢
صدر الدين بن عبد الملك بن درباس ٣٥١
صرغتمش ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨
صلاح الدين صالح بن الناصر محمد ٢٧ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١٣٨ ، ٢٢٠ ، ٣٤٨
صلاح الدين عبد الله بن ابراهيم البرلسى ٣٧٣

صلاح الدين يوسف بن أيوب ٣٥ ، ٥٠ ، ٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٥١

(ض)

ضياء الدين أبو المحاسن يوسف ٣٧٣

(ط)

طرغيه صهر منكوتمر ١٤٨

طرنطاى (حسام الدين) ٥٨ ، ٥٨ ، ٢٠١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٣٤٢

طغجى ٤٧ ، ٧٧ ، ٧٨

طقزدمر ٩٢ ، ٢٥٣

طقصبا نائب السلطنه ١٧٥

طقطاى سلطان القفچاق ١٧٨

طلائع بن رزيق ١٨٦

طلنباش القفچاقيه ١٦٦

الطنبغا محمد بن الوزيرى ١٩٢

الطنتش ٢٠١

طومای باى ٣٠٧

طينال بيبرس ١٧١ ، ١٩٢

(ظ)

الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمى ٣١٤

(ع)

العادل أبو بكر بن أيوب ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٩٦ ، ٣١٧ ، ٣٥٢

أبو العباس أحمد بن الرفعة ٣٧٣

أبو عبد الله بن الأحمر صاحب الأندلس

عبد الله بن العباس ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥

أبو عبد الله محمد بن محمد ابن صاحب الأندلس ١٧٨

عبد الله محمد بن النعمان ٣٥٠

عبد الرحيم بن على البيسانى ٢٧١

عبد الله بن رفاعه ٣٤١

عبد الملك بن مروان ١٩١

عبيد الله بن الحبحاب ٣٤١

عز الدين أيبك الأفرم ٧٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣

عز الدين أيبك البغدادى ٢٥٨ ، ٢٥٩

عز الدين أيبك الحموى ٧٠

عز الدين القلانسى ٣٧٣

عز الدين أيدمر الحلى ٤٦

عز الدين أيدمر العلائى ٢٩٨

عز الدين بن جماعه ٣٥٤

عز الدين بن عبد السلام ٢٢٤ ، ٣٦١

العزيز بالله الفاطمى ٩٦ ، ٣٥١

أبو عصيده صاحب الأندلس ١٧٨

علاء الدين أيدكين ٢٢٣

علاء الدين خوارزم شاه ١٩٥

علاء الدين الرحبى ٢٠١

علاء الدين طيبرس الخزندارى ٢٩٨

علاء الدين طيبرس الوزيرى ٢٢٣

علاء الدين علي بن أحمد بن سعيد بن الأثير ٨٦
علاء الدين علي بن قلاوون ٥٧ ، ١١٥
علاء الدين كجك ٢٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ٢٢٠
علاء الدين مغلطاى ٣٠٥
علم الدين الاختنائى ٣٦٠
على بن ابى طالب ١٩١ ، ٢٢٨
أبو على بن الأفضل بن بدر الجمالى ٣٥٠
على بن الطباخ ٢٠٣
على بن النعمان ٣٥١
عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد ٢٧ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ٢٢٠
عماد الدين زنكى ٣٥١
عماد الدين الكندى ٣٦٠
عمر بن الخطاب ١٢٩ ، ٢٢٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
عمرو بن العاص ١٩١
عيسى بن مهنا ١٧٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢

(غ)

غازان محمود ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٧
غازيه خاتون ابنة قلاوون ٥٣
الغورى ٣٠٧

(ف)

فارس الدين أقطاى مقدم المماليك البحرية ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٢٤٦
فتح الدين بن عبد الظاهر ٥٧ ، ٥٨ ، ١٧٨
فخر الدين بن لقمان ٤٩ ، ٢٢٦
فخر الدين الخليلى ٢٦١
فخر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن الصاحب ٣٧٤
أبو الفضل محمد بن الأزرق ٣٥٠
فيليب الجميل ملك فرنسا ١٦٠
فليب السادس ملك فرنسا ١٦٨

(ق)

أبو القاسم الجرجرائى وزير المستنصر الفاطمى ٢٧٨
قايتباى ٢٤١ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤
قبجق ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ٧٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٧ ، ٢٥٢
قدادار (سيف الدين) والى القاهره ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٣٧٦
قراسنقر ٦٩ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣
قرا لاچين ٢٠١
قرطاى ١١٩
قرمشى ٦٠
قشتمر ١١٩
قطب الدين شيرازى ١٤٧

obeikandl.com

قطب الدين الشيخ ٢٩٧
قطب جهان ١٤٨
قطز (المظفر سيف الدين) ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٨ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٨٢ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٩٣ ، ٣٢١
قلاوون ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ١٨٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٧٤
قطلغمير نائب بلاد الروم ١٦٦
قطلوبغا المعزى ١٩٢
قطلوشاه التترى ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٣٠٧
قوصون ٣٣ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ٣١٣ ، ٣٣٧ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦

(ك)

الكامل الأيوبى ٢٧٤
ابن أبى كامل (القاضى الأمامى) ٣٥٠
كتبغا (العادل زين الدين) ٢٧ ، ٣٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٠ ، ١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢١٩ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٣٣٦ ، ٣٦٦
كربيس ملك النوبه ١٧٤
كُرمت (سيف الدين) ٣٦٣
كرجى ٤٧ ، ٧٧ ، ٧٨
كريم الدين الكبير وزير الناصر محمد ١٠١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٤٣
كعب بن زهير ٢٢٧
كلمنت الخامس ١٦٠
كمال الدين أبو السعادات أحمد بن شكر ٣٥٢
كهرداش (سيف الدين المنصورى) ٣١٨ ، ٣١٩
كيكلدى أبو غره ٢٠١
كيكلدى اللقمانى ٢٠١

(ل)

لؤلؤ الزردكاش ٢٠١
لاچين الإبراهيمى ٣٧٠
لاچين العلائى ٣٧٠
لاچين (المنصور حسام الدين) ٢٧ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ١٠٠ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
لولاى قائد غازان ١٤٩
ليو الخامس ملك أرمينيه ١٦٩

obeikandl.com

(م)

مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل ٩٦

المؤيد هزبر الدين داود بن يوسف بن رسول ملك اليمن ١٧٠

الماس الجاشنكير ١٩١

مبارك بن المستعصم ٢٣٠

المتوكل على الله ٢٢٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧

محمد بن تقى الدين المصرى ٣٧٤

محمد بن سام الغورى سلطان دلهى ١٦٢

محمد بن سنقر البغدادى ١٨٧

محمد صلى الله عليه وسلم ١٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤١

محمد بن طغج الأخشيد ٢٨، ٢٢١

محمد بن طغلق ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٨، ٢٤٢

أبو محمد عبد الله بن الليثى ٣٥٠

محمد بن عيسى ١٧٣

محمود بن خطير ١٩٢

محيى الدين بن عبد الظاهر ٥٧

محيى الدين بن فضل الله ٢٧٤

مروان بن محمد ٢٢٣، ٢٢٧

المستعصم ٣٩، ٤٢، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٠

المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ٩٠، ١٦٣، ١٧٠، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٧٥، ٣٥٤

المستنصر بالله أبو القاسم احمد ١٠٠، ١٨٥، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٠

المستنصر بالله الفاطمى ١٠٠، ٢٦٦، ٢٧٨، ٣٣٠

المستنصر بالله بن يحيى عبد الواحد صاحب افريقية ١٧٧

أبو المعالى محمد بن يوسف ٣٧٣

معاوية بن أبى سفيان ١٩١، ٢٢٧

المعتز بالله العباسى ٣٤١

المعتضد بالله أبو الفتح بن المستكفى ٢٢٠، ٣٣٥

المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالحى النجمى ٢٧، ٣٢، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٦٥، ١٨١، ١٨٢، ٢١٩، ٢٤٦، ٣٠١، ٣٦٩

المعز لدين الله الفاطمى ٩٦، ٣١٦، ٣٥٠

مغلطاى الجمالى ٢٠١، ٣٧٦

المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبى بكر ٩٦

مكين الدين بن قرونية ٢٩٧

منجك (سيف الدين) ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٩

المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى ٢٧، ١١٣، ١١٩، ٢٢٠

المنصور علاء الدين على بن شعبان ٢٧، ١١٥، ١١٩، ٢٢٠

المنصور نور الدين على بن أيبك ٢٧، ٤٤، ٧٣، ١٣٩، ٢٤٦

openkanal.com

منكوتمر ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٢٤٨ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
موسى بن الصالح علاء الدين بن قلاوون ٦١

(ن)

الناصر حسن ٢٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ٢١٠ ، ٣٣٦ ، ٣٤٨
الناصر داود صاحب حلب والكرك ٣٩
ناصر الدين الشيخى ٢٦١
ناصر الدين على خواجا ١٥٥
ناصر الدين بن المحسنى ٢٦٢
ناصر الدين محمد بن أبى نصر ٣٦٩
الناصر صلاح الدين صاحب حلب ٣٩
الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك المسعود صاحب اليمن ٤٠ ، ٤١ ، ١١٥
الناصر يوسف صاحب دمشق ٤٣ ، ٢٢١ ، ٣٥٢
نجم الدين أحمد بن محمد بن القمولى ٣٧٣
نجم الدين بن الأسعردى ٣٧٣
نجم الدين حسين بن محمد بن عبود ٣٦٤
نجم الدين محمد بن عثمان البصروى ٣٧٣
النشو (شرف الدين) ١٢٣ ، ١٣٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٣
نصر محمد اللحيانى ١٧٨
نور الدين محمود سلطان حلب ٣٥١

(هـ)

هارون الرشيد ٣٥٠
هشام بن عبد الملك الأموى ٣٤١
هولاكو زعيم المغول ١٤٤
هيثوم ملك أرمينيه ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠

(و)

الواثق بالله ابراهيم ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
الواثق بن المعتصم ٢٣٣
وجيه الدين محمد بن عبد المعطى ٣٥٩
الوليد بن عبد الملك الأموى ٣٤١

(ى)

أبو يعقوب المرينى (صاحب المغرب) ١٧٨
يعقوب (ملك أرغونة) ٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨
يغمور ٢٠١
يلبغا اليحياوى ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩
يوحنا الثانى والعشرين (البابا) ١٧٥

٢ — الوظائف

(ا)

أتابك العساكر ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣١١

أجناد الحلقة ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

الأجناد الفرانيص ٢٩٩

أدوان الأمراء ١٨٨

أرباب القضب ١٨٩

أسبا سلار ١٩٤

الأستادار ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤

أستادار الصحبة ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٦

الأعوان ٣٥٦

أمراء المشور ١٩٠

الأمراء المطوقون ١٨٩

الأمناء ٣٥٤ ، ٣٥٦

أمير آخور ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٨

أمير جاندار ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٣٧٠

أمير الجيوش ٢١٦

أمير خمسه ٣٣ ، ١٨٨

أمير سلاح ١٢٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢١٠ ، ٣١١

أمير شكار ٢١٦

أمير طبر ٢١١ ، ٢١٣ ، ٣٠٨

أمير طبلخاناة ٣٣ ، ١٠٦ ، ١٥٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٣٠١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٥

أمير عشرة ٣٣ ، ١١٨ ، ٣٠٢

أمير علم ١٩٨ ، ٢٠٥

أمير مائة مقدم ألف ٣٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٠ ، ٣٠١ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩

أمير مجلس ١٩٠ ، ٢١٠ ، ٢١٦

الأوجاقية أو الأوشاقية ٢٠٨

أولاد الناس ٣٠٠

(ب)

بابا (مهتار الطست خاناه) ٢٠٤

البارودية ٣١١

البازدار ٢١٥

باش ٣٠٠

البراج ١٨٥

البريدى ٢١٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦

البشمقدار ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨

البندقدار ٢١٦ ، ٢١٨

obeikandl.com

(ت)

الترجمان ٣٦٥

(ج)

الجاشنكير ٢٠٢ ، ٢١٨

الجاويشيه ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٨

الجمدار ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٣٦٨

الجمقدار ٢١٣ ، ٢١٨

الجوكان دار ١٩٨ ، ٢١٤ ، ٢١٨

(ح)

الحاجب ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٩٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٩

حاجب القاضى ٣٥٦

حارس الطير ٢١٥

الحون دار ٢١٥

الحون داريه ٢١٥

(خ)

الخازندار ٦١ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٣٧٦

خازندار الصنف ٢٠١

خازندار العين ٢٠١

الخاصكيه ٣٥ ، ٦١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٩٩ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٦٨

خشداش ٣١ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧١

الخوان سلار ٢٠٣

(د)

الدوادار ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ، ١٥٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٦٩

(ر)

رأس نوبة ٣٨ ، ١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٣١١

رأس نوبة الأمراء ٣١١

الرختواتية ٣٠٤

الركاب دار ٢١٣

(ز)

الزردكاش ٣١٠

زم الرجال ٣٠٢

(س)

الساقى ٢٠٣ ، ٢١٨

السراخور ٢٠٧ ، ٢٠٨

السواس ٢٠٧ ، ٢٠٨

السوّاق ٢٨٤

(ش)

شد الزردخاناه ٣١٠

شد الشراب خاناه ٢٠٤ ، ٢١٦

شد العمائر ٩٨ ، ٣١٤

شيخ الشيوخ ٢٩٢ ، ٣٥٥

(ص)

صاحب الباب ١٩١

صاحب بيت المال ٢٠١

صاحب ديوان الجيش ٢٩٧

obeikandl.com

الصاحب الشريف ٣٢١
صاحب الصحبة الشريفة ٢٦٠
صاحب العسس ٢٦٢
صاحب المجلس ١٩٠ ، ٣٥٦
صاحب المظالم ١٩٠ ، ٢٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٤
صاحب المظله ٢١٤ ، ٢١٥
صاحب المكس ٩٢ ، ٣١٦
صبيان الحجر ٢٩٩
صبيان الركاب الخاص ٢٠٧ ، ٢١٤

(ط)

الطرداريه ٢١٣
الطرحان ٣٤٨ ، ٣٤٩
الطست دار ٢٠٤ ، ٢١٨

(ع)

العدول ٢٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦١
العلم دار ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨
العوين ٣٥٦

(غ)

الغلمان ٧٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣١٣

(ف)

الفراشون ٢٠٤

(ق)

قاضى العسكر ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢
قاضى القضاة ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨

(ك)

كاتب الدرج ٢٧٦ ، ٢٧٧
كاتب الدست الشريف ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
كاتب السر ١٣٤ ، ١٩٠ ، ٢٤٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
كاتب المجلس ٣٥٦
كاشف الجيزه ٢٧٠
كاشف الشرقية ٢٧٠
كاشف الطير ٢١٥
كاشف الغربية ٣٧٠
كاشف القليوبية والمنوفية ٢٧٠
كافل المملكة الشريفة الاسلامية ٢٤٥ ، ٢٤٦
الكوسى ٢٠٥
الكيال ٢٣٨

(م)

المحتسب ١٩٠ ، ٣٣٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤
المحفدار ٢١٤

obeikandl.com

المدرا ٢٨١
المرقدار ٢٠٣
مستوفى إقطاعات الديار الشامية ٢٩٤
مستوفى إقطاعات الديار المصرية ٢٩٤
مستوفى إقطاع العرب ٢٩٧ ، ٢٩٨
مستوفى الجيش ٢٩٤ ، ٢٩٧
مستوفى الخاص ٢٩١
مستوفى الدولة ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٣٢١
مستوفى الرزق ٢٩٤ ، ٢٩٨
مستوفى الصحبة ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣٢١
المشرف ٢٠٢
المشير ١٩٠ ٣٦٩
المفتى ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
مقدم البريديه ٢٨٥
مقدم المماليك ٣٧ ، ٣٨ ، ٢١٠
مماليك الأمراء ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠
المماليك البرجية ٣٥ ، ٥٤ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٤٤
المماليك السلطانية ٣٦ ، ٢١٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠ ، ٣٧٤
مماليك الطباق ٣٦ ، ٢٩٩
المماليك الكتابية ٢٩٩ ، ٣٣٨
المنقر ٢٠٥
المهتار ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
مهتار الطبلخاناه ٣٠٦
المهمرد ٢٠٧
المهمندار ٢٠٥ ، ٢٠٦
الموقعون ٢٧٥

(ن)

نائب الاسكندرية ٢٦٧
نائب السلطنة ٤٦ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ١٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٩٤
نائب صاحب الباب ٢٠٥
نائب الغيبة ٢٤٦
نائب القلعة ٢٦٢ ، ٢٦٣
ناظر إرث الخاص ٢٩٢
ناظر البيوت والحاشية ٢٠١
ناظر ثغر الاسكندرية ٢٩٢
ناظر الجيش ٢٩٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ناظر الخاص ٩٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٢٤
ناظر الخزانه ٢٩١ ، ٣٥٥
ناظر الدواوين ٢٦٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٥
ناظر الدوله ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣٢١ ، ٣٦٧
ناظر النظار ٢٥٩ ، ٢٦ ، ٣٢١

obeikandi.com

النفطية ٣١٠ ، ٣١١
نقيب الجيش ١٥٨ ، ١٦٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٣٢
النوساب ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨

(و)

والى الأشمونين والطحاويه ٢٦٨
والى الأطفيحية ٢٦٨
والى البحيرة ٢٦٧
والى البهنساوية ٢٦٨ ، ٣١٩
والى ثغر عيذاب ٢٦٨
والى الجيزة ٣٦٨
والى الدقهلية ٢٦٧
والى دمياط ٢٦٧
والى الطوف ٢٦٢
والى الغربية ٢٦٧
والى القاهرة ١٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٩٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦
والى القرافة ٢٦٢
والى قطيا ٢٦٧
والى القليوبية ٢٦٧
والى قوص ٢٦٨
والى القوصية والأخميمية ٢٦٨
والى المنفلوطية ٢٦٨
والى المنوفية ٢٦٧
والى الولاه ٢٧٠
الوزير ٢٥٦
والى الولاه ٢٧٠
الوزير ٢٥٦
وزير الصحبة ٢٢٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٦٢

(ى)

يسّول ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٦

٣ — الدواوين

ديوان الأحباس ٢٤٣ ، ٢٧٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨
ديوان الأسطول ٣١٧
ديوان الاصطبلات ٢٩٢
ديوان الإنشاء ١٨ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
ديوان الاهراء ٢٩١
ديوان الجيش ٣٠ ، ٢٤٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧
ديوان الجيش الشامى ٢٩٧
ديوان الخاص ٢٤٣ ، ٢٧٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٤
ديوان الخزانه ٢٩٢
ديوان العمائر ٢٩٢

obeikandl.com

ديوان الطواحين ٢٩١
ديوان المرتجعات ٢٩١
ديوان المستأجرات ٢٩٢
ديوان المواريث الحشرية ٢٩٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٢
ديوان النظر ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٣٠١

٤ — الضرائب والاصطلاحات الاقتصادية

الإقطاعات ٢٢ ، ٣٠٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩
الجسور السلطانية ٣٢٧
الجسور البلدية ٣٢٧
الجوالى ٣٢٣
الحبس الجيوشى ٣٣٨
خصم الكيالة ٣٣٨
الرسوك الحسامى ٣٠٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٣
الرسوك الناصرى ٣٠٣ ، ٢٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
الرسوك الصلاحى ٣٤١
زكاة الدولة ٣٢١ ، ٣٢٣
ضريبة حماية المراكب ٣٣٧
ضريبة نصف السمسرة ٣٣٧
ضريبة الأرض (أو الخراج) ٣٢٢
ضمان الجمال ٣٢٤
العبرة ٣٤٢ . ٣٤٣
الفدان الجيشى (أو الاقطاعى) ٣٢٤
متحصل المواريث الحشرية ٣٢٣
متحصل جهات آدر الضرب ٣٢٤
متحصل ثغر الاسكندرية ٣٢٤
متحصل مقايضات البهار ٣٢٤
المثال ٣٣٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤
المربعة ٣٤٠
مقرر السجون ٣٣٧
مقرر طرح الفراريج ٣٣٧
مقرر الأعصاب والمعاصر ٣٣٧
مقرر رسوم الأفراح ٣٣٧
مقرر جباية الدينار ١٣١
المكوس (الرسوم الجركية) ٣٢٣
مكس باب الجابية ٣٢٣
مكس ساحل الغلة ٣٣٧
منشور الإقطاع ٣٤٠

obeikandl.com

٥ — الأدوات والملابس المستعملة فى الحروب والمواكب والصيد ونحوها

الأبزيم ٣١٥

الاعزارى ٣١٨

الأغربة (الغربان) ٣١٨ ، ٣٢٠

البردة ٢٢٥ ، ٢٢٧

البطس ٣١٢ ، ٣١٨

الجاليش ٣٠٧

الجبة ٢٢٥

الجتر ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤

جراوة البندق ٢١٦

الجوكان ٢١٤

الحرايق (الحراقات) ٣١٧ ، ٣١٨

الخف ٣١٥

الخنجر ٣٠٨

الدبابات ذوات العجل ٣٠٨

الدبوس ٣٠٨ ، ٣٢٢

الدبوقة ٣١٥

الدراعة ٢٢٥

الدرع ٢٢٥ ، ٣١٠ ، ٣١٢

الرمح ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٠٨ ، ٣٣٦

السقمان ٣١٥

السلالير ٣٢٠

السنجق ١٥١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

السهم ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

السيف ٤٥ ، ٥٩ ، ١٣٥ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٣٠

الشبابة السلطانيه ٤٨ ، ٢١١ ، ٢٦٩

الشد ٢٢٥

الشوانى ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠

الشياطى ٣٠٠

الصوالق ٣١٥ ، ٣١٦

الصولجان ١٩٨ ، ٢١٤

الضبور ٣٠٨

الطبر ٢١٣ ، ٣٠٨

الطبول ٢١٣ ، ٣١٨

الطرائد (الطرادات) ٣١٧ ، ٣١٨

الطرحات ٣٥٩ ، ٣٦٠

الطوق الذهب ١٨٩

العشاريات ٣٢٠

العصابة ٢١٤ ، ٣٠٦

العمامة ١٢٣ ، ٢٢٥ ، ٣١٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠

الغاشيه ٤٨ ، ٢١١ ، ٢١٢

فرس النوبه ٢٧١ ، ٢١١ ، ٢٢٥

القباء ٦٢ ، ٣١٥ ، ٣٣٤

obeikandl.com

القراقر ٣٢٠
القلاع المتحركة ٣٠٨ ، ٣١٠
القوس ٢٠٨ ، ٣١٠
الكبش ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
الكلوتات ٣١٥
الكمران ٣١٥
الكنبوش ١٩٥ ، ٢٢٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧
الكوسات ١١٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٣٠٦
المركوس ٣١٨
المسطح ٣١٨
المنجنيق ١٥٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣١٠ ، ٣٢١
المهماز ٣١٥
النار اليونانية ٣١٠ ، ٣١٨
النبال ٣٠٨
النشاب ٤٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٣٦
النقارات ٥٢٢ ، ٣٠٦
لنجاه ٧٨ ، ٢٦٩
النيزك ٣٤٩

٦ — الأماكن التى كانت تودع فيها الأدات المستعملة فى الحروب والمواكب

الاصطبلات السلطانية ١٩٥
الإيوان ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٦٩ ، ٣٠١ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
الحوائج خاناه ١٩٢ ، ١٩٣
خزانة البنود ٣١٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦
خزانة السلاح ٣١٠
خزانة شمايل ٣٧٤
خزانة الفراش ١٩٤
دار الآثار العربية ١٠٦ ، ١١١ ، ١٨٧ ، ٢١٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٦٦
دار الصناعه ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩
دار الضرب ٣٢٣ ، ٣٥١
دار العدل ٢٣٣ ، ٣٠٦ ، ٣٤٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٠
دار العيار ٣٧١
الدور السلطانيه ٩٨
الركاب خاناه ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٤
السلاح خاناه (النرد خاناه) ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٢٣٢
الشراب خاناه ١٩٣ ، ٢٠٠
الشكار خاناه ٢١٦
صناعة الجزيره ٣١٧
صناعة العمائر ٣١٦
الطبلخاناه ١٥٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٣٠٦
الطست خاناه ١٩٣ ، ٢٠٠
الفراش خاناه ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٠
قاعة الأعمدة ٢٢٤

obeikandl.com

القصر الأبلق ٩٦ ، ١٠٦ ، ٣٧٠
قلعة الجبل ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ ،
٥٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥
٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠
٩١ ، ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،
١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٥٩ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٣١ ،
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٨٢ ،
٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
٣٠١ ، ٣١٣ ، ٣٧٤
قلعة الروضة ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ،
٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٦
المناخات ١٩٥
المودع ٣٥٣

٧ — البلدان

أمد ١٦٩
أبو الطامير ٥٩
ابوان ٢٦٦
ابيار ٢٦٦
أخميم ٣٦٨ ، ٣٠٣ ، ٣٦٤
ادفو ١٦٣
أردبيل ١٥٧
أرغونة ٢٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ،
١٧٦ ، ١٧٨
أرواد ١٣٨ ، ١٧٥ ، ٣١٨
الاسكندرية ٣٠ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٢٥ ، ١٢٩
١٣٧ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ،
٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ،
٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ،
٣٢٤ ، ٣٥٢ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢
أسوان ١٦٣
أسيوط ٢٦٨ ، ٣٢٣
اشموم طناح ٢٦٦
الأشمونين ٢٦٨
أطفيح ٢٦٨
أم دنين ٣١٦
اياس ١٦٩
برشلونة ١٢٩
برقة ٩٣ ، ١٩٤
بغداد ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٩٣ ، ١٤٦ ، ١٦٣ ،
١٧٣ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ،
٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٨٥ ،
٣٦٧
بلبيس ٢٦٦ ، ٢٧٠
البندقيه ٣٠
البهنسا ٢٦٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣
بولاق ٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩
بيت المقدس ٨١ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٢
١٧٣ ، ٢٢٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٤
بيسان ٤٥
تبريز ٩٨ ، ٩٩
تروجه ٥٩ ، ٣٠٤
تنيس ٣٠٤

obeikandl.com

تونس ١٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٦٢

جمنوه ٣٠

الجيزه ٢٦٨ ، ٢٧٠

حلب ٤٤ ، ٦٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٧٣ ، ٣٠٢ ، ٣٣٦

حماه ٣١ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٤٨ ، ٢٦٩ ، ٣١١ ، ٣١٢

حمص ٥٦ ، ٧٦ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ، ٢٥٠

الخزندار ١٥٠ ، ١٥١

دقهليه ٢٦٦

دلاص ٣٢٧

دمشق ٣١ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٧ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠

دمنهور ٢٦٦

دمياط ٢٦٦ ، ٢١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥٩

دنجويه ٢٦٦

دهلى ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٤٢

رشيد ٢٦٦ ، ٣٢٤

رمسيس ٢٦٦

رودس ٣١٩

سخا ٢٦٦

سرياقوس ٩٦ ، ٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢

سمنود ٢٦٦

سنهور ٢٦٦

سواكن ٢٦٩

سيس ٥٢ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ٢٧٣

سيواس ٣٠

الشوبك ٢٥٠ ، ٣٣٧

الصالحيه ٤٥ ، ٤٦ ، ٣١٦

صرخد ٧٢ ، ٨٥

صفد ١٦٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٣٠٢

صقليه ٣١٦

الصلاحيه ١٥٢ ، ١٥٣

طبريه ٧٠

طرابلس ٥٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٣٠٢ ، ٣١٩

الطرانة ٥٩ ، ٣٢٣

طمريس ٢٦٦

طندتا ٢٦٦

عبادان ١٦٣

عدن ١٦٣ ، ٣١٦

عزقية ١٦٩

obeikandl.com

العسكر ٢٦٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧
عكا ٥٦ ، ٥٨ ، ١٧٥ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦
عينداب ١٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٣٢٤
عين جالوت ٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٢١
غزه ١٦٨ ، ٢٥٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٣٠٢ ، ٣٣٧
فاقوس ٤٥ ، ٢٦٦ ، ٣٢٣
الفسطاط ٢٦٢ ، ٣١٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
فوه ٢٦٦ ، ٣٢٤
الفيوم ٢٦٨
قاليقوط ١٦٤
القاهرة ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٧٩ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٦٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
القسطنطينية ٨٩ ، ١٢٧ ، ١٦٦ ، ٣٣٨
القصير ٤٥ ، ١٦٣ ، ٢٦٩
القطائع ٢٦٢
قطيا ٣٤٩
القفجاق ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٥٢ ، ١٤٣ ، ١٦٦ ، ١٧٨
القلزم ١٦٣
قلقشندة ١٨
قليوب ٢٦٦ ، ٢٧٠
قوص ١٠٦ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٣٣١ ، ٣٥٤
قويسنا ٢١٦
قيساريه ٥١ ، ١٢٠ ، ٢٥٧
كابل ١٦٢
كافا ٣٠
كربلاء ١٥٧
الكرك ٣٩ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٢٧٣ ، ٢٨٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٥٢
لاهور ١٦٢
اللجون ٧٠
ماردين ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٧٧ ، ١٧٨
المحلة الكبرى ٢٦٦ ، ٢٧٠
المدينة المنورة ١٠٦ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٣٥٣
مراغة ١٦١
مراكش ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٧٤
مرج الصفر ٥١ ، ٩٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦
المرقب ٥٦ ، ٦١
المقس ٩٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٣

obeikandl.com

الملتان ١٦٢
مكة ١٠٦ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٩٤
ملطيه ١٦٨
منفلوط ٢٦٨
منوف ٢٦٦ ، ٢٧٠
منوف العلا ٢٦٦
الموصل ٤٥
نابلى ٣٢٨
النحريريه ١٦٤
نستراوة ٢٦٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٣٢٤
هرمز ١٦٣
هيت ٢٢٣ ، ٢٢٨

obeikandl.com

فهرس

باسماء الوثائق ، والجداول ، والخرائط ، والصور الواردة فى الكتاب

١ — الوثائق التى أُشير إليها فى الكتاب[1]

موضع الإشارة اليها فى الكتاب

١ — وصية مقدم المماليك ٣٧
ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٩٨ — ٩٩ [2].

٢ — نص اليمين التى كانت تؤخذ عند مبايعة السلطان الجديد . . . ٤٦
العمرى : التعريف ص ١٤٦ — ١٤٨ . . . . .

٣ — نص تولية السلطان الظاهر بيبرس عهده لابنه الملك السعيد بركة خان . ٤٨
القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٣ — ١٦٦ [3] . . .

٤ — نص تجديد الحلف بتولية السلطان بيبرس العهد لابنه بركة خان . . ٤٩
المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٦٩ — ٩٧١ ملحق رقم ٣ نقلا عن النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ١٢٣٩ — ب . . .

٥ — نص تقليد علاء الدين علىّ بن قلاوون ولاية العهد . . . ٥٧
القلقشندى : نفس المصدر ج ١٠ ص ١٧٣ — ١٧٧ [4] . . .

٦ — نص تقليد خليل بن قلاوون ولاية العهد ٥٧
القلقشندى : نفس المصدر ج ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ . . .

٧ — كتاب الناصر محمد من الكرك إلى الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير بالقاهرة أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٩ . . . ٨٣ — ٨٣

---

(١) لم نثبت فى كتابنا النصوص الكاملة لهذه الوثائق لأنها مدونة فى كتب منشورة ، واكتفينا بإيراد بعض الفقرات المطلوبة لتوضيح الحقائق التاريخية ولإعطاء فكرة عن الطريقة التى كانت تكتب بها تلك الوثائق .

(٢) وردت هذه الوثيقة فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٣٧ . وقد أورد القلقشندى فى كتابه هذا أكثر الوثائق التى دونها ابن فضل الله العمرى

(٣) وردت هذه الوثيقة فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة (مخطوط) ج ٩ ورقة ٤٢ — ٤٤

(٤) نشر بيبرس الدوادار : نفس المصدر والجزء ورقة ٨٢ — ٨٥ هذه الوثيقة

موضع الاشارة اليها
فى الكتاب

٨ — رد سلار وبيبرس على الناصر محمد بالكرك . . . . . ٨٣ — ٨٤
أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٨٠ . . . . . .
٩ — كتاب قراسنقر وقبجق واسندمر نواب الشام إلى الناصر محمد بالكرك ٨٧
أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٤١ . . . . . .
١٠ — رد الناصر محمد على نواب الشام ٨٧
أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٤٢ . . . . . .
١١ — كتاب السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير إلى قراسنقر نائب حلب ٨٨
أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٣٤٢ . . . . . .
١٢ — كتاب الناصر محمد إلى نواب حلب وطرابلس وحماه . . . ٨٩
ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥١ . . . . . .
١٣ — تجديد الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان البيعة للسلطان . ٩٠
بيبرس الجاشنكير . أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٦٣ .
١٤ — مرسوم رجب سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) خاصا بالقيود التى فرضت . ١٢٤
على النصارى واليهود. المقريزى : كتاب السلوك ج١ ص ٩١٠ — ٩٦١ .
١٥ — نص المراسلات المتبادلة بين السلطان الناصر محمد ويعقوب ملك أرغونة ١٢٨ — ١٣١
A S. Aliya : Egypt and Aragon, pp. 18—75. . . ١٣٦ — ١٣٨
١٦ — مرسوم السلطان الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد فى جمادى ١٣٨
الآخرة سنة ٧٥٥ هـ خاصاً بالنصارى واليهود . . . .
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ٥ القسم الأول ص ١٣٣ .
١٧ — منشور غازان لأهل دمشق . . . . . ١٥١ — ١٥٢
ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٤٠ — ٦٤٤ . . . . .
١٨ — كتاب غازان إلى الناصر محمد. . . . . ١٥٥ — ١٥٩
القلقشندى : نفس المصدر ج ٨ ص ٦٩ — ٧١ . . . . .
١٩ — رد الناصر على غازان . . . . . ١٥٦ — ١٥٧
القلقشندى : نفس المصدر ج ٧ ص ٢٤٣ — ٢٥٠ . . . . .
٢٠ — كتاب الخليفة المستكفى بالله إلى الربيع سليمان إلى الملك المؤيد. . ١٧٠
هزبر الدين داود صاحب اليمن سنة ٧٠٧ هـ . القلقشندى : نفس
المصدر ج ١٢ ص ٤٢١ — ٤٢٦ . . . . . .

لا يتعدى اختصاصه النظر فى المسائل الماليـــة . ونظـم المماليك دواوين الحكومة واستحدثوا وظيفة ناظر الخاص عند ما ألغيت الوزارة فى عهـد السلطان الناصر محمد سنة ٧٢٧ هـ . وكانت تلك الدواوين تسير على نظام إدارى واحد . وسار نظام الحكم فى نيابات الشام وفق نظام الحكم فى مصر ، وتمتع نواب السلطنة بشىء غير قليل من النفوذ . وكان لكل نيابة دواوينها وجيشها الذى يذود عنها . وبلغ نظام البريد شأوا بعيدا من الرقى حتى أصبح يربط بين أجزاء الدولة المملوكية ويصل بعضها ببعض ، واستخدم حمام الزاجل فى نقل الرسائل من جهة إلى أخرى فى أقرب وقت ممكن ، وكان بمثابة البريد الجوى فى ذلك العصر .

وكانت تجارة مصر الخارجية نافقة فى عصر المماليك الذين كانوا — كما كان الأيوبيون من قبلهم — أصحاب النفوذ المطلق فى مصر والشام والحجاز ، فوقعت فى قبضتهم جميع الموانى وطرق القوافل بين أوربا وبلاد الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى . وسيطر المماليك على تجارة الشرق حتى فاضت خزائنهم بما كانوا يجبونه من الضرائب على تلك التجارة . أما موارد الدولة المالية فقد عُنى المماليك بتوسيع نطاقها وجبوها من نواح عدة حتى يتمكنوا من القيام بأعباء المشروعات الهامة النافعة لجميع مرافق البلاد وما تتطلبه من ضروب الإصلاح ، كما عُنوا بمسح الأرض ، فمسحت مرتين : الأولى فى عهد السلطان لاچين والثانية فى عهد السلطان الناصر محمد ، ليتسنى لهما جبايتها وفرض الضرائب عليها وتوزيع إقطاعات الجند والأمراء .

ولما كانت الدولة المملوكية قائمة على أساس القوة ، كان الجيش أول ما عُنى به هؤلاء المماليك ، لأن تربيتهم ونشأتهم الأولى إنما قامت على نظام حربى . ومن ثم نظموا جيشهم تنظيما بديعاً يكفل لهم صون مصلحتهم والدفاع عنها ، فنظّموا ديوان الجيش وأنشئوا فيه كثيرا من الرتب العسكرية .

وتاريخ القضاء المصرى فى دولة المماليك حافل بمواقف مشرفة للقضاة فى وجـــه السلاطين والأمراء ، دافعوا فيها عن الحق وذادوا عن كرامتهم واستقلالهم . لهذا لا نعجب إذا بلغ النظام القضائى حدا بعيداً من الرقى ، بعد أن أدخل عليه السلطان الظاهر بيبرس كثيرا من ضروب الإصلاح ، وأصبح القضاة يصدرون أحكامهم وفق المذاهب الأربعة ، وتعددت السلطات القضائية ، ونظمت المحاكم ، وغدا للقاضى معاونون

يعاونونه فى إصدار الأحكام وتنظيم الجلسات . وزادت عناية سلاطين المماليك بنظام القضاء حتى كان السلطان يتصدر « مجلس القضاء » للنظر فى المظالم .

* * *

ذلك العصر الذهبى فى تاريخ مصر الإسلامية هو الذى عكف الدكتور على ابراهيم حسن على بحثه ودراسته ، فأخرج لنا هذا الكتاب الذى يُعد صفحة ناصعة من صفحات التاريخ المصرى المجيد .

وقد استهل المؤلف كتابه ببحث المصادر الأصلية ، منشورة أو مخطوطة ، عربية وأفرنجية ، التى اعتمد عليها . والكتاب قسمان :

القسم الأول : وهو عبارة عن دراسة تفصيلية لتاريخ دولة المماليك البحرية السياسى ، وفيه بحث المؤلف : المميزات الرئيسية لهذه الدولة ، وسلطنة المماليك فى مصر قبل عصر الناصر محمد ، ثم سلطنة الناصر وأولاده وأحفاده ، وعلاقة سلاطين المماليك بالشعب ، والسياسة الخارجية من حروب وعلاقات دولية .

وفى القسم الثانى من هذا الكتاب بحث المؤلف نظم الحكم المملوكية وما اقتبسه هؤلاء السلاطين عن غيرهم ، فعرض فى إسهاب ووضوح مبدأ الوراثة فى سلطنة المماليك ، وألقاب السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطانى فى داخل القصر وفى المواكب . كما بحث نظام الخلافة العباسية فى القاهرة ، ونُظُم الحكم المملوكية الإدارية ، والحربية ، والمالية ، والقضائية .

وذُيّل الكتاب بعدة ملاحق ، استرعى نظرنا فيها ذلك الكشّاف الشامل لأسماء الأعلام ، والوظائف ، والضرائب ، والاصطلاحات الاقتصادية ، والدواوين ، والبلدان والأدوات المستعملة فى الحروب والمواكب ، والأماكن التى كانت تودع فيها هذه الأدوات . ولا شك أن هذا العمل يزيد فى قيمة الكتاب ويُسهل على القراء كَشْف كثير من الحقائق التاريخية إذا ما أرادوا بحث مسألة من المسائل ، كما يُبين مدى الجهد الذى بذله المؤلف فى إعداده . واسترعى نظرنا أيضاً ذلك الفهرس المفصل ، لبيان الوثائق ، ومنه يتبين أن المؤلف اطلع على ستين وثيقة من الوثائق التاريخية القيّمة ، اهتدى اليها فى بطون الكتب ، فى غير ترتيب ولا نظام ، مما جعل الاهتداء اليها أمراً عسيرا . هذا إلى ما نراه من الجداول والخرائط والصور التى زيّن بها كتابه .

هذا الكتاب الجديد هو ثمرة جهد متصل ، استغرق عدة سنوات ، قام المؤلف فى خلالها بجمع الحقائق ، وترتيبها ، وتمحيصها ، وشرحها ، واستنتاج الآراء العامة منها . وقد اطلع الدكتور علىّ على كثير من أمهات المصادر الخطية والمنشورة وما نشر من بحوث فى المجلات العلمية ، حتى أنه لم يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها وكشف اللثام عنها .

والكتاب لهذا يعتبر دراسة دقيقة ، وبحثا مستفيضا ، وإحاطة شاملة لتاريخ دولة المماليك البحرية من الناحية السياسية ومن ناحية نظم الحكم ؛ وخاصة فى عصر السلطان الناصر محمد ، أعظم سلاطين تلك الدولة ، وأطولهم حكماً ، وأكثرهم شهرة ، وأوفرهم إنتاجاً ، وأكثرهم استقرارا . ويُعتبر عصره أزهى عصور دولة المماليك البحرية : لأن فيه توطدت دعائم هذه الدولة ، وبدأت أساليب الحكومة والإدارة فى الاستقرار ، كما ازدهرت الفنون حتى عدّ المؤرخون عصره أزهى عصور الفن فى دولة المماليك خاصة وفى تاريخ مصر الإسلامية عامة . واستمر هذا العصر فترة طويلة بلغت ثمانية وأربعين عاماً .

وقد استطاع المؤلف أن يمدنا ببحث مبتكر ، يفيد العلم فائدة محققة ، وينير الطريق أمام الباحثين فى تاريخ دولة المماليك وهو بذلك أعظم وثيقة ظهرت فى تاريخ المماليك حتى اليوم . والدكتور علىّ يستحق لذلك كله ، كل تقدير وكل إعجاب وكل ثناء ، كما يستحق التهنئة الخالصة على ما أصاب من توفيق فى سبيل إخراج هذا الكتاب .

١٥ / ٨ / ١٩٤٤ حسن ابراهيم حسن

كلمة شكر

أتوجه بالشكر الخالص إلى الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية أستاذ التاريخ بجامعة فاروق الأول، على ما تفضل به علىّ من كريم التشجيع وحُسن التوجيه. فقد أفسح لى من وقته، ودلّنى على كثير من المصادر القيمة والمخطوطات النادرة. وإنى إذ أشكر له فضله، إنما أؤدى بعض ما يجب له.

وأتقدم كذلك بأجمل عبارات الشكر لحضرات الأساتذة الأجلاء الذين عاونونى فى هذا البحث:

أشكر الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن؛ إذ هو القَبَس الذى به اهتدى، والمَثَل الذى احتذى، والنَّهْج الذى عليه أسير، وهو لى دائماً أكبر مشجع وخير معين، وله منى هنا عرفان الجميل أسجله شاكراً ممتناً، لتفضله بقراءة هذا الكتاب، ولأنه أسبغ على الكتاب وصاحبه شرف التقديم إلى جمهور القارئين.

وأشكر الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال بك، الذى كان لآرائه السديدة فائدة جُلى. كما أشكر له اطراءه الجهود التى بذلتها فى سبيل إخراج هذا البحث، ولا سيما أن هذا الإطراء صادر من عالم جليل مثله.

والدكتور زكى محمد حسن جدير بكل ثناء وتقدير، فطالما تمكنت بمعونته من الاستفادة من كثير من المصادر الهامة. وكان لكتبه العديدة فى الفنون الإسلامية والرنوك والمسكوكات، ولآرائه السديدة التى أمدنى بها، أعظم الأثر وأجلّ الفائدة. وله فوق ذلك فضل إعارتى الصور التى نشرت فى هذا الكتاب.

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشكر للاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة، ما قدّمه إلىّ من معونة وما أشار علىّ به من مصادر، اعتمدت عليها فى بحث كثير من المسائل.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت اليه، والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل، فهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

٢١ — نص تفويض الخليفة المستنصر بالله أمور الدولة للسلطان . . . ٢٢٦
بيبرس سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) . القلقشندى : نفس المصدر ج
ص ١١٢ — ١١٦[1] . . . . . .
٢٢ — خطبتا الخليفة الحاكم بأمر الله بعد أن بايعه السلطان بيبرس . ٢٢٩
بالخلافة سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) . السيوطى : حسن المحاضرة
ج ٢ ص ٤٨[2] . . . . . .
٢٣ — نص مبايعة السلطان الناصر محمد للخليفة المستكفى بالله سنة . ٢٣١
٧٠١ هـ . السيوطى : حسن المحاضره ج ٢ ص ٤٩ — ٥٠ .
٢٤ — نص تقليد الخلافة للمتوكل على الله سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) . ٢٣٥
السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩ . . . . .
٢٥ — نص تقليد الخليفة الحاكم بأمر الله سلطنة مصر للسلطان لاچين . ٢٣٩
سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . القلقشندى : نفس المصدر ج ١٠ ص
٥٤ — ٥٨ . . . . . .
٢٦ — نص تقليد الخليفة المستكفى بالله سلطنة مصر للسلطان بيبرس الجاشنكير ٢٣٩
سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) . القلقشندى : نفس المصدر ج ١٠
ص ٦٩ — ٧٥ . . . . . .
٢٧ — نص تقليد نيابة السلطنة من إنشاء الشهاب محمود الحلا . . . ٢٤٤
القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ١٣٥ — ١٣٨ . . . .
٢٨ — وصية نائب السلطنة . العمرى : التعريف ص ٩٢ — ٩٣ . . ٢٤٥
٢٩ — نص تقليد الأمير سيف الدين أغرلوا نيابة السلطنة فى دمشق . ٢٥١
القلقشندى : نفس المصدر ج ١٢ ص ٨ — ١٢ . . . . .
٣٠ — نص تولية نيابة السلطنة للأمير طقزدمر فى عهد السلطان . . ٢٥٣

---

(١) أورد نص هذا التفويض أيضا كل من المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٥٣ — ٤٥٧ . وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١٢ — ١١٣ . والسيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) وردت هاتان الخطبتان أيضا فى ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤١٠ — ٤١١ ، وبيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٦٦ — ٦٨ . والمقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٧٧ — ٤٧٩ .

موضع الاشارة اليها
فى الكتاب

أبى بكر بن الناصر محمد سنة ٧٤٢ هـ . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٨
ص ١٤٣ — ١٤٨ . . . . . .
٣١ — نص وصية وزير ٢٥٦
العمرى : التعريف ص ٩٣ — ٩٤ . . . . . .
٣٢ — نص تقليد الوزارة للصاحب بهاء الدين بن حنا فى عهد السلطان السعيد . ٢٥٧
بركة خان بن بيبرس سنة ١٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) . القلقشندى : نفس
المصدر جـ ١٢ ص ٢٧٠ — ٢٧٤ . . . . . .
٣٣ — نص تقليد الوزارة للأمير سيف الدين بكتمر ٢٥٩
القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ١٤٩ — ١٥٣ . . . .
٣٤ — اليمين التى كانت تؤخذ على نواب القلاع عند تعيينهم فى وظائفهم
العمرى : التعريف ص ١٤٨ — ١٤٩ . . . . . ٢٦٣
٣٥ — نص تقلد والى الغربية ٢٦٧
القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٥ — ٤٧ . . . . .
٣٦ — نص تقليد والى الشرقية ٢٦٧
القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٣ — ٤٥ . . . . .
٣٧ — نص تقليد والى الاسكندرية ٢٦٧
القلقشندى نفس المصدر جـ ١١ ص ٥٧ — ٥٩ . . . . .
٣٨ — نص تقليد نائب ثغر الاسكندرية ٢٦٩
القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٠٥ — ٤٠٧ . . . .
٣٩ — نص تقليد بكتابة السر للقاضى شهاب الدين بن فضل الله . . ٢٧٤
القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٢٩٨ . . . . . .
٤٠ — نص تقليد بكتابة الدست ٢٧٥
القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٣٣٣ — ٣٣٥ . . . .
٤١ — نص وصية مستوفى الصحبه ٢٨٩
العمرى : التعريف ص ١١٥ . . . . . .
٤٢ — نص تعيين مستوفى الدولة ٢٨٩
القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٣٥٥ — ٣٥٦ . . . .
٤٣ — نص تقليد ناظر الخاص ٢٩٠

obeikandl.com

موضع الاشارة اليها
فى الكتاب

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٣١٧ — ٣١٩ . . . .

٤٤ — نص تقليد ناظر الخزانة ٢٩١

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ . . .

٤٥ — نص تقليد ناظر الخزانة ٢٩١

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٣٤٠ — ٣٤٢ . . .

٤٦ — نص تقليد ناظر ثغر الاسكندرية ٢٩٢

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٢٠ — ٤٢١ . . .

٤٧ — نص توقيع لناظر الديوان ٢٩٣

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٦٦ — ٩٨ . . . .

٤٨ — نص وصية ناظر الجيش ٢٩٧

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ . . .

٤٩ — كتاب السلطان خليل بن قلاوون إلى قاضى القضاة شهاب الدين بن النحوى ٣١٣
سنة ٦٩١ هـ بعد فتح قلعة الروم . تاريخ سلاطين المماليك ص ١١ — ١٢

٥٠ — نص مرسوم سلطانى بمنح الطرخانية لأحد الأمراء ٣٤٩

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١٣ ص ٥١ — ٥٢ . . . .

٥١ — نص تقليد قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز النظر فى أموال ٣٥٣
الأيتام والأوقاف بمفرده بالديار المصرية سنة ٦٦٣ هـ. . .

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ١٧٦ — ١٧٧[1] . . .

٥٢ — نص وصية قاض ٣٥٥

العمرى : التعريف ص ١١٦ — ١٢٣ . . . . . .

٥٣ — نص وصية قاضى العسكر ٣٥٧

العمرى : التعريف ص ١٢٣ — ١٢٤ . . . . . .

٥٤ — نص تقليد وجيه الدين محمد بن عبد المعطى الاسكندرى المالكى منصب ٣٥٩
القضاء بثغر الاسكندرية . . . . . .

القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٠٨ — ٤١١ . . . .

(١) وردت هذه الوثيقة أيضا فى النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٣٥ — ٣٦ .

obeikandl.com

موضع الإشارة اليها
فى الكتاب

٥٥ — نص تقليد علم الدين الاخفائى الشافعي منصب القضاء بثغر الاسكندرية ٣٥٩
القلقشندى نفس المصدر ج ١١ ص ٤١٢ — ٤١٢ . . . . .
٥٦ — نص كتاب القاضى ابن دقيق العيد إلى نائبه المخلص البهنسى قاضى أخميم ٣٦٤
المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٤٨ حاشية ١ نقلا عن النويرى .
نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١١ ا . . . . . .
٥٧ — نص وصية محتسب ٣٧٢
العمرى : التعريف ص ١٢٤ — ١٢٥ . . . . . .
٥٨ — نص تقليد حسبة الفسطاط ٣٧٢
القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ٢١٢ — ٢١٤ . . . .
٥٩ — نص أمر الإفراج عن مسجون ٣٧٥
المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٧٦٩ — ٧٧٠ حاشية ٤ نقلا عن
النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٩٨ ب . . . . .

٢ — الجداول

صفحة

١ — ثبت بأسماء سلاطين دولة المماليك البحرية (٦٤٨ — ٧٨٤ هـ = ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م) مبينا به مبدأ ونهاية حكم كل منهم بالسنين الهجرية والميلادية ٢٧
٢ — ثبت بأسماء سلاطين المماليك من أولاد الناصر مبيناً حرية مبدأ ونهاية حكم كل منهم بالتاريخ الهجرى والميلادى وسن كل منهم عند اعتلائه العرش ١١٨
٣ — ثبت بأسماء سلاطين المماليك من أحفاد الناصر مبينا به مبدأ ونهاية حكم كل منهم بالتاريخ الهجرى والميلادى وسن كل منهم عند اعتلائه العرش ١١٩
٤ — ثبت بأسماء الخلفاء العباسيين مبيناً به مبدأ ونهاية حكم كل منهم وأسماء سلاطين دولة المماليك البحرية المعاصرين لهم ٢١٩

obeikandl.com

صفحة

٣ — الخرائط

١ — خريطة اتساع الدولة فى سلطنة المماليك ، والممالك التى كانت لها بمصر علاقة فى ذلك العصر ١٤٥

٢ — خريطة تقسيم مصر الإدارى من منتصف القرن الخامس الهجرى نقلا عن خريطة رقم ٦ للأمير عمر طوسون ٢٦٤

٣ — خريطة تقسيم مصر الإدارى فى عهد السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ هـ ، نقلا عن خريطة رقم ٧ للأمير عمر طوسون . . . ٢٦٥

٤ — خريطة خطوط حمام الزاجل فى عصر المماليك ، نقلا عن كتاب تاريخ البريد فى مصر ٢٨٣

٤ — الصور

١ — قبة السلطان قلاوون ٣

٢ — منبر جامع ابن طولون من عصر السلطان لاچين ٧٥

٣ — واجهة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون فى النحاسين . . . ٩٧

٤ — الفسقية فى صحن مسجد السلطان الناصر حسن ١٠٩

٥ — لوح من الرخام كان فى مدرسة الأمير صرغتمش المشيدة سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) . وفى وسطه زخارف نباتية تشمل على صورة مشكاة من مشكايات المساجد وصور بعض الأوانى والطيور والأيادى . وهو محفوظ الآن فى دار الآثار العربية فى القاهرة ١١١

٦ — كرسى من النحاس على شكل منشور ذى ستة أطلاع ، مطعم بالذهب والفضة ومخرم . وسطحه وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية ، وفيه صور بط يطير ، وعليه كتابات فيها ألقاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، واسم الصانع محمـــد بن سنقر البغدادى ، وتاريخ صنعه (٧٢٨هـ = ١٣٢٧م) . وجد فى مارستان السلطان الناصر ومحفوظ الآن بدار الآثار العربية بالقاهرة ١٨٧

٧ — قناطر أبى المنجا وعليها رنك (شارة) السلطان بيبرس سنة ٦٦٥ هـ وهى السبع ، فى القسم العلوى للقناطر ١٩٧

obeikandl.com

صفحة

٨ — إناء من الفخار المطلى بالميناء الصفراء مزين من الداخل والخارج بكتابة صفراء منقوشة تحت طبقة من الميناء ومقسمة إلى مناطق بدوائر بها رنوك (شارات) موهة بالميناء باللونين الأحمر والبنى الغامقين . والكتابة باسم أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد . وهو محفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة ١٩٩

٩ — قطع من الفخار المطلى بالميناء الصفراء ، عليها رنوك من عصر المماليك . محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة ٢١٧

١٠ — مقلمة ومحبرة من عصر المماليك من الفضة المكفتة ٢٧٩

١١ — قطعة من النسيج من عصر المماليك ٣٢٩

١٢ — قطعة من النسيج من عصر المماليك ٣٣١

١٣ — إناء من الخزف المصرى فى القرن الثامن الهجرى . محفوظ بالمتحف البريطانى ٣٣٢

١٤ — علبة صغيرة من النحاس من عصر المماليك ٣٣٥

obeikandl.com

تصحيحات

نعتذر للقارئ عن وقوع بعض أغلاط مطبعية راجين منه أن يتفضل باصلاحها قبل قراءة الكتاب :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠	٢	وبالناس	وما بالناس
٢٠	١٤	ونغرقة	وتفرقه
٢٠	٢٢	أهمية	أهميته
٣٧	٢٢	وليحمل	وليجمل
٣٨	٤	فذلك	فلذلك
٤٥	٢٠	بيبرس	[يأتى قبلها] فقال الأمير
٤٥	٢١	فقال الأمير	تحذف
٤٦	٣٠ حاشية ٤	11 (1829), pp.3-4 Journal Asiatique 1. Série	Journal Asiatique1.Série11; (1829), pp. 3-4.
٥٢	٨	أعلى	أغلى
٥٣	١	وعظيم	وعظم
٦٤	١	تزوجه	نزوجه
٦٥	٢	٦٩٣هـ=١٢٩٣ — ١٢٥٤م	٦٩٣ـ٦٩٤هـ= ١٢٩٣ـ١٢٩٤م
٩٢	٢٧ حاشية ٣	وتقانيهم	وتفانيهم
١١٠	٩	والنهى	والتهى
١١٤	١٢	أبلغت	تحذف
١١٨	٦	٧٤٣هـ	٧٤٧ هـ
١٢٠	٢١	فى	وفى
١٢١	١٨	وله	ولا
١٣٠	٢٧	كومسن	كومس
١٣٤	٢٨	مدير	مدبر
١٤٧	١٣	بين	بن
١٥٢	١١	الرغبة	الرعية
١٥٢	١٤	إلى	تحذف
١٦١	٥	يضاف بعد كلمة ماردين :	فخلت بهؤلاء
١٨٦	٢٠	وخشى	ولخشى
٢١٠	١٢	الذين	الذى
٢٢٦	٤	الدول	الدولة
٢٣٩	٣٠	٥٩	٦٩
٢٤٠	١٦	وزيادة	وزيارة
٢٤٣	١٣	الاحباس	المالية
٢٥٥	١٥و١٦	فى ذلك العصر	تحذف
٢٦٠	٢١	الناصر برقوق	الظاهر برقوق
٢٦٧	١٨	البهنقى	البهنسى
٢٨٢	٢	واليمن	فى اليمن
٢٩٧	٢٥	١٩	١١
٣٢٧	٢٥	والخيول الأمراء	ولخيول الأمراء
٣٤٧	١٢	للدول	للدولة
٣٥٥	٢	أبنائه	أبناء الناصر
٣٧٩	١١	السؤال	السُّؤْل

كتب المؤلف

١ — تاريخ جوهر الصقلى (القاهرة ١٩٣٣)

٢ — النظم الإسلامية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة ١٩٣٩) .

٣ — النظم الإسلامية للسنة التوجيهية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ محمد عبد الرحيم مصطفى كبير مفتشى المواد الاجتماعية المساعد بوزارة المعارف. (القاهرة ١٩٤٣) .

٤ — دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، وهى الرسالة التى نال بها درجة الدكتوراه فى الآداب (التاريخ الاسلامى) من جامعة فؤاد الأول برتبة الشرف الممتازة (القاهرة ١٩٤٤) .

٥ — الجيش والبحرية فى عصر المماليك : الرسالة الثالثة والخمسون من رسائل الثقافة العسكرية التى تقوم بنشرها وزارة الدفاع الوطنى (مارس ١٩٤٤) .

٦ — آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية : بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب (المجلد السابع ، ١٩٤٤) .